

اختلال التوازن العالمي

وضعه

الدكتور غوستاف لوبون

ونقله الى العربية

الدكتور

صلاح الدين وصفي

عني بنشره

الشيخ يوسف توما البستاني

صاحب مكتبة العرب

بالفجالة بمصر

١٩٢٨

مطبعة العرب للبستاني

بالفجالة بمصر

الكتب الآتية تطلب من مكتبة العرب بالفجالة بمصر
لصاحبها الشيخ يوسف توما البستاني

غرش صاغ مصري

١٠	الرجل الذى لا يعرفه احد بقلم بروسن برتوف
١٠	الحياة البسيطة بقلم شارل واغنار
٥	المواكب لجبران خليل جبران مزين بالصور
١٥	البدائع والطرائف لجبران خليل جبران مزين بالصور
١٥	دمعة وابتسامة » » » طبع النيويورك
١٠	كلمات جبران خليل جبران
٥	كتاب رمل وزبد لجبران خليل جبران
٨	النبي لجبران خليل جبران
١٠	مذكرات سفير اميركا فى الاستانة عن الحرب العظمى بالصور
١٥	» المارشال هندنبرج جزآن
١٥	» » لودندرف »
١٥	» مدام اسكويث قرينة رئيس الوزارة البريطانية السابق بالصور
١٥	هداية الاطفال وتربية البنين والبنات لحسن توفيق
١٢	نوادر الحرب العظمى وهي قصص واقعية عن الحرب العظمى
٦٠	الجزء الحادى عشر من دائرة المعارف للبستاني مزين بالصور
٨	راسبوتين الراهب المحتال تعريب أسعد خليل داغر
١٢	المرشد الظريف في طالع الجنس اللطيف وهو فكاهي تعريب المحامي حنا أسعد
٨	القوة الفكرية فى المغنطيسية الشخصية تعريب المحامى حنا أسعد
٥	تاريخ غليوم الثاني امبراطور المانيا بقلم كريم ثابت

اختلال التوازن العالمي

وضعه

الدكتور غوستاف لوبون

ونقله إلى العربية

صلاح الدين وصفي

عني بنشره

الشيخ يوسف توما البستاني

صاحب مكتبة العرب

بالفجالة بمصر

١٩٢٨

مطبعة العرب للبستاني

بالفجالة بمصر

اهداء المترجم

إلى الاستاذ

الدكتور عبد الرحمن بك شهبندر

سيدى .

إذا عدد أبناء البلاد العربية أسماء الاشخاص الذين خدموا ويخدمون قضية بلادهم بعزم ثابت ونية صادقة بما أوتوه من ضمير حي وإخلاص أكيد . وبما حصلوا عليه من ثقافة وافرة وعلم غزير . فانهم يذكرون اسمك الكريم بين أوائل الأسماء التى يعدونها .

فاسمح إذن لأحد أولئك الأبناء أن يقدم إليك مترجمه هذا إقراراً بفضلك واعترافاً بجليل أعمالك في سبيل بلادك

دمشق الشام صلاح الدين وصفي

اهداء المؤلف

إلى القائد الشهير

الجنرال شارل مانجن

في مدة تلك الأيام المظلمة ، أيام «فردون» التي أعانت بصيرتك الخارقة وبسالتك النادرة أثناءها على تبديل وجهة القدر. قد تناولت منك ياعزيزي الجنرال صورة ذكرتني في كلمة إهدائها إلي بأنك أحد تلاميذي وقد أكدت لي عندئذ بأن بذور المعرفة والثقافة التي ألفيتها في ذلك الحقل الواسع ، حقل العلم . قد قادت خطاك إلى سواء السبيل عندما كنت تهيء وسائل النصر البات والظفر الجازم الذي انعقدت راياته فوق رؤوسنا في الثامن عشر من شهر تموز عام ١٩١٨ وأثناء الاعمال التي تلت ذلك الانتصار . ولما كان المشتغل بعلم النفس ندر أن يسعده الحظ بالعثور على تلميذ مثلك لكي يطبق آراءه ومبادئه فيتوجب عليه والحالة هذه أن يختط في قلبه نحو ذلك التلميذ أشد عواطف الامتنان وأحرها .

فأنا أفصح عن هذه العاطفة باهداء هذا الكتاب اليك ؟

غوستاف لوبون

توطئة

حالة العالم اليوم

ان المدنيات الحديثة تتراءى بشكلين ، و بين هذين الشكلين من التباين والاختلاف ما يجعلها يبدوان لو أمكن النظر اليهما عن أحد الكواكب السيارة البعيدة كأنهما ينتسبان لعالمين مفترقين عن بعضهما تمام الافتراق

فأحد هذين العالمين هو عالم العلم وتطبيقاته ، وهو عالم تشع من الهياكل والأركان التي يتألف منها أنوار ساطعة تبهر الأنظار وتخطف الأبصار ، وتلك هي أشعة الوفاق والوئام والحقيقة المحضة الناصعة

أما العالم الآخر فهو المرسح المظلم الذي تتمثل عليه الحياة السياسية والاجتماعية ، والهياكل المتداعية التي يقوم عليها بناء هذا العالم محاطة بضروب الأوهام والأضاليل والأغراض ، وهو عرضة لأن ينهدم تهدماً لا صلاح له بعده إذا ما صار مرسحاً لبعض الوقائع الهائلة .

فهذا التباين الجلي فى مظاهر المدنيات العظيمة المختلفة يحمل على الاستنتاج بأن كلا من هذه المظاهر مشكل من عناصر لا تجانس بينها ولا تتبع نظاماً واحداً أو مقياساً خاصاً .

ان الأمور التى تدير دفة الحياة الاجتماعية هي تلك الاحتياجات والعواطف والدوافع الطبيعية التى تنوقلت بالوراثة وكانت في كثير من الاجيال الادلة الوحيدة التي قادت البشرية فى معارج الحياة ، وموضع الاتباع في سيرها وأعمالها

على أن السير في هذا المضمار نحو التكامل بقي بطيئاً فان الشح والحسد والهمجية والشحناء وغيرها من العواطف التى كانت تسير أجدادنا لا تزال هي هي .

وقد بقي الانسان على ممر الاجيال التي كشف العلم مبلغ كثرتها وتعددها ضئيل الفرق عن العالم الحيوانى الذي كان عليه يوماً أن يسبقه بمراحل من الوجهة الفكرية .

أما في ميدان الحياة العضوية فرغماً عن بقائنا متساوين مع الحيوانات ، فاننا في دائرة الشعور الحي لا نتقدمها الا تقدماً ضئيلا للغاية . فتفوقنا لم يكن عظيما جداً الا فى مضمار الذكاء فقط . وبواسطة الذكاء تقاربت أجزاء اليابسة من بعضها وانتشرت

الافكار بسرعة البرق من نصف الكرة الارضية الواحد إلى نصفها الآخر .

لكن الذكاء الذي يأتي بذلك القدر من الاختراعات والاكتشافات في المخابر العلمية لم يؤثر حتى الآن على الحياة الاجتماعية إلا تأثيراً ضئيلا ، لأن الذكاء قد بقي تحت سلطة كثير من الميول الشديدة والدوافع المتقدة التي لا تتبع سلطان العقل . فكما أن الميول الجنونية تمكنت من الاحتفاظ بسيطرتها على أرواح الشعوب في القرون الغابرة فهي كذلك لا تزال تدير حركات هذه الشعوب وتسيطر عليها .

***

ان تفهم الحوادث يكاد لا يكون ممكناً إلا إذا نظر بعين الاعتبار الى الفوارق العميقة التي تفرق بين الميول المتأثرة بالعاطفة أو بالعوامل الاعتقادية Mystique وبين المؤثرات العقلية ، فبذلك يمكن تعليل الأسباب التي جعلت الكثيرين من ذوي الذكاء الفارط في كل زمان يتقبلون أسخف المعتقدات الصبيانية كعبادة الافعى أو بعض أنواع الزواحف المسمى (مولوك Moloch) مثلا . بل لا تزال الآن ملايين من البشر تحت تأثير أحلام وخيالات بعض مشاهير أهل الخرافة الذين جاءوا بعقائد دينية أو سياسية .

فقد غدا فى يد الاوهام الشيوعية فى هذه الأيام من القوة ما يكفي للقضاء على امبراطورية عظيمة وتهديد جملة بلاد وممالك

كما أن من جراء ضعف سيطرة الذكاء على دائرة العواطف رأينا أثناء الحرب الاخيرة بعض الذين نالوا من الثقافة قسطاً وافراً للغاية يحرقون الكاتدرائيات والمعابد العظيمة ويقتلون الشيوخ وينهبون البلاد وذلك لمجرد لذة الاذى، والتخريب فى نفوسهم

***

اننا نجهل الدور الذي سيمثله العقل يوماً على مرسح حوادث التاريخ فاذا كان الذكاء لا يقوم بسوى خدمة أغراض الميول المتأثرة بالعاطفة أو بالعوامل الاعتقادية التي لا تزال تدير دفة العالم فيقدم لها وسائط للاتلاف والتخريب هى فى كل يوم أشد فعلا وأعظم تأثيراً من حيث الاذى والضرر فان مدنياتنا العظيمة ستؤول إلى مثل العاقبة التي آلت اليها الامبراطوريات الاسيوية العظيمة ، تلك الامبراطوريات التي لم تنفعها سلطاتها الواسعة وقواها العظيمة فى الخلاص من أيدي الفناء والتي تغطى الرمال اليوم آثارها وأنقاضها الاخيرة

فمؤرخو المستقبل سيقولون ولا شك عندما يفكرون فى الاسباب والعوامل التي أدت لخراب الجمعيات الحديثة أن عواطف الذين

دافعوا عن هذه الجمعيات لم تتكامل بنفس السرعة التي تكامل فيها ذكاؤهم فتلاشت لذلك هذه المدنيات .

***

ان جزءاً من الاضطراب في القضايا الاجتماعية التي تحرك حياة الامم اليوم ناتج عن المشاكل التى أوجدها التوفيق بين المصالح والغايات المتعارضة المتضادة

فالاختلاف قد يوجد بين الشعوب فى أيام السلم أيضاً بل قد يوجد بين طبقات مختلفة لشعب واحد ، لكن ضرورات الحياة توفق في النهاية بين المصالح المتضاربة وتجعلها تتوازن ، وهي إن لم تحدث وفاقاً تاماً فانها تحدث شبه وفاق .

على ان هذا الوفاق الذي هو دوماً غير ذي قرار لا يدوم بعد الاضطرابات العميقة كالاضطرابات التى حدثت أثناء الحرب العامة، إذ أن عدم التوازن يحل إذ ذاك مكان التوازن فالعواطف والمعتقدات والمصالح المتعاكسة بتملصها من القيود الأولى تظهر للوجود من جديد وتتصادم بشدة .

فبهذه الصورة لقد دخل العالم منذ بدء الحرب في صفحة عدم توازن وهو لما ينجح بعد في الخروج منها .

وبسبب ادعاء الشعوب والاشخاص الذين يديرون دفة أمورهم

أنهم يحاولون انهاء المشاكل التى هي جديدة تماماً بواسطة القواعد القديمة فقد بقيت حالة الفوضى أو عدم التوازن ضاربة أطنابها بأكثر من ذى قبل لأنه يستحيل اليوم حل المشاكل الجديدة بتلك الطرائق القديمة

ان الأوهام المتأثرة بالعواطف وبالعوامل الاعتقادية التي سببت نشوب الحرب لا تزال مسيطرة أيضاً في أيام السلم . فهذه الاوهام قد جلبت لأوربة هذا الظلام الدامس الذي تتخبط فيه الآن ، وهي لما تهتد بعد الى قبس تلتمس فيه طريقاً يخرجها من الظلمات إلى النور .

***

انه لأجل التخلص من الأخطار التي يرى المستقبل محاطاً بها يجب درس القضايا التي تظهر للعيان من كل صوب وتدقيق رد الفعل الذي ستولده كل منها درساً مجرداً عن تأثير العواطف والأوهام وغرض هذا الكتاب هو القيام بهذه المهمة .

ان هذا المستقبل بيدنا لأنه في الواقع يتكون و يتهيأ منا وفينا، ولما كان المستقبل كالماضى غير معين ، فمن الممكن أن يتبدل و يتحور بفعل جهودنا . فالشيء الذي هو الآن ميسور الاصلاح يغدو في المستقبل مستحيله ، كما أن للعرض (الصدفه) أي الأسباب المجهولة تأثيراً عظيما جداً على سير الأيام، لكن هذا التأثير لم يكن يوماً ليحول بين الشعوب و بين تعيينها بنفسها مستقبلها ومقدراتها ما ؟

الكتاب الاول

عدم التوازن السياسى

الفصل الأول

تطور المثل الاعلى وتكامله

لقد درست في كتبي أكثر من مرة تأثير المثل الأعلى الكبير في حياة الامم ومع ذلك يتوجب علي الرجوع إلى هذا البحث هنا أيضاً . لأن فكرة كون الحالة الراهنة عبارة عن تنازع أمثلة عليا متباينة تزداد تحققاً يوماً بعد يوم . فقد ظهرت في الحقيقة أمام الأمثلة العليا الدينية والسياسية القديمة التي ضعفت ساطتها أنواع جديدة من الأمثلة العليا تحاول أن تقوم مقام تلك

ان التاريخ يرى بسهولة ان كل أمة لا يشترك أفرادها بالميول والمصالح ولا يدينون بمعتقدات متماثلة ليست سوى غبار مشكل من أشخاص لا رابطة بينهم ولا بقاء ولا قوة لهم .

فالرابطة التي تخرج شعباً من ظلام الهمجية إلى نور المدنية تحصل بتقبل أفراد ذلك الشعب لأمثلة عليا واحدة . أما الفتوح والاحتلالات التي تحدث عرضاً فلا يمكن أن تقوم مقام هذا الامر التوحيدي.

ان الامثلة العليا التي فيها القدرة على التوحيد بين أرواح أفراد الأمة على أنواع : فمذهب أهل روما القدماء يقوم على عبادة الرب وأمل الدخول إلى الجنة والخ . . . . و بما أنه كان واسطة أجر وثواب فقد كان له هذا التأثير نفسه منذ تسخيره القلوب لأوامره .

فالشعب بسعيه وراء مثل أعلى يستطيع التأثير على الأرواح يحيا حياة سعيدة ، و إذا ما ضعف الايمان بهذا المثل الاعلى يبتديء ذلك الشعب بالتقرب من الاضمحلال . فانحطاط روما بدأ منذ الزمن الذى لم يعد الرومانيون فيه يحترمون شرائعهم وآلهتهم و يقدسونها .

***

ان المثل الأعلى لكل أمة يحوي عناصر عظيمة الثبات كحب الوطن مثلا كما انه يحوي عناصر تتبدل بين بطن وآخر من حياة الشعب حسب الاحتياجات المادية والمصالح والأفكار المتمكنة من أذهان القوم .

فاذا دققنا في أحوال فرنسة لوحدها منذ عشرة قرون فقط يتضح لنا أن العناصر التي يتكون منها مثلها الأعلى قد تبدلت أكثر من مرة ولا تزال هذه العناصر في تبدل مستمر في الوقت الحاضر أيضاً .

كانت العناصر الدينية زمن القرون الوسطى تفوق العناصر الاخرى على أنه وان كان الدور الذي لعبه النظام الاقطاعي ونظام الفروسية والحروب الصليبية قد منح تلك العناصر شكلا خاصاً فإن المثل الأعلى بقى متعلقاً بأهداب السماء (الدين) لا يحيد قيد شبر عن الوجهة التي توجه فيها .

وفي دور التجدد تغيرت المفهومات نبعث عهد القرون الاولى من عالم النسيان وأحدث تبدلا في الجو الفكرى . ولقد وسع علم الفلك في دائرة ذلك الجو إذ برهن على أن الأرض التى كانت تفرض مركز الكائنات ليست سوى جرم سماوى صغير جداً سابح في فضاء اللانهاية . لكن فكرة وجود الاله بقيت بدون شك موجودة في ذلك الحين أيضاً ، لكنها لم تعد هى المثل الاعلى الوحيد، بل لقد اختلطت معها بعض المشاغل الارضية أى الدنيوية ، كما أن الصنعة والعلم كانا يفوقان علم اللاهوت خطورة وأهمية في بعض الاحيان .

وكلما كانت الأيام تمر وتنقضي كان المثل الأعلى يتطور ويتكامل أيضاً . فلقد انتهى الأمر بالملوك الذين كان البابأوات والزعماء يحددون سلطتهم أن اصبحوا مستقلين مطلقي التصرف وجاء القرن السابع عشر فكانت تشع منه أنوار ملكية مطلقة لا تتعارض مع قوة ما من القوى وسادت الوحدة والنظام في كل مكان . وانصرفت الجهود التي كانت تبذل في سبيل السياسة نحو الآداب والفنون الجميلة فجعلتها تزهو وتزدهر .

واستمر كرور الاعوام ؛ وقام المثل الأعلى بمرحلة جديدة نحو التكامل فبعد الاستبداد الذي ساد في القرن السابع عشر جاء القرن الثامن عشر بفكرة النقد والاصلاح ووضع كل شيء على بساط البحث والتمحيص . ولقد ضعف مبدأ السلطة وأضاع حكام الارض الاقدمون نفوذهم الذي كان عماد قوتهم ، وقام مقام الصنوف الحاكمة القديمة كصنف الحكام والملوك والاشراف ، وآل الكهنوت صنف آخر سخر جميع القوى لارادته . وكانت الاعمدة التي قام عليها بناء هذه الطبقة ومنها خصوصاً مبدأ المساواة سبباً في انقلاب حدث في اوربة فحولها إلى ساحة حرب وقتال زهاء عشرين سنة

على انه لما كان الماضي لا يموت في النفوس الا ببطء فقد عادت الافكار القديمة بعد قليل للظهور من جديد ، ودخلت الامثلة

العليا الجديدة فى جدال ونضال مع الامثلة العليا القديمة فبقيت فكرة الحكومات المطلقة والاختلالات التي عادت للدهور تتعاقب حتى قرن تقريباً خلا من يومنا الحاضر .

ومع ذلك فقد كان ما بقى من الامثلة العليا القديمة يزول شيئاً فشيئاً بمرور الأيام وجاءت الكارثة التي قلبت العالم رأساً على عقب قبل زمن قليل فزادت فى اضعاف النفوذ الضئيل الذي بقى للبقية الباقية من تلك الامثلة العليا . أما الآلهة التي أصبح من الامور الجلية عجزها عن إدارة حياة الامم فقد غدت خيالات أشباح خيم عليها شيء من ظل النسيان . وظهر للناس أن أقدم السلطنات لاقدرة لها فى الحقيقة من نفسها وان قوتها وهمية فسخطوا لذلك عليها وهدوا أركانها . وهكذا تحول المثل الأعلى المشترك بين الجماعات مرة أخرى أيضاً .

ان الشعوب التى كانت (مبلوفة) ومغرورة تجتهد الآن وراء استقلالها ومحافظة نفسها بنفسها وهي تدعي انها تريد أن يكون النفوذ المطلق لصنف العمال بدلا من دكتاتورية الآلهة والحكام .

لكنه من سوء طالع فئة العمال أن هذا المثل الأعلى الجديد قد ظهر لحيز الوجود فى وقت يكاد رقى العالم الذي تغير بتقدم العلم أن لا يكون ممكناً فيه إلا تحت تأثير الفئة المتنورة . أما في روسيا فقد

كان لا أهمية كثيراً وقتئذ لفقدان فئةمتنورة ذات كفا آت عقلية لـكن فقدان روسيا اليوم لتلك الفئة هو الذي ألقاها في هوة سحيقة من العجز

ان من المشاكل التى وقع فيها الجيل الحالي كونه لم يهتد بعد إلى إيجاد مثل أعلى يستطيع أن يؤلف بين أغلبية العقول .

وقد بذل الدمقراطيون الظافرون كثيراً من الجهود في التفتيش عن هذا المثل الأعلى الضروري لـكن سعيهم كان دوماً عقيم النتيجة إذ اقترحوا عدة أمثلة عليا لـكنه لم يجد أى واحد منها من الاتباع عدداً يكفي لأن يوفر له أركان السيادة على الأمثلة العليا الأخرى .

وفي هذه الفوضى العامة تحاول الاشتراكية أن تقبض على زمام أمور العالم لـكنه بالنظر لأنها غريبة عن القوانين الأساسية في علمي النفس والسياسة فهي تتصادم مع العراقيل التى لا تستطيع الارادات اجتيازها . و على هذا فان الاشتراكية لن تستطيع الحلول مكان الامثلة العليا القديمة .

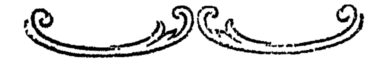
***

جاء في الاساطير القديمة أنه كان في مقاطعة (بهاوسيا *Béotie*) من أعمال بلاد اليونان القديمة في الطريق المؤدى لبلدة (ثيب *Thèbes*)

كهف من الكهوف التى حفرتها الايام داخل الصخور كان يعيش فيه وقتئذ كائن عجيب محاط بالاسرار يورد بعض الاحاجى يمتحن بها ذكاء الاشخاص فكان يقضي بالموت على الذين لا ينجحون في حلها.

فهذه القصة الرمزية تمثل تمثيلا جليا المعمى المشئوم الذى تصادفه الشعوب أكثر من مرة في الظروف الحرجة الخطيرة من أيام حياتها حيث لا يبقى امامها الا احد اثنين اما ايجاد حل لذلك المعمى واما الموت . و يمكن القول بأن القضايا العظيمة التى تتعلق بها مقدرات الشعوب لم تكن يوما عويصة أكثر مما هى اليوم .

على انه وان كان الوقت لم يحن بعد لتشييد مثل أعلى جديد فأن تعيين العناصر التى ستدخل في بنائه والعناصر التى سيتحتم ادخالها فيه اصبح ممكنا . وعلى ذلك فسنكرس الكثير من صفحات كتابنا هذا لتعيين هذه العناصر ومعالجتها ما؟



الفصل الثاني

النتائج السياسية

للشطط فى الشؤون النفسية

إن خطأ عدم رؤية حوادث المستقبل قبل وقوعها ورؤية الحوادث الراهنة على غير حقيقتها قد حدث مرات عديدة أثناء الحرب و بعدها أى منذ الهدنة حتى الآن

أما خطأ عدم فهم الحوادث قبل وقوعها فقد ظهر في كل دور من ادوار الحرب . فان المانيا لم تتوقع اشتراك انكلترا وايطاليا وخصوصاً أميركة بالحرب، وكذلك فرنسا لم تكن أكثر من المانيا إدراكا للامور قبل وقوعها فلم تر بعين المستقبل أن بلغاريا وروسيا ستنسحبان من ساحة القتال ولم تر أيضاً بعض الحوادث الاخرى قبل وقوعها

أما انكلترة فانها هى أيضاً لم تكن أكثر فطنة ولقانة فقد ألمعت في غير هذا المكان الى أن وزير خارجية انكلترة قد خطب قبل عقد الهدنة بثلاثة أسابيع خطبة جزم فيها بان الحرب ستطول كثيراً

أكثر مما طالت هي بالواقع وما ذلك إلا لان هذا الوزير لم يخطر له أبداً أن الجيش الالمانى قد فقد قوته المعنوية

ان من الممكن إدراك صعوبة التكهن عن الحوادث التى ستقع في المستقبل قبل وقوعها مهما كانت قريبة لكن من الصعب فهم المشا كل التى يصادفها رجال الحكومات في سبيل الالمام بما يجرى فى البلاد الاخرى وهم ينفقون المبالغ الطائلة على موظفين خصوصيين انتدبوهم في تلك البلاد ليعطوهم علماً بكل ما يجري فيها

فسبب العمى في بصيرة مأموري الاستخبارات ناشيء ولاشك عن عجز هؤلاء المأمورين عن ادراك النقاط العامة في الحوادث الخاصة التى يمكن أن يقع بصرهم عليها

عدا عن الاخطاء الجسيمة التى ارتكبناها في الشؤون النفسية وكان خراب الكثير من إيالاتنا ثمناً لها ، تلك الاخطاء التى لست هنا لانصرف الى الكلام عنها ، فقد ارتكبت اخطاء أخرى عديدة منذ الهدنة كانت ذات نتائج هائلة مريعة

أولى هذه الاخطار كانت عدم تسهيل انفصال الدول المختلفة التى تشكل الامبراطورية الالمانية والذي ابتدأ انفصالها عن بعضها يجري من نفسه عقيب انكسار المانيا

والخطأ الثانى هو تسهيل تجزؤ النمسا وتفكك أوصالها فى حين أن مصلحة السلام الاوربى كانت تقضى باجتناب ذلك مهما كلف اوربة الامر

وهناك خطأ ثالث وان يكن اقل شأناً من السابقين لكنه كان في الوقت نفسه سيء العقبى ، وهو منع ادخال اكداس البضائع التى صنعتها الفبارك الالمانية أثناء الحرب الى فرنسا

***

لنفحص الآن النتائج التى أدت بها هذه الاخطاء بالتسلسل .

إن النتيجة الاولى أهم النتائج . لقد قلت وكررت قبل الانتهاء من وضع معاهدة الصلح بزمن طويل ان تسهيل انقسام المانيا الى دول تفترق كل منها عن الاخرى سياسياً أى ارجاعها الى الحالة التى كانت عليها قبل عام (١٨٧٠) يأتي بأعظم فائدة للغاية التى ينشدها العالم وهي السلام العالمي

وقد كان هـذا الامر وقتئذ من السهولة بمكان عظيم ما دامت المانيا عقيب انكسارها قد انقسمت من نفسها لجمهوريات عديدة كل منها مستقلة عن الاخرى .

ان هذا الفصل لم يكن اذ ذاك ليعد صنعياً بل على العكس ان الوحدة هى التى كانت صنعية لان المانيا مؤلفـة من شعوب مختلفة

تستحق أن يكون كل منها مستقلا لوحده اذا جرينا على مبدأ القومية (Nationalité) الذي ينادى به الحلفاء اليوم ويتمسكون به أشد التمسك .

للتوحيد بين بلاد مفترقة عن بعضها منذ عصور ولا يوجد بين أفراد أهلها من الحب المتبادل الا النزر اليسير وجعلها كتلة واحدة يقتضى أن يكون على رأسها يد كيد بروسيا الحديدية وأن يدرب أهلها على العيش معاً في معسكر واحد ومدرسة واحدة مدة خمسين سنة

لكن هذه الوحدة لم تحفظها الا المنافع التى حصل عليها بواسطتها فكان طبيعياً عند ضياع تلك المنافع — وهو نفس ما حدث عقيب الانكسار — أن تتفكك أوصال تلك الوحدة وتؤول الى تجزؤ وانقسام

كما أنه لو أغريت بعض الجمهوريات التى تأسست حديثاً بشروط صلح أكثر ملاءمة لها وسهل ذلك الانقسام بهذه الواسطة لتقرر التجزؤ الذي حدث من نفسه وتثبت

لكن الحلفاء لم يستطيعوا فهم هذه المسألة لانهم كانوا يظنون ولا شك بأن المنافع التى يحصلون عليها من المانيا متحدة تفوق الفوائد التى يجنونها منها متجزئة

على أن الفرصة التى كانت سانحة قد فاتت الآن . فان الذين يديرون دفة المانيا قد استفادوا من التردد الذي لا يتناهى في مؤتمر

الصلح فكونوا وحدتهم من جديد مع بعض الصعوبة

ان الوحدة الراهنة تامة فان المانيا بموجب القانون الاساسي الجديد هي امبراطورية تكاد تكون منقسمة الى بضع دول حرة متساوية بالحقوق إذ أن هذا الانقسام ظاهري محض لان كل مايتعلق بالتشريع عائد للامبراطورية كما أن استقلال تلك الدول المتحدة عن بعضها أقل منه في الحقيقة عما قبل الحرب، وبالنظر لان تلك الدول ليست سوى إيالات بسيطة للامبراطورية فهي مستقلة عن بعضها استقلالا ضئيلا بدرجة استقلال الايالات الفرنسية القليل عن حكومة باريز المركزية

إن التبدل الحقيقي الوحيد الذي أجرى في الوحدة الالمانية الجديدة هو انه لم يبق لبروسيا ذلك التفوق الذي كان لها وقتئذ

***

إن الخطأ السياسي الذى قام على تسهيل اضمحلال النمسا كان أسوأ عاقبة فان امبراطورية النمسا وان كانت في الواقع في فوضى واضطراب لكنها كانت حكومة ذات تقاليد وأوضاع وأنظمة و بكامة واحدة لم تكن بنت أشهر أو سنين بل هى مما لا يتسع المجال لبنائه إلا للقرون الطويلة والعصور الكثيرة

فلو كان الحلفاء في أعمالهم أقل خيالا وأكبر دراية لظهرت لهم ظهور الشمس في رابعة النهار ضرورة المحافظة على امبراطورية النمسا

ان اوربة ادركت منذ الآن كما أن مرور الايام سيزيدها ادراكا ماسيكلفها انقسام النمسا الى دويلات لا منابع للثروة فيها ولا مستقبل لهاء الى دويلات لم تكد تتشكل حتى دخلت في حروب طاحنة مع بعضها

هذا وان الاضطرابات الجديدة التي ستخلقها جميع هذه الدويلات في اوربة هي التي حملت البرلمان الاميركي على عدم الاعتراف بجمعية الامم والاشتراك بها لان اشتراك الولايات المتحدة بها سيضطرها للتدخل والتوسط في النزاع والخصام الرائجة سوقه في البلقان بين شعوبه غير القابلة للتمدن

ان لاضمحلال النمسا نتائج اخرى اسوأ عاقبة من النتائج السابقة أولاها في الحقيقة سيكون توسع المانيا بانضمام البلاد التي يسكنها التسعة او العشرة ملايين المانياً الذين يمثلون البقية الباقية من امبراطورية النمسا القديمة اليها . فان هؤلاء الالمانيين بالنظر اشعورهم بضعفهم يولون اليوم وجوههم شطر المانيا ويطلبون الالتحاق بالبلاد الالمانيه

نعم إن الحلفاء يمانعون في هذا الالتحاق إلا انه كيف يتاح لهم ان يمانعوا في ذلك دوماً مادام النمساويون الذين هم من العنصر الالماني يستندون بطلبهم الالتحاق بالمانيا على المبدأ نفسه مبدأ القوميات الذي ينادي به الحلفاء بملء أفواههم والذى يخول كل امة حكم نفسها بنفسها ؟

ان التاريخ مملوء بسرد المصائب التى تنتج عن الافكار المغلوطة وأمامنا الآن نتيجة من نتائج خطل الرأى فمبدأ القومية الذى يراد الاستعاضة به عن مبدأ التوازن يتراءى من الوجهة العقلية المنطقية صواباً جداً لكنه يصبح هو والصواب على طرفي نقيض عند ما ينظر بعين الاعتبار الى أن البشر مسيرون بتأثير العواطف والاهواء والمعتقدات وقليلاجداً بتأثير العقل والصواب

أي تطبيقات يمكن اجراؤها على مبدأ القوميات الخيالى في بلاد فيها شتى العناصر واللغات والاديان و بين اهل البلد والآخر بل بين أهل القرية والاخرى بل حتى بين أهل القرية الواحدة ممن ينتمون اليها من العداوة والبغضاء المتأصلتين في النفوس منذ قرون ما جعلهم لا يفكرون إلا بان يفتك بعضهم ببعض ؟

***

ثالث الاخطاء التي عددناها حتى الآن هو عدم السماح للبضائع الالمانية التي كدستها فبارك المانيا زمن الحرب من الدخول الى فرنسا بعد عقد الهدنة بكل الوسائط الممكنة وهو من أعظم العوامل التي سببت دوام غلاء المعيشة

لكن هذه الممانعة لم تكن بالطبع نتيجة قرارات مؤتمر الصلح بل هي نتيجة قرار حكومتنا وحدها

كما انه لم يرتكب هذا الخطأ أيضاً غير الحكومة الفرنسية فقط فان اميركةوانكلترة كانتا اكثر انتباهاً منها اذ فتحتا الابواب على مصراعيها أمام البضائع الواردة من المانية، فاستفادت بلادهما من تلك البضائع بأن تدارك الأهلون ما يلزمهم منها بأسعار واطئة مناسبة ، وهكذا فقد خففتا من غلاء المعيشة فى بلادهما .

ان أرجحية المتاجرة مع بلاد هبطت أسعار « السحب » فيها هي قضية تعد من الأوليات في علم الاقتصاد فهي من الجلاء، والبساطة بحيث أن العقل البشرى لا يؤمن بامكان وجود رجال حكومة لا يستطيع فهمها .

ان الأسباب الخيالية التى جعلت حكومتنا تمتنع عن السماح للبضائع بالدخول إلى البلاد الفرنسية أو فرضها مكوساً باهظة على البضائع الواردة (الأمر الذي يؤدي إلى النتيجة ذاتها) كان كمساعد لبعض أصحاب الفبارك الفرنسيين على اختلاق أسباب ما أنزل الله بها من سلطان لتبرير غلاء المعيشة . بينما هم في الأصل عاجزون عن تأمين معشار الحاجيات التى تحتاجها فرنسة .

فارضاء لبعض أصحاب الفبارك اضطر الشعب للالتجاء الى التجار الانكليز والاميركان فصار يدفع لهم ثمن الحاجيات التي ابتاعوها من المانيا بفئة رخيصة جداً ثلاثة أو أربعة أضعاف سعرها الذي

ابتاعوها به ، في حين أن باستطاعتنا نحن أيضاً الحصول عليها من المانيا كما حصلوا عليها هم .

***

ان هذه الأخطاء النفسية التي تكلمنا عنها قد ارتكبت زمن الهدنة لكن رجال الحكومات الأوربية قد كدسوا منذ ذلك الحين أغلاطاً أخرى كثيرة فوق تلك .

ان الموقف الذي وقفه ذلك الوزير الذي كانت بيده مقدرات انكلترة وقتئذ تجاه بولونيا كان من أشد تلك الأخطاء وأسوأها ، ذلك لأنه كاد يؤدي بسلامة اوربة الى هوة سحيقة من الاضمحلال .

فان هذا الوزير لما كان يريد أن يخطب ود شيوعيي روسيا فانه لم يتردد عن أن ينصح حكومة بولونيا جهاراً بقبول شروط الصلح التي عرضتها روسيا عليها ، تلك الشروط التي كانت فوق طاقة احتمال بولونيا سيما منها نزع السلاح الذي كان من أخص نتائجه استهداف بولونيا لخطر النهب والسلب وحدوث مجازر هائلة فيها وجعل أوربة بأجمعها عرضة للاكتساح .

كما أن هذا الوزير نفسه لكي يبين للباشفيك حسن نيته بصورة جلية واضحة استعمل في هذا السبيل وسيلة مغايرة لكل

أنواع الحقوق فى العالم ، وذلك بمنعه مرور الذخائر والمهمات الحربية التي كانت ترسل للبولونيين عن طريق (دانزيغ) وسعيه لدى الحكومة البلجيكية وحملها على عدم السماح بمرور تلك الذخائر من (آنورس) أيضاً.

على أن هذا التدخل أهاج سخطاً عظيما ليس في فرنسة فحسب بل وفي البلاد المحايدة أيضاً واليك كيفية اعراب (الجورنال دوجنيف) عن رأيها في هذا الصدد قالت الجريدة :

« ان الخطتين العدائيتين اللتين اختطتها انكلترة لنفسها تجاه بولونيا قد جعلتا مفكري انكلترة في حيرة تفوق حد الوصف والتوى عليهم ادراك كنه خطة حكومتهم النواء مؤلماً فهم يتقولون اليوم هكذا :

ان انكلترة منزوية فى أمان واطمئنان في جزيرتها ولكن الفضل في ذلك لا يعود لدفاع أبنائها وحدهم بل والذين كانوا يدافعون معهم أيضاً من فرنسيين و بلجيكيين وايطاليين و بولونيين. أما فرنسا و بلجيكا و بولونيا فهن معرضات للخطر بالدرجة الأولى لأنهن فى مقدمة ساحة القتال .

فهل تظن انكلترة أن تركها حلفاءها يفنون عن بكرة أبيهم في محاربة البلاشفة لكي يصدوا سيرهم نحو الغرب وعدم استعمالها كل

نفوذها وكل قوتها فى سبيل معاونتهم — هل تظن انكاترة ان كل ذلك يتوافق مع تقاليد الاخلاص بل مع أوضح منافعها وصوالحها. » اه

لقد كان من السهل التنبؤ عن المنافع التجارية التي حددت لرجل حكومة انكاترة خطته السياسية ولكن الشيء الذي لم يستطع المذكور رؤيته والتنبؤ عنه هو النتائج التي يمكن أن تنشأ عن خطته نحو البولونيين .

فلو عملت بولونيا وقتئذ بموجب نصائح انكاترة وأغمدت حسام الحرب في نصابه لأصبحت البلشفية التي هي حليفة الاسلامية (التي لم يحسن الحلفاء معاملتها في تركيا) أشد خطراً مما هي عليه اليوم ، ولاصبحت محالفة روسيا البلشفية مع المانيا ـ اذا ماخسرت بولونيا الحرب ـ أكيدة لا شك فيها .

على أن من حسن حظنا بل ربما من حسن طالع انكاترة أكثرنا أن حكومتنا كانت بعيدة النظر فى التنبؤ عن نتائج خطة انكاترة

بالرغم من أن الجيش الاحمر وصل الى أبواب (فرسوفيا) وأصبحت حالة بولونيا لا تدعو للأمل فان رئيس وزارتنا وقتئذ لم يتردد لحظة عن امداد البولونيين ليس بالذخائر والمهمات الحربية فحسب بل بارساله رئيس أركان حرب جيش المرشال فوش ليقود

جيوشهم . و بعد أن كان البولونيون الذين عدلوا عن النضال والكفاح يتمادون في التراجع عادت لهم جرأتهم بتأثير هذا الجنرال فقاموا بمهارة ببضع (مانوورات) أبدلت انهزامهم المستمر بانتصار باهر .

أما نتائج ذلك الانتصار فقد ظهرت حالا : تحررت بولونيا وذهبت آمال المانيا أدراج الرياح وتقهقرت البلشفية وغدت آسية أقل تهدداً عن ذي قبل .

وقد كان في النظر الصائب وسرعة العمل بموجبه ما كفى للوصول الى تلك النتائج . ولهذا فكل ثناء على رجال حكومتنا الذين أثبتوا أنهم حائزون على مزايا اصبحت منذ زمن نادرة فيهم هو في الحقيقة بمحله .

***

ان السياسة الأوربية تسير بموجب الأفكار القديمة التي أوجدتها ظروف واحتياجات لم تعد موجودة الآن فان الأفكار الجديدة بخصوص أحقية استقلال الشعوب وعدم فائدة الفتوح ليس لها تأثير على أعمال سياسيي اليوم قط فان السياسيين لا يزالون مقتنعين بأن الأمة تستطيع أن تثرى اذا قضت على تجارة أمة أخرى وان غاية الامم القصوى هي توسيع بلادها عن طريق الفتوحات

على ان هذه الافكار القديمة تتراءى غريبة للشعوب التى لاتسير بموجب معتقداتنا وميولنا الباطلة التى ورثناها عن السلف .

فقد انشأت احدى صحف البرازيل مقالا اظهرت فيه حيرتها في الاسطر التالية التى هي في الوقت نفسه من احسن مايوضح افكار العالم الجديد . قالت :

« ان أفكار كل شعب من شعوب العالم القديم بلا استثناء بشأن الدنيا والحياة لاتزال نفس الافكار القديمة . فماذا تريد هذه الشعوب ؟ الفتح والاستيلاء . وماذا ترقب من نتيجة الحرب عند ماتنشب ؟ سنوح الفرصة للحوزة على أكبر ما يمكن . فالسبب الذى يجعلنا نشعر بذلك دوما عند ذوى المدارك الواسعة والافكار العالية كما نشعر به عند كتل الجماهير بل كما نشعر به في الاوساط الاشتراكية والعاملة (نسبة الى العمال) نفسها حيث الآراء والافكار اختلط الحابل فيها بالنابل وحيث الشهوات والمطامع تفوق حد التصور لا لسبب آخر سوى انانية الصنوف — ان السبب في ذلك ناشىء عن الافكار القديمة عن الماضى المتشكل من عدة قرون . » اه

ان رجال حكومات أوربة كثيراً ماينطقون في الواقع بلسان الزمن الراهن لكنهم يسيرون بموجب أفكار الازمنة الغابرة . فان انكلترة تنادي بمبدأ احترام القوميات في حين انها تستولى أو هي

تحاول الاستيلاء على مصر والعجم والمستعمرات الالمانية و بلاد النهرين (مزه پوتاميا) وغيرها . كما ان الجمهوريات الجديدة الصغيرة التى قامت على انقاض الامبراطوريات القديمة تنادي هى أيضا بتلك المبادئ العالية ولـكنها تسعى لتوسيع أراضيها على نفقة جـيرانها .

ان السـلام لايسود في أور بة الا عندما لايبقى للفوضى التى أوجدها الشطط في الشؤون النفسية من سلطة على النفوس ، وقد يقتضى احياناً عدة سنوات لأجل اراءة احدى الامم الو يلات التى تجرها عليها خيالاتها وأوهامها .

***

بما ان الحرب زعزعت أركان التعاليم التى كان قواد الجيوش يسيرون بموجبها كما انها قضت أيضا على المذاهب التى كانت تغذي أفكار رجال الحـكومات فان نتائج اختبارات وتجارب غير ثابتة أصبحت دليلهم الوحيد في سيرهم وأعمالهم .

فهذه الحالة الروحية قد تجلت تماما في خطاب القاه أحد رؤساء الوزارة في البرلمان الفرنسى اذ انه قال :

« لقد أثرنا غمار الحرب وعقدنا الصلح حسب تجار بنـا

واختباراتنا ، لانه لم يكن في الامكان عمل شئ غيرهذا اماالمذاهب الاقتصادية فلا يوجد هنا عند احد ماشئ منها . » اه

ان السير حسب التجارب لامندوحة عنه في بداية كل علم ، لكن كل علم اذا ماجاز مرحلة نحو التقدم فانه يوفق لاستنباط بضع قوانين عامة من تلك التجارب فبواسطة هذه القوانين يصبح من السهل تفهم سير الحوادث كما أنه يغدو في الامكان الاستغناء عن الالتجاء للتجارب لتلمس طريق السير في الحياة .

ليس هناك أي احتياج للالتجاء إلى طريقة الاستقراء لكي نعلم مثلا ان كل جسم عندما يسقط حراً في الخلاء تكون سرعة سقوطه في زمن معين متناسبة اضطراداً مع مدة السقوط وان المسافة التي يجتازها ذلك الجسم تعادل مربع تلك المدة

إذ أن قوانين علم الطبيعة (فيزيك) مطلقة وثابتة لدرجة تجعل المرء يجزم عندما يرى حادثة لا تتوافق مع تلك القوانين بالظاهر بأنه لابد من طاريء خارجي أثر على تلك الحادثة فجعلها لا تتوافق مع القوانين وأن من الممكن تحديد درجة ذلك السبب . وهكذا فان العالم الفلكي (اوريه Leverrier) قد لاحظ يوماً بأن أحد الكواكب يبدو كأنه لا ينقاد أبداً لقوانين الجاذبية فاستنتج من ذلك أن سيره يجب أن يكون مختلا بتأثير كوكب مجهول من الكواكب السيارة .

فمن هذا الاختلال الملحوظ استدل على موضع الكوكب السيار الذي أحدث ذلك التغيير ، وبعد برهة وجيزة اكتشف الكوكب السيار ذاته في الموقع الذى عينه (لوريه) قبلا

ان علمي النفس والاقتصاد تابعان كجميع حوادث الطبيعة لقوانين لا يطرأ عليها تغيير ولا تبديل ، لكننا لم نتوصل الا لمعرفة النزر اليسير من هذه القوانين حتى أن المعروف لدينا منها عرضة للتغير لدرجة تدع مجالا للشك بأثبت القوانين التى تستند على شتى التجارب .

من الجلي أن رجال الحكومات الأوربية لم يسيروا على خطة ثابتة سواء أثناء الحرب وسواء منذ الهدنة . كما أن جهلهم لبعض القوانين الاقتصادية والنفسية لا يعنى أن مثل تلك القوانين غير موجود . على أنهم قد استهدفوا في كثير من الاحيان لضرر عدم معرفتهم لتلك القوانين ؟



الفصل الثالث

صلح الاساتذة

أو :

معاهدة الصلح يضعها أساتذة الجامعات

يجب علينا أن نضيف الأوهام التى كانت مسيطرة أثنـاء تحرير معاهدة الصلح على الأخطاء التى ارتكبت في الشؤون النفسية والتى عددناها فيما سبق . ولهذا فسنظهر في هـذا الفصل أهمية تلك الأوهام .

قليلون في التاريخ هم الأفراد الذين تمتعوا بمثل النفوذ الذي كان الرئيس ولسن يتمتع به عند ما قدم إلى أوربة وأملى شروط الصلح . فقد كان ممثل العالم الجديد في أيام سلطته الزاهية الزاهرة حاصلا على نفوذ لم يحصل الآلهة والملوك على ما يعادله في كل الأحايين أبداً .

ان المرء ليظن عندما يصغى الى وعوده العجيبة التي تبعث على

الحيرة أن ضياء ساطعاً جديداً سيضيء العالم بنوره ، ولقد كان يتراءى فجر سلام أبدي أمام عيون الشعوب التي خرجت من جهنم مخيفة وأصبحت تخشى الوقوع فيها ثانية ، وظن الناس أنه عصر اخاء تام سيحل مكان عصر التذبيح والتقتيل والاتلاف والتخريب .

لكن هذه الآمال العظيمة الواسعة لم تدم مدة طويلة فقد أثبتت الحقيقة بعد برهة وجيزة أن ليس لتلك المعاهدات التي هيئت بعد الجهد والعناء من النتائج سوى القاء أوربة في هوة سحيقة من الفوضى واضطرار دول الشرق للدخول مع بعضها في سلسلة حروب طاحنة لا يمكن اجتنابها . ان الحكومات الصغيرة التي اقتطعت من السلطنات القديمة وأقيمت على انقاضها قد هاجمت — جميعها تقريباً — بلاد جاراتها فوراً ، حتى ان تدخل أي دولة من الدول العظمى مدة شهور عديدة لم يأت بفائدة ما في سبيل كبح جماحها .

ان من أعظم الأسباب تأثيراً في ذهاب الآمال العظيمة أدراج الرياح هو جهل بعض القوانين النفسية الاساسية التي تدير حياة الشعوب منذ بدء أجيال التاريخ .

لقد كان الرئيس ولسن هو الشخص الوحيد الذي بلغ من سعة السلطة والنفوذ حداً أتاح له أن يقضي بتجزئة أوربة وبمجموعة شروط للصلح يمكن أن يقال انها تعرض العقول السليمة للحير

على اننا نعلم اليوم أن شروط الصلح المذكورة ليست من وضع الرئيس ولسن وحده .

فقد تبين من تصريحات السفير الاميركي ئلكوس « Elkus » التي نشرتها جريدة الماتن أن شروط المعاهدة على اختلافها قد وضعت من قبل جيش صغير من الاساتذة .

قال المستر (ئلكوس) :

« لما وكل الرئيس واسن مهمة انتخاب المعتمدين السياسيين في المستقبل للكولونل هوز « House » اشترط عليه أن لا ينتخب لذلك سوى أساتذة الجامعات وأفهمه أنه لا يقبل بغيرهم وعبثاً حاول الكولونل تذكير الرئيس واسن بآن اميركة تحوي عدداً كبيراً من السفراء العظام والصناعيين الذين يفوقون زملاءهم في جميع الكرة الارضية مقدرة وكفاءة وطول باع وكثير من رجال الحكومة من ذوي الخبرة التامة والمعرفة الواسعة بأمور اوربة وأحوالها ؛ فقد كان الرئيس يكرر قوله :

« ـ لا أريد سوى أساتذة ولا أقبل عنهم بديلا . » اه

فيتضح إذن من هذا ان الذين ملأوا مقاعد اللجان كانوا طائفة من الأساتذة . أما هؤلاء الأساتذة (فقد كانوا يحنون رؤوسهم ليس فوق الأرواح بل فوق متون الكتب يسألون المبادىء

العظيمة المجردة و يطلبون اليها ان تهديهم وترشدهم إلى ضالتهم التى ينشدونها ، وهم في الوقت نفسه يغمضون الأعين عن رؤية الحوادث) وعلى هذه الصورة أصبح الصلح كما دعاه « ثلكوس » (صلح اساتذة) وهكذا ظهر من هذا الصلح مرة اخرى إلى اى حد يمكن ان يكون النظريون الذين امتلأت أدمغتهم بالعلم محرومين من النظر الصائب والعقل السليم و بالتالي ذوى خطر إذا كانوا بعيدين عن حقائق العالم غرباء عنها .

***

ان لمعاهدة الصلح غرضين اثنين مفترقين عن بعضهما تمام الافتراق:

أولهما — احداث دول جديدة على نفقة دولتين اثنتين بوجه خاص وهما النمسا وتركيا .

ثانيهما — تأسيس عصبة أمم لتثبيت دعائم سلام أبدي في العالم .

أما فيما يتعلق بايجاد دول جديدة على نفقة النمسا وتركيا فان التجربة قد اظهرت بسرعة كما سبق لي بيان ذلك قبل اسطر مبلغ ما لهذه الفكرة من القيمة . ولقد كانت اولى نتائجها حلول الدمار

والخراب وحدوث القلاقل والاضطرابات ونشوب المعارك والحروب في تلك البلاد زمناً طويلا . ففي ذلك الوقت اتضح للعيان مبلغ ما ينطوي من الخيال تحت الادعاء القائل بامكان (خلق عدة قرون من التاريخ) بواسطة بضعة قرارات . وهكذا كان مشروع تقسيم الامبراطوريات القديمة إلى إيالات متفرقة بدون النظر بعين الاعتبار إلى إمكان عيشها بعد على حالها بدون تقسيم ـ خلواً من التعقل بل كان جنوناً مطبقاً . اذ ان جميع هده البلاد التي يفصل بينها اختلاف المصالح والعداوات العنصرية لما كانت غير حائزة على شيء من القرار أو الثبات الاقتصادي فهي مضطرة بحكم الضرورة للدخول في حروب طاحنة مع بعضها .

ان النمسا الصغرى الحالية هي محصول أوهام سياسية هائلة سيطرت في مؤتمر الصلح فقادت رئيسه إلى حد تجزئة سلطنة من أقدم سلطنات العالم .

ولكن عند ما تصل النمسا للدرك الأسفل من الانحطاط وتشعر بأنه لا حياة لها بغير الاتحاد مع المانيا ، ماذا يصنع الحلفاء عند ذلك ؟ لا شك أن واضعي المعاهدة سيعترفون آنئذ بالخطأ الذي ارتكبوه بتجزئة كتلة مثل النمسا مفيدة بقدرماهي قابلة للخطر

ما أعظم غلو القائلين بامكان تجديد بناء أوربة بقطعة من الورق وهي التى لم يظهر بناؤها لحيز الوجود الا بعد تشييد استغرق الف عام !

لقد كان المستر « مورغنتو » السفير الاميركى قد وصف الدويلات التي أسست بقرارات مؤتمر الصلح هكذا :

« ما هذا المنظر الذي يبدو على اوربة الوسطى اليوم ! فهنا أكداس من الجمهوريات الصغيرة تنقصها القوى المادية الحقيقية والصناعات والجيوش ومضطرة لايجاد كل شيء من جديد ، وهي مع ذلك تسعى بوجه خاص لتوسيع أراضيها بدون أن تفكر فيما إذا كانت تملك القوة الكافية لادارة البلاد ومراقبة الشؤون ، في حين أن هنالك حكومة كثيفة النفوس تعد سبعين مليون نسمة يقدرون النظام حق قدره ويتيقنون بأنه لا يزال هنالك أمل بامكان السيطرة على العالم أجمع ، فهم لذلك لم يتناسوا أملا من آمالهم ولن ينسوا أى حقد من أحقادهم . » اه

***

ان انكلترة بالنظر لنيلها حقائق مكينة ثابتة مقابل اعترافها بأوهام الرئيس ولسن الباطلة فقد عاضدت تلك الأوهام والخيالات. إذ لم يكن لانكلترة أى نفع في معاكسة البنود التي لاتمس مصالحها

من معاهدة الصلح لأنها الحكومة الوحيدة التي استفادت في الحقيقة من الحرب فغنمت بلاداً شاسعة وأراضي واسعة مترامية الاطراف بعيدة الحدود .

أما فرنسة التي بقيت وحيدة فقد اضطرت لتحمل جميع اعباء احلام الرئيس ولسن الذي ذاع في العالم اختصاص المولى إياه بالعقل السليم والفكر الصحيح فاشتد لذلك تمسكه بمبادئه واحلامه .

ان اوضح اغلاط الرئيس ولسن وجيش اساتذة الجامعات هو في الحقيقة اعتقادهم بأن العقل هو المسيطر على مقدرات الشعوب وعاملها في حياتها ، في حين انهم لو القوا نظرة عامة على التاريخ لتبين لهم ان دليل الجماعات البشرية الحقيقي في معارج الحياة هو العواطف والميول لا العقل الذي ليس له سوى تأثير ضئيل عليها .

ان السياسة اي علم ادارة الخلق تحتاج اقواعد تختلف كثيراً عن الطرائق والقواعد التي يضفر اساتذة الجامعات منها بطائل . إذ ان وضع تلك النظم يجب ان لا يستند على اساس مراعاة الأدلة العقلية المنطقية كما قلت وا كرر القول هنا ايضا ، بل يجب ان يستند على اساس النظر بعين الاعتبار لتأثير العواطف .

* * *

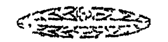
ان عصبة الامم بالرغم من أنه لادخل لمعاهدة الصلح في تأسيسها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتلك المعاهدة لأن غاية جمعية الامم منحصرة في الحقيقة في السهر على هذا الصلح .

ولقد ابتدأت حياة عصبة الأمم بفشل عظيم وهو رفض البرلمان الاميركى الاشتراك بما أوجده الرئيس ولسن .

لأنه وان كان من بيدهم زمام الأمور فى اميركة من الذين يعتقدون بامكان الوصول الى المثل الأعلى (idealistes) لكنهم في الوقت نفسه يرون الحقائق بوضوح تام في بعض الأحايين ولا يتأثرون لخطابات الأساتذة أبداً . وقد لخص خلف الرئيس ولسن أسباب امتناع أميركة عن الاشتراك بالعصبة كما يلي ، قال :

« ان المعاهدة الوحيدة التى نقبل بها هي المعاهدة التى يرتاح اليها ضميرنا فهذه المعاهدة مرجحة عندنا على معاهدة خطيا لا يراعى فيها بقاؤنا أحراراً في أعمالنا وتجعل حقوقنا في أيدي جماعة أجنبية ان أي مؤتمر في العالم وأي محالفة عسكرية لن يستطيع الزام أبناء هذه الجمهورية يوماً على الانتظام في صفوف الحرب فهم لا يطلب منهم بذل أرواحهم اللهم الا في سبيل أميركة وحدها وفي سبيل الدفاع عن شرفها فهذا الحق مقدس لدينا لدرجة تجعلنا لا نتنازل عنه لأي كان أبداً . » اه

هذا واننا سنبحث عن عصبة الامم في الفصول التالية ونقول هنا فقط ان هذه العصبة التي شيد بناؤها بموجب آراء مخالفة لجميع المبادىء التي أتى بها علم النفس لم يكن منها الا ان جعلت الناس يعترفون للآراء السائدة في أميركة بشأنها بالصحة والصواب بالنظر ظهور عدم نفعها وعجزها . وفي الحقيقة يتوجب على المرء ان يضرب بسهم وافر من قصر النظر وخطل الرأي والاستسلام للأوهام والخيالات لكي يتصور إمكان رضاء حكومة عظيمة كحكومة الولايات المتحدة بالخضوع لأوامر جماعة صغيرة أجنبيا لا نفوذ لها ولا قوة : إذ ان تصور ذلك معناه التسليم بوجود شيء من نوع (فوق الحكومات) في اور بة له السيطرة على العالم ولقراراته القدرة على ادارة زمام اموره .



الفصل الرابع

تيقظ العالم الاسلامي

إن البحث عن سلسلة الأضاليل النفسية الذي كرسنا له بعض الفصول السابقة لم يغلق بعد . إذ أننا سنتكلم أيضاً عن بعض الاغلاط الأخرى .

لقد كان هدف السياسة الانكليزية الثابت وغرضها الدائم منذ بضعة قرون هو توسيع النفوذ لانكليزي على نفقة مختلف المنافسين لها . وهؤلاء المنافسون الذين يدعون أنهم يعاكسون هذا التوسع ويمانعون فيه هم اسبانيا في أول الأمر ثم فرنسة . أما انكلترة فقد اغتصبت الهند وكندا ومصر و ... الخ منهما واحدة بعد واحدة كما أن اضمحلال المانيا مكنها من الاستيلاء على جميع مستعمرات هذه الاخيرة التي هي آخر المنافسين الخطيرين لانكلترة .

على أننا لسنا هنا في معرض البحث عن خصائص السجية والمبادىء التي حصلت انكلترة بواسطتها على هذا النجاح الدائم وإنما يلاحظ فقط ان رجال الحكومة الانكليزية يحصرون جهودهم

في السعي وراء النفع المحض مهما كلفهم الأمر ويستخفون بكل الآراء العقيمة والخيالات الفارغة فهم يجتهدون أبداً في توفيق أعمالهم مع مقتضيات الوقت وقد تغرهم الأمور أحياناً وتخدعهم ولكنهم لا يترددون لحظة في تلافي الاخطاء المرتكبة بتعديل الخطة وتبديل طرائق العمل ، ولا يهتمون مطلقاً لانسحاق أنفسهم عقب الفشل ولا يبالون أبداً بما عساه يأتي عليهم تغيير مبدأهم وخطتهم من الضعف الجارح

***

انأت لذلك بمثال قريب العهد بنا يبين سرعة تبدل السياسة الانكليزية وانقلاباتها الفجائية من حال الى عكسه وهو مثال على غاية من الخطورة لأنه يتعلق بمستقبل الشرق :

لقد أدركت انكلترة عقيب حروب طاحنة بينها وبين بلاد مابين النهرين أنه يستحيل على جيش مؤلف من سبعين ألفاً التغلب على مقاومة أهل البلاد فعدلت فجأة عن سعي عقيم باهظ النفقات مثل سعينا في سورية وما كان منها الا أن سحبت جيوشها واستبدلتهم بحاكم وطني وهو الامير فيصل الذى اضطررنا بسبب عدائه ومعاكسته الدائمة لنا لطرده من دمشق ، وجعلت منه ملكا .

وقد حصر غرض الحكومة الانكليزية (الذي كان ظاهرياً في الحقيقة) من هذا الحل في خطاب ألقى في مجلس العموم

الانكليزي على الصورة الآتية :

« تأسيس حكومة اسلامية عاصمتها بغداد القديمة تسترجع سالف مجد العرب وتالد عزهم . »

ان نصب خصم أعلن العداء لفرنسة ملكا في جوار حدودنا السورية ليس عملا ولائياً نحو فرنسة بدون شك . الا أنه لما كانت السياسة الانكليزية تعتبر المنفعة فوق الصداقة بكثير دائماً فان ملاحظات الحكومة الفرنسية واحتجاجاتها لم تلق أذناً صاغية .

فتوج الحاكم الجديد في بغداد بأبهة وجلال عظيمين حتى أن ملك الانكليز أرسل اليه بصورة استثنائية كتاباً أعرب له فيه عن تهانيه الحارة .

وهكذا ألحقت جهراً وعلناً بلاد من أغنى بلاد العالم بالبترول بالمملكة البريطانية فكان ذلك إحدى الغنائم العديدة التي أنالتها السياسة البريطانية لانكلترة

وعلى هذه الصورة قام مقام الجنود الانكليزية في تلك البلاد مهندسون وكل اليهم استغلال البلاد لحساب بريطانيا العظمى .

ان ملك بلاد ما بين النهرين الجديد لا يحكم في بغداد فحسب بل يتناول حكمه أيضاً بلاداً معادلة في المساحة لانكلترة اشتهرت

تربتها منذ القدم بقوة الانبات وهي البلاد التى كانت معروفة باسم نينوه وبابل قديماً .

لو نجحت انكلترة ببسط نفوذها على الشرق بأجمعه لأتتها هذه العملية الخطيرة الشأن بفوائد أعظم نفعاً من الامتيازات التجارية البسيطة التى حصلت عليها . وأوضح فائدة كانت تحصل عليها بنتيجة ذلك أنه يغدو فى يدها (طريق بري) يربطها بالعجم والهند ثم لو تمكنت من الاستيلاء على الاستانة إما مباشرة وإما بواسطة اليونانيين لأصبح سلطان الانكليز على الشرق تاماً ، ولرزح العالم رزوحاً متزايداً تحت ضغط التفوق الدولي الانكليزي الذي بلغت مقاومة ساستنا الخائري العزائم أمامه ذلك الحد من الضعف .

* * *

ان انكلترة قد أصلحت إذن بعض الأغلاط التى ارتكبت في الشرق بكل حذق ومهارة لكن بعض الأخطاء النفسية التي هي اليوم مستعصية على الاصلاح والترميم قد أفسدت وأضاعت من قوة انكلترة ونفوذها في الشرق لزمن طويل جداً .

ان دعم أماني المسلمين في بلاد النهرين واليهود فى فلسطين واليونان في تركيا، تلك الأماني المتعاكسة المتضاربة سياسة « ماكيافيلية » [نسبة الى (نقولا ماكيافل)ويعنى الفرنجة بالسياسة

الماكيافيلية السياسة الخرقاء الجائرة والخالية من التعقل . أما نيكولا ماكيافل فهو مؤرخ قدير ومن رجال السياسة والتشريع المشهورين في العالم وقد كان أيضاً كاتباً كبيراً ووطنياً صميما . ولد فى فلورنسه بايطاليا عام (١٤٦٩) وتوفي سنة (١٥٢٧) ـ المترجم | ومع ذلك فلو وجد « ماكيافل » الآن حياً لقبح هو ذاته هذه السياسة لأن ذلك الفلورنسي الشهير كان يعلم في الحقيقة حق العلم بأن التهجم على الآلهة أو ممثليهم ليس من حسن الادارة في شيء دوماً .

ولكن الانكليز عند ماحاولوا تجزئة تركيا والقضاء على حكومة السلطان في الاستانة الذي هو أمير المؤمنين في عرف جميع المسلمين وخليفة الله (عز وجل) على الارض ـ عند ماحاولوا ذلك ذهلوا تماماً عن هذه القاعدة ونسوها .

وقد ظهرت نتائج هذه الخطة حالا إذ قامت قيامة العالم الاسلامى بأجمعه من البوسفور (اذا مررنا بمصر) حتى نهر الكنج .

وهذا من أكبر الأدلة على أن الساسة الانكليز لم يدركوا عظم نفوذ الاسلامية وسيطرتها الكبرى على الارواح ، فبهذه المناسبة نرى أن الالماع الى منشأ هذا الدين وكيفية انتشاره بصورة إجمالية لايخلو من فائدة .

***

ان الآلهة الجديدة ليست نادرة في التاريخ ، وقد قدر لهــذه الآلهة عادة أن تزول بزوال القوة السياسية للشعوب التى أخرجتها لحيز الوجود وألهّتها .

ولــكنه من نوادر حوادث الدهر أن طالع الاسلامية لم يكن كذلك أبداً . فنها « أي الاسلامية » لم تبق حية بعــد سقوط الامبراطورية العظيمة التي أوجدها مؤسسوها فحسب بل فضلا عن ذلك لم يخل عدد معتنقيها من الازدياد في يوم من الايام أبداً . ويوجد اليوم (٢٥٠) مليون نسمة منتشرين من بلاد مراكش حتى داخل بلاد الصين وكلهم يدينون بدين الاسلام ويتبعون قوانينه . وفي الاحصاآت الأخيرة أنه يوجد اليوم في الهند (٧٠) مليوناً ، وفي الصين (٣٠) وفى تركيا (٢٠) وفي مصر (١٠) ملايين مسلماً وهلم جرا

ان قيام الامبراطورية العربية من الحوادث الفريدة في بابها في التاريخ (تلك الامبراطورية التي يدعي الانكليز اليوم لمصلحة خاصة لهم — بأنهم يسعون في احياء معالمها بنصب خليفة في بغداد انتخبوه هم) فهي حادثة غريبة لدرجة عجز عن ادراك كنهها أمثال (رهنان) من كبار الــكتاب والمؤلفين وعبثاً حاولوا تفهم أسرارها حتى أنهم لم يعدوا آيات التمدن العظيم الذى أتى به هذا الدين وأخرجه

للعالم ـ مدنية حقيقية وأنكروا عليه ذلك دوماً كل الانكار .

في حين أن الاشخاص الذين يعتقدون بأن المنطق الركني أو الاساسي (La logique rationelle) الذي هو دليل المرء في تفهم حوادث التاريخ لا يعتد بالنفوذ العظيم والتأثير الكلي للقوى الاعتقادية أو السرية التي تأتي بامثال هذه الحوادث العظيمة ـ هؤلاء الاشخاص يرون أن حادثة السلطان العربي التي سأذكر القارىء بها فيما يلي ببضعة أسطر من الحوادث المفهومة وستبقى دوماً معروفة السكنه

***

في أوائل القرن السابع للميلاد كان يعيش في مكة (المكرمة) جمّال مجهول خامل الذكر يدعى « محمد » ﷺ . ولما بلغ حوالى الاربعين عاماً من العمر تراءت لعيونه أشياء غريبة عجيبة غير عادية وفي اثنائها حمل اليه « جبريل » أسس الدين الذي كان من شأنه أن يقلب العالم رأساً على عقب

ومن الجلي أن مواطني النبي الجديد يقبلون بسهوله أن يتدينوا بدين جديد هو في الاصل على غاية من البساطة مادام ينحصر في الايمان بانه لا اله إلا الله و بأن محمداً رسوله ذلك لانهم كانوا وقتئذ يعتنقون دينا يقوم على عبادة عدة آلهة ويخالطه شيء من الغموض عدا عن أن ايمانهم به لم يكن تاماً ولم يكونوا على يقين تام من صحته

ليس من السهل تعليل الاسباب التى ساعدت على انتشار هذا الدين بسرعة البرق في أنحاء المعمور المعروفة آنئذ وكيف أن معتنقيه استمدوا منه القوة التى يقتضيها تأسيس سلطنة اعظم من امبراطورية الاسكندر

أما الرومان الذين كانوا يخالون بأن سورية ستبقى فى حوزتهم الى الابد فبعد أن طردوا من هذه البلاد وقفوا حيارى يشاهدون تلك القبائل الرحالة التى جعلها الايمان بالدين الشديد الذي ألف بين ارواح افرادها تتقد غيرة وحماساً فرأوها تستولى في بضع سنين على العجم ومصر والقسم الشمالى من أفريقيا وقسم من بلاد الهند

وقد دامت الامبراطورية العظيمة التى تشكلت على هذه الصورة متينة الاسس قوية البنيان بضعة قرون ولم تكن هذه السلطنة من السلطنات التى تقوم اليوم وتزول غداً كالامبراطوريات التى أسسها الغزاة الاسيويون أمثال (أتيلا) لان قيام الدولة الاسلامية كان طليعة مدنية جديدة بكل معنى الكلمة تسطع الانوار منها وتتلألأ في حين كان كامل القسم الغربى من أوربة غارقاً فى ظلمات الهمجية

وفي برهة وجيزة للغاية أخرج العرب لحيز الوجود من آثار الحضارة ما يرغم المرء على التسليم لاول نظرة بأنه آية في الابداع حتى ولو لم يكن من المعتادين على رؤية معجزات الفن

هذا ولقد كانت امبراطورية العرب متسعة المساحة لدرجة لم يكن معها بد من تجزؤها فانقسمت اذن لبضع ممالك صغيرة . وهذه الممالك ضعفت فاستولت عليها شعوب مختلفة نظير المغول والترك وغيرهما .

لكن دين المسلمين ومدنيتهم كانا قويين لدرجة حملت جميع الذين استولوا على ممالك العرب القديمة على التدين بدين المغلوبين وقبول صناعاتهم حتى وكثيراً ما استبدلوا لغتهم بلغة الاخيرين ؛ وهكذا فان بلاد الهند مثلا التي كانت في حوزة المغول وقتئذ أصبحت مزينة بما جاءت به الحضارة الاسلامية وغدا كل شيء فيها تقريباً على الطراز الاسلامي

إن دين العرب عدا انه بقي حياً بعد زوال سلطانهم ونفوذهم السياسي لم يقتصر على حد التوقف بل انه بقي يزداد انتشاراً يوماً بعد يوم فلم يتعرقل انتشاره قط . ان الايمان الصحيح والعقيدة القوية راسخان في نفوس المتدينين بهذا الدين رسوخاً هو من الشدة بحيث أن كلا منهم يمكن أن يعد صحابياً أو مبشراً فهو يجتهد كالمبشرين لنشر عقيدته وتعميمها في العالم

إن قوة الاسلام السياسية الكبرى هي في إعطائه لمختلف الشعوب والعناصر ذلك الاشتراك في التفكير أي في قيامه على مبدأ التأليف بين أفكار مختلف الشعوب أو العناصر المتمذهبة به . وهي دوما من

أعظم الوسائط فعلا في تمهيد طريق الائتلاف أمام الاشخاص المنتمين لعناصر مختلفة

ولقد أثبتت الحوادث الراهنة قوة مثل تلك الرابطة وقد رأينا هذه الرابطة تنجح في حمل انكلترا الهائلة على التقهقر فى الشرق

ان ولاة الامور في بريطانيا لم يكونوا عارفين بقوة الاسلامية هذه عند ما حاولوا طرد المسلمين من تركيا ولكنهم عند ما شاهدوا ليس الاتراك فقط بل جميع مسلمي العالم يقومون ضدهم بدأ وجودمثل تلك القوة يخامر نفوسهم

ان الانكليز الذين خيل اليهم انهم سيتمكنون من ابقاء الاستانة في حوزتهم فأرسلوا لها مفوضاً سامياً له صفة الحاكم بكل ما في هذه الكلمة من معنى عادوا لرشدهم فانجلت لهم الحقيقة وتبين لهم عظم الخيال في مراميهم وخصوصا عند ما رفض الاتراك الذين كانوا مغلوبين وعزلا من كل سلاح تقريبا قبول شروط الصلح التى جرب المنتصرون أن يجبروهم على قبولها وعند ما طردوا اليونانيين من ازمير — عند ما حدث كل ذلك فهم الانكليز حقيقة الحال كما ينبغي . إن العالم الاسلامي اليوم قد عاد فأصبح من القوة بحيث يستطيع اضطرار أوربة لاناخة عنقها أمام مشيئته

الفصل الخامس

عدم تفهم أوربة للعقلية الاسلامية

ان تيقظ العالم الاسلامى الذي تكلمنا عنه في الفصل السابق بصورة إجمالية قدأدهش أوربة كثيراً ، ولما كانت العقليةالاسلامية غيرمعروفة تمام المعرفة لدى العموم لذلك لايخلومن فائدةتكريس بضع صفحات للكلام عنها

ان الشرق قد أخذ بمجامع قلوب كل الذين زاروه حتى أنه خاب لبى أنا أيضاً لما زرته في أيام شبابي لدرجة حملتنى على أن أنشىء عقب سياحتى التى قمت بها في الشرق مؤلفاً عنه دعوته «مدنية العرب » (١)

(١) لقد طبعت هذا الكتاب مكتبة (ديدو Didot) طبعاً متقناً للغاية بعد أن أنفقت عليه مايربو على المئة ألف فرنك . وقد نفدت الطبعة الفرنسية منه منذ زمن بعيد حتى أنه عند ماتطرح إحدى المكتبات الخاصة للبيع وتظهر نسخة منه بين كتبها فان ثمنها يصعد لدرجة تفوق حد التصور وقد نقل هذا الكتاب الى العربية وهو يستعمل اليوم في الجامع الأزهر الكائن في القاهرة الذى يعد جامعة إسلامية بكل معنى الكلمة ككتاب مدرسي يدرس لمئات التلاميذ فيه . كما أن الكتاب المذكور قد نقل الى اللغة الهندية من قبل أحد وزراء (النظام) في حيدر آباد

ولقد ألح علي بعضهم كثيراً فى خصوص إعادة طبعه فكنت أرفض السماح بذلك لأن إكمال نواقص الكتاب يقتضى جهداً عظيما . على أنى اذا كنت آتي على ذكر هذا الكتاب هنا فماذلك إلا لكي يعلم القارىء أن مؤلف الكتاب الذي يطالعه الآن اذا ماتكلم فى المسائل الشرقية فلا يعدذلك منه تطفلا على هذا البحث اي ليس هو غير كفؤ تماماً للبحث فى المسائل المختصة بالشرق بل له من خبرته مايخوله الخوض فى هذا البحث بعض التخويل .

بعد أن أتيت على هذه المقدمة الصغيرة أقول أن تراجم الكثير من كتبي الى اللغتين التركية والعربية (١) قد أسست بيني و بين المسلمين الجدد الذين هم أحفاد العرب نوعاً من الصلات في الأيام التي تقدمت نشوب الحرب العامة . ولقد كان رئيس وزراء الامبراطورية العثمانية ووزير خارجيتها وقتئذ سعيد حليم باشا قد طلب الى قبل نشوب الحرب بأشهر قليلة بواسطة سفيره في باريس أن أذهب الى الاستانة وألقي فيها بضع محاضرات في الفلسفة السياسية

لكن حالتى الصحية حالت بيني و بين قبول المهمة التى طلب الى القيام بها . ولهذا فانا آسف أبداً على ذلك لانني لو ذهبت الى

---

(١) ان أفضل فلم نرجم كتبي الى العربية هو قلم فتحي باشا (زغلول) وهو وقتئذ وزير الحقانية في القاهرة . وأفضل تراجمها في التركية هي التى كانت بقلم الدكتور جودت بك .

الاستانة لتأكدت ان ابقاء الاتراك على الحياد لم يكن خارجا عن دائرة الامكان . وقد كان صديقي المحترم المسيو ايزفولسكى سفير روسية في باريز وقتئذ يشاطرنى هذا الرأي أيضاً ، حتى أنه بعد نشوب الحرب لو وجد (أميرال) له من الجرأة ما يجعله يجازف بتعقب أثر غوين و برسلاو عند ما دخلتا الاستانة — كما صرح بذلك مؤخراً أحد وزراء الحكومة الانكليزية في البرلمان — لاصبحت محايدة تركيا ممكنة . وهذه احدى الظروف التى قد تساوى فيها قيمة الشخص المليارات اذ لاشك في انه لو وقفت تركيا على الحياد لانقصت من سني الحرب عامين . وقد كان (نلسن) وقتئذ من أولئك الاشخاص بالنسبة لانكاترة . فكم من (نلسن) تخرج البطون في كل جيل ؟

***

من الامثال القديمة أن (معرفة الذات صعبة) على انه اذا كانت معرفة المرء لذاته صعبة فان سعينا لتفهم نفسية الاشخاص الذين يحيطون بنا أصعب . ان تحديد وتعيين عقلية الشعوب التى تفترق عنا من وجهة التاريخ والمعتقدات لاجل التوصل لتعيين وتحديد عكس الفعل الذي قد يصدر عنها فى ظروف خاصة معينة يكاد يظهر شبه مستحيل فعلى كل ان الوقوف عليها هو من المعلومات التى أثبت أكثر رجالات الحكومات الحاليين انهم غير ملمين بها أصلا .

ان الحوادث التى وقعت منذ عشرة أعوام حتى الآن لهى أحسن برهان يثبت اننا على حق فى ادعائنا .

اذا كانت المانيا قد خسرت الحرب فما ذلك الا لأنه لم يوجد بين الرجال الذين كانت بيدهم زمام الامور فى المانيا فرد استطاع بنظره الثاقب أن يتنبأ سلفاً من أدنى حركة جرت فى بلجيكا وانكلترة وأميركة عن كل عكس فعل ينتظر حدوثه فيها . تلك الحركات التى كان باستطاعة الحائزين على قدر كاف من الفراسة التنبؤ عن نتائجها بسهولة .

وكذلك فى مؤتمر اوزان فقد أتى بنموذج جديد لجهل تام بنفسية حد الشعوب .

أما عدم تفهم كل من فرنسا وانكلترة هذا الامر من جهة كونهما معدودتين من الدول الاسلامية العظمى بالنظر لسيطرة كل منهما على قسم كبير من البلاد الاسلامية فهو أدعى للاستغراب فقد كان عليهما أن تكونا أكثر معرفة بالمسلمين بسبب صلاتهما المتواترة معهم .

فى حين ان انعقاد مؤتمر لوزان الاول والثانى أيضاً كانا برهانا على أن دول الغرب لا تعرف حقيقة المسلمين بتاتاً .

ولو كان المؤتمرون فى هذه المؤتمرات هم فريق من الاشرف (بارون) فى عهد شارلمان مع أساتذة احدى مدارس الحقوق الحديثة لماساد سوء التفاهم بينهم باكثرمما ساد فى مؤتمر لوزان.

ولقدأفضى (سوء التفهم) هذا الى فشل كان تاما بقدرما كان من السهل التنبؤ عنه سلفاً . وهكذا فان المفاوضات والمناقشات التى كان يجب أن تنتهى فى بضع ساعات لم تنته الا بعد شهور .

***

ان الهلال والصليب لم يكونا موضع بحث أحد مافى هذه المؤتمرات ومع ذلك فان روح المفاوضات الخفيه كانت عبارة عن نضال بين هذين التمثالين

لقد ألمعنا فيما سبق إلى ان الامبراطورية البريطانية اضاعت العجم و بلاد النهرين ومصر واصبح مركزهافي الهند مهدداً بسبب عدم معرفتها بحقيقة العالم الاسلامى . ولقد خيل لرئيس الوزارة الانكليزية البروتستاني المتعصب المستر (لويد جورج) الذي كان السبب في جميع هذه الخسائر والنكبات التى لحقت بانكلترة ان قذفه باليونانيين نحو الاستانة وطرد الاتراك بهذه الواسطة من اوربة ـ خيل اليه ان في ذلك انتقاماً للصليب من الهلال ، لكنه اصطدم مع عقيدة

تصوفية على جانب من القوة يعادل قوة عقيدته . فاهتزت مستعمرات الامبراطورية الانكليزية كافة لهذا الاصطدام .

***

انه لأجل تشكيل امة من اناس بوفرة ذرات الغبار عدداً يقتضي التأليف بين مصالحهم وعواطفهم . على ان الوسائط التي من شأنها ان تفي بهذا الغرض ليست كثيرة إذ يمكن حصرها بثلاث : إرادة قوية عند رئيس . قوانين احكامها محترمة . عقيدة دينية متينة الرسوخ .

ان جميع الامبراطوريات الاسيوية سيما منها امبراطورية المغوليين اخرجها لحيز الوجود رؤساء كانت الارادة القوية لحمة نفوسهم والعزم الاكيد سداها . ولقد بقيت هذه الامبراطوريات حية طول المدة التي كان فيها رؤساؤها وخلفاؤهم من ذوي المقدرة والكفاءة .

اما الدول التي تأسست على اركان دين آمن به العموم فقد كانت قوتها اعظم وسلطانها اوسع . فاذا بقي القانون الديني حياً يظل قادراً على القيام بمهمة التأليف بين المصالح والعواطف .

ان تأثير العقيدة الدينية هذا قد يصح في بعض الأحوال وهي في الأصل نادرة على جانب من القوة بحيث يستطيع التوحيد بين

شتى العناصر ، و يتمكن من جعل الأفـكار الممتلئة بها أدمغة أفراد هذه العناصر واحدة فتتولد في نفوسهم بهذه الواسطة ميول واحدة أيضاً

ان القوانين المدنية المنفصلة تمام الانفصال عن القوانين الدينية في الغرب ليست منفصلة عند المسلمين التابعين لأحكام القرآن (الكريم)

وفي اعتقاد المسلمين أن كل قوة مصدرها الله وان هـذه القوة يجب الخضوع لها واحترامها كيفما كانت نتائجها لأنها تمثل إرادة الله

و بما أن الله (تعالى) قد أذن للأتراك أن يطردوا الـكفرة من أزمير فقد كان من الجلي أنه عاد الى حماية المؤمنين به . كما أن هذه الحماية قد بدت بشكل أوضح حينما عقد مؤتمر لوزان أيضاً مادام المندوبون الأوربيون لم يستطيعوا المقاومة أمام المندوبين المسلمين

وفى الواقع لقد قبل الحلفاء بمطاليب الأتراك في جميع النقاط الهامة ، فلو كانوا أكثر فهما للروح الاسلامية ودراية بها لعلموا بأنها لاتنحنى إلا أمام القوة . ولظهر لهم إذ ذاك جلياً وجوب التضامن لـكي تتمكن أوربة من إملاء رغباتها العمومية المشتركة في جميع الشؤون الأساسية والحمل على تقبلها ولأصبح الصلح في الشرق الذي بات اليوم مهدداً للغاية موطد الأركان لمدة طويلة

***

على أنه لايمكن مع ذلك إنكار حق المسلمين في الكثير من مطاليبهم . ولما كان لاشك في أن مدنية المسلمين تعادل مدنية الشعوب البلقانية الأخرى نظير الصربيين والبلقانيين وغيرهم فللمسلمين إذن الحق بأن يكونوا ذوي السلطة في عاصمتهم الاستانة بالرغم من رغبات انكلترة ، على أنه لم يكن لهم الحق من جهة ثانية في إنكار ديونهم وعلى الأخص تلك المليارات الكثيرة التي كانت فرنسة قد اقرضتهم إياها .

ولا بد لنا هنا من القول بأن المندوبين الأتراك في مؤتمر لوزان قد تجاوزوا كل حد تجاه هذه المسئلة كما كان من أمرهم تجاه كثير من المسائل الأخرى . حتى كثيراً ما كان هؤلاء المندوبون يفاوضون بلهجة الغالب أمام المغلوب .

ان رجال الحكومات المنتدبة الغربية قليلو الوقوف جداً على علم النفس و بفضل ضعفهم في هذا العلم قد اضمحل النفوذ الأوربي في الشرق لمدة طويلة جداً . في حين أن النفوذ هو دوماً أثبت ركن تستند عليه قوة الشعب ومقدرته .

ان السبب الذي يجعل الأتراك معذورين ـ اذا استثنينا الأسباب الدينية التي شرحناها فيما سبق ـ هو ذلك البغي وعدم الانصاف المستعصيين على النكران واللذين بدرا من انكلترة

نحوهم عند ما كانت تحاول طردهم من أوربة وخصوصاً من الاستانة بواسطة اليونان .

فالسبب الوحيد الذي اتخذ مبرراً لهذا الطرد هو اتهام الأتراك جرياً على القاعدة التي اعتادت أوربة اتباعها نحوهم بأنهم قاموا بمجازر عامة متواصلة أحكموا السيف فيها بأعناق المسيحيين الموجودين في بلادهم . على أن هناك مايدعو المرء بحق لأن يقول بأن الأتراك لو قاموا حقيقة بعشار المجازر التي تدعيها الحكومة الانكليزية لوجب أن لا يبقى في الشرق مسيحي واحد منذ أمد بعيد .

أما الحقيقة التي لامصانعة فيها فهي أن جميع البلقانيين على اختلاف عناصرهم وأديانهم من كبار سفاكي الدماء ، ولقد سنحت لي الفرصة فأفضيت بهذا للمسيو فنزيلوس بذاته فخنق الرقيب وقتله صنعة يحبذها الجميع في البلقان .

بل ان العمل بهذه الطريقة في الولايات التي كانت تابعة وقتئذ لتركيا لم يبلغ أشده إلا منذ الزمن الذي انعتقت فيه تلك الولايات من الحكم التركي ومنحت استقلالها بمساعي السياسة البريطانية اذ لم تكد شعوب البلقان كالبلغاريين والسربيين واليونانيين وغيرهم تنعتق من القيود التي قيدها بها الحكم التركي ليبقى السلام سائداً فيما بينها حتى أمسك الأفراد بخناق بعضهم بعضاً مما هو معلوم .

ان الضعف الذي أبداه الحلفاء في لوزان سيجر كثيراً من النتائج المشؤومة وقد انتخبت من بين الوثائق التي تساعد على التنبؤ عن هذه النتائج منذ الآن رسالة لموظف عسكري كبير من أكفاء رجالنا في سورية مملوءة بملاحظات غاية في السداد والصواب أنقلها للقراء فيما يلي . قال الكاتب :

« أظن أننا سنقضي عاماً غير هادىء الجو من الوجهة السياسية والعسكرية ، ان الشيء الوحيد الذي له اهميته في نظر الأتراك هو القوة فلهذا يقتضي أن لا ندخل معهم في مفاوضات إلا بعد أن نفهمهم بأننا أقوى منهم ، في حين أن الأتراك وجدوا في لوزان ما ساعدهم على أن يظهروا بمظهر الفائز المنتصر ، والخلاصة أنهم قوم يعسر التفاهم معهم إذ يعترضون على كل شيء ويقيمون العراقيل في سبيل الأمور فلا يقبلون بأمر إلا بعد الجهد والعناء ويخيل اليهم أن العالم يرتجف فرقاً أمام هيبتهم .

إن رجال أنقرة يطالبون جهاراً ببلاد اسكندرون وانطاكية وحلب التي نصت المعاهدة الفرنسية — التركية الاخيرة على اعتبارها تابعة لسورية هذا عدا عن أن هذه البلاد يسكنها عرب . وبالرغم من أن الاتراك هم أقلية فيها فانهم ما فتأوا يسعون في استردادها . ان الحوادث التي جرت في كيليكيا يجب أن ينتظر حدوث مثلها في سورية

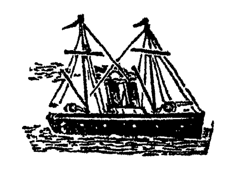
أيضاً . نعم لم تعلن الحرب رسمياً لكن عصابات يزعم أنها مؤلفة من الأهلين العاصين على الحكم الفرنسى وهي في الحقيقة مؤلفة من جنود أتراك مدربين يقودهم ضباط من الاتراك أو الالمان يعظم أمرها شيئاً فشيئاً . فهذه العصابات ستغير على المخافر الصغيرة وعلى القوافل وستقطع الطرق وتخرب سكك الحديد وسيزداد عدد أفرادها يوماً فيوماً حتى أنهم سوف يحصلون على مدافع وسيضطروننا إذ ذاك لحرب مزعجة وصعبة مع العصابات وهكذا يأمل الاتراك أن يصلوا لى النتيجة التي أعلنوا عنها سلفاً وهي حمل السوريين على النفور من الفرنسيين والفرنسيين على النفور من سورية » اهـ .

***

إن الفيلسوف ليجد في تيقظ العالم الاسلامي وموقفه الجديد تجاه العالم درساً مملوءاً بالعبر لانه يظهر مرة أخرى من جديد الى أي حد تستمر القوى الاعتقادية التي كانت المسيطرة على العالم دوما في السيطرة عليه فى الزمن الراهن أيضا .

إن اوربة المتمدنة التي ظنت نفسها قطعت دابر المناوشات والمشاحنات الدينية هي اليوم بالعكس مهددة بها بدرجة لم تعهد لها مثيلا فى يوم من الايام

إذ أن المدنيات الحاليـة لن تدخل في نضال مع الاسلاميـة فحسب بل هي ستقف وجها لوجه أمام الاشتراكية والشيوعية التى أصبحت كل منها بمثابة دين جديد . ان اليوم الذى سيسود فيه السلام والسكينة والراحة في العالم يتراءى بعيداً جداً



الفصل السادس

مسألة الالزاس

لم ينته بعد تعـديدنا للاخطاء النفسية اذ أننا سنرى في هذا الفصل التأثير الضار الذي كان لها في الالزاس .

إن أعظم قضية من قضايا الحرب من حيث الخطورة هي قضية تملك الالزاس . فقد أصبحت هذه المسألة أشهر من نار على علم . فلو تمكنت المانيا من الاحتفاظ بهذه البلاد لقبضت على صولجان التفوق الدولي بصورة نهائية

وقد يجوز القول بأنه ما من قضية من القضايا التى ولدتها الحرب الـكونية كانت موضع أخذ ورد ومفاوضات طويلة ومناقشات عديدة كقضية الألزاس

تتلخص جميع الأدلة التى تستند عليها المانيا لاثبات المانيـة الالزاس في أن الألزاس هي بلاد المانية يسكنها شعب من العنصر الألمانى أو هو على الأقل شعب قد (تجرمن) منذ أمد بعيد جداً

وعلى ذلك يقتضي ان تكون الألزاس عملا بمبدأ القوميات نفسه الذي ينادي به الحلفاء دوما — جزءاً متمما للامبراطورية الجرمانية

فهذه القضية اذا ما أصبحت قضية قوميات تغدو على غاية من البساطة . فاذا كانت الالزاس بلاداً المانيةمأهولة بشعب من العنصر الألماني أو هو على الأقل عنصر (متجرمن) فان ما يدعيه الالمانيون يكون صحيحا . واذا أثبتت الأدلة العلمية العكس أي ان الالزاس مأهولة منذ اجيال عديدة بشعب من عنصر « السلت » أولا وان هذه البلاد تمكنت برغم جميع الحروب والمناوشات التي كانت تتهددها من الاحتفاظ باستقلالها وكيانها وأوضاعها حتى اليوم الذي دخلت فيه تحت حماية فرنسة تخلصا من التهديدات الجرمانية التي كانت دائمة متوالية — اذا ثبت كل ذلك يكون معناه ان إدعاء الالمانيين غير صحيح

ان في هاتين النقطتين الاساسيتين بعض التشوش في الكتب التي تبحث عن الألزاس . ولما كانت الادلة المتأثرة بالعواطف لها فضلا عن ذلك الحظ الأوفر والمكان الرفيع في تلك الكتب فقد فاوضت العالم المؤرخ المسيو « باتيفول » ورجوت منه أن يكتب عن الألزاس ونشوئه وارتقائه كتاباً على النسق الجديد ليضم الى « مجموعة كتب الفلسفة العلمية » التي تنشر

تحت اشرافي . وها أنا أقتبس للقارىء أهم نقاط هذا الفصل عن ذلك الكتاب الذي هومعنون باسم « جمهوريات الالزاس القديمة »

***

لنبحث الآن في هاتين النقطتين بالتتابع وهما :

أولا ـ هل يتحدر سكان الألزاس من عنصر ألماني ؟

ثانياً ـ اذا كانوا من غير العنصر الألماني فهل تم (تجرمنهم) خلال عدة أجيال .

ان الأوصاف المميزة التى يتوصل بها لتصنيف عناصر البشر والتى كانت انتقادات العلماء واعتراضاتهم على صحتها أقل من انتقاداتهم على غيرها هي — بعد لون البشرة ، شكل الجمجمة . إذ مامن أحد يماري في ان كلا من ذي البشرة البيضاء وأسودها ونحاسيها يتحدر من عنصر غير العنصر الذي ينتسب اليه الآخر . وكذلك مامن أحد ينكر ان العنصر الذي يتصف القحف عند افراده بأنه قصير أى مدور تقريباً هو غير العنصر الذى يمتاز القحف عند افراده بأنه متطاول

حتى ان الألمانيين أنفسهم يعلقون على هذا الوصف المميز من الأهمية مايجعلهم يعتبرون تطاول القحف عندهم دليلا على انهم

محقون عند مايدعون بأنهم يتحدرون من عنصر رفيع قد اصطفاه الله لأن يبسط سلطانه على العالم أجمع

في حين انه يستنتج من التتبعات والتدقيقات التى قام بها أشهر الاختصاصيين الالمانيين في علم البشر (anthropologistes) على جماجم الالزاسيين التي أخرجت من مقابر يرجع العهد بها لأجيال مختلفة منذ أكثر من الفي سنة حتى الآن ـ ان الالزاسيين يفوقون جميع شعوب العالم من حيث استدارة القحف وقصره .

ان قصر القحف الذى بقيت رؤوس الالزاسيين تتصف به على ممر الأجيال يدل على أن العنصر الألزاسى لم يختلط يوماً بغيره من العناصر . وقد نظر الدكتور « باير» الى ديمومة هذا الوصف الخاص وبقائه ثابتاً فتقرر لديه (ان الاختلاط بالاغراب كان ممنوعاً بتاتاً عند الالزاسيين، إما عملا بحكم بعض قوانين كانوا يسيرون عليها في أمور الزواج وإما اتباعاً لبعض أفكار باطلة كانت سلطتها على العقول تفوق سلطة القوانين .

بل لقد بقي الدم الذي يجري في عروق الالزاسين نقياً لا تشوبه شائبة الاختلاط والامتزاج بغيره حتى لما بعد التحاق الألزاس بالامبراطورية الجرمانية ولم يتجاوز عدد النماذج القحفية التى هي من الشكل المتطاول الاثنين في المئة

حتى ان الالزاسيين اليوم ليسوا بعيدين عن أن تكون قحافهم أقل قصراً واستدارة من قحاف آبائهم فحسب ، بل لربما كان هذا الوصف الخاص بارزاً فيهم أكثر من آبائهم وأجدادهم . ان جماجم الالزاسيين لاتفرق عن جماجم أهل البلاد المسماة (بابره تون Bas-Breton) أصلا ، بل ان العلامة القحفية في كليهما واحدة .

هذا وان هذه المعلومات التشريحية يؤيدها علم النفس أيضاً ، فان في الغريزة الالزاسية كثيراً من عناصر الغريزة (السلتية) سيما منها تعشق الحرية والنفور من الغريب .

ان النتيجة الأولى التى تستخلص مما سبق هي أن الالزاسيين من شعوب أوربة الاكثر تجانساً . إذ أن الالزاسيين بالرغم من تدخل النفوذ الاجنبي على اختلاف أنواعه قد تمكنوا من الاحتفاظ بالأوصاف التشريحية والنفسية التى تميزهم عن غيرهم ، وهم اليوم شعب قائم بذاته بين شعوب الأرض التى أصبح عددها قليلا جداً

***

ان الالزاسيين ليسوا بعيدين عن أن يكونوا متحدرين من عنصر ألماني فحسب بل هم بشهادة علماء الالمان ذاتهم من عنصر خاص لاتجمعه صلة القرابة بالشعوب الجرمانية أصلا .

على انه من الممكن ان يكون الالزاسيون قد (تجرمنوا) مع بقائهم في حالة شعب خاص وبهذه الصورة تكون المانيا على صواب في ادعا آتها .

فالتاريخ وهو شاهد عدل يعطينا عن هذه النقطة معلومات حاسمة .

لقد كان ينظر لبلاد الالزاس المحصورة بين نهر الرن وجبال الووج (Les Vosges) مدة طويلة من الزمن كبلاد يستحيل اجتيازها واختراقها تقريباً . فان نهر الرن الذي تتفرع عنه جداول عديدة وتجرى مياهه كالسيل الجارف ، والسهول حواليه نادرة وعرضة مع ذلك للتبدل في كل حين — كان يشكل هو وجبال الووج حصناً منيعاً بصد غارات الاعداء . اما تلك الجبال الوعرة العليلة الوديان فيكاد لا يوجد فيها سوى ممرين في الشمال والجنوب وهما منفذ ايالة (بلفور) وخليج (سافرن) ولهذا كان الطواف حوالي بلاد الالزاس اسهل من اجتيازها من الجهة الواحدة الى الجهة الاخري

ان هذه الوضعية الجغرافية هي من الأسباب الجوهرية التى ضمنت الالزاسيين استقلالهم مدة طويله وساعدت على بقاء الدم الذى يجري فى عروقهم صافياً لا يخالطه دم أجنبي وعلى ديمومة أوضاعهم السياسية والاجتماعية على حال واحدة .

وهناك سبب آخر ساعد الالزاس على الاحتفاظ بشخصيتها وهو أن غزارة محصولات هـذه البلاد وتعدد أنواعها جعلاها عدة قرون في غنى عن طلب المعونة من جاراتها . وقد بقى الالزاسيون قوماً زراعيين ذوى أخـلاق وعادات ثابتة وتقاليد خاصة لا يوثق بأمانتهم كثيراً . أما وطنيتهم فقد كانت محلية لاتتعدى حدود البلد الواحد ولم يكونوا يميلون للسير نحو هدف سياسى معين ، ولهذا فقد انقسمت بلاد الألزاس الى أيالات مستقلة ، فولاية (استراسبورغ) هي مثال لهذه الأيالات المستقلة .

إن عدم طروء تغير على أوصاف الالزاسيين التشريحية والنفسية الخاصة كاف لاسقاط قيمة الادعاءات التي يدعيها بعض المؤرخين لجرمانيين الذين يجزمون بأن الالزاس كانت مأهولة لاول الامر بقبائل « توتونية (Touton ques) تعرف بالتريبوكيين (les Triboques) كما انه يمكن الاستناد على مؤلفـات (تاسيت Tacite) و (سزار César) لدحض هذه الادعاءات واثبات مخالفتها الحقيقة ، فقد كان السكانيون les Sequanes) الذين هم شعب من عنصر (السلت) يسكنون الالزاس منذ مدة طويلة في عهد هذين المؤلفين

ان سكان الالزاس الاولين الذين سكنوا في الادوار المجهولة من الازمنة التي تقدمت التاريخ قد تمكنوا اذن من الاحتفاظ بأوصافهم

الخاصة مدة قرون عديدة — كما ابنا ذلك فيما سبق — برغم تأثير الشعوب المختلفة التي تعاقبت عليه ودخل في حوزتها

ان تاريخ الالزاس منذ البدء حتى النهاية يرينا المساعي التي بذلت في سبيل ضمان خلاصه من النفوذ الاجنبي

اما في ايام دخوله في حوزة الرومانيين فقد أثمرت هذه المساعي بسهولة : فقد احترمت « روما » استقلال الالزاس ولم تمس انظمته ولا حريته . وقد كانت ايام الحكم الروماني وايام الحكم الفرنسي في القرن السابع عشر والثامن عشر من اسعد الايام في تاريخ الالزاس عند اهله

***

ان الألزاس لم تتأثر من الاضطرابات التي كانت تأتي بها الوقائع الكبيرة الا قليلا جداً . فان تلك الغارات لما كانت لا تصل اليها عن غير طريق (بال Pâle)و (بلفور) او طريق بلجيكا بسبب حيلولة الموانع الطبيعية دون ذلك في الجهات الاخرى فقد بقيت الالزاس في حرز منها وكادت ان لا تمسها أبداً

عند ما انتصر (كلوفيس clovis) عام (٤٨٥) في (صواسون) على (سياغريوس Syagrius) ألحق هذه البلاد بمملكته ، لكن ذلك لم يكن له شيء من التأثير على الالزاس . وهكذا فان الالزاس

التي كانت مقدراتها مرتبطة بغاليا الرومانية بقيت مرتبطة بغاليا الفرنسية حتى القرن الحادى عشر . وقد كان حبها لفرنسة أثناء هذه المدة عظيما يعادل كرهها للجرمانيين

وعند ما اجتهد الالمانيون في الاستيلاء على الالزاس في ايام اعقاب شرلمان ابتدأ دور النضال والتطاحن ، ولما كان هذا الدور يظهر مبلغ ما ابداه الالزاسيون من المقاومة الدائمة والعميقة تجاه النفوذ الجرماني ، فهو لذلك من الاهمية والفائدة بمكان عظيم في الاحاطة بموضوع بحثنا وجدير بالتدقيق والامعان

ان معاهـدة (فردون) التى عقدت عام (٨٤٣) لم تلحق الألزاس بألمانيا ، بل جعلتها دولة منفردة لوحدها بين فرنساوالمانيا ووكلت أمر إدارتها ا (لوثر Lothaire) حفيد شارلمان ولم تلحق الألزاس بألمانيا إلا سنة (٨٥٥) من قبل (لويس الجرماني)

على أنه لم يقبل بهذا الالحاق الذي أجرى عنوة وقسراً لا الألزاس ولا فرنسة ، ولم ينفك الألزاسيون يطلبون المعونة من فرنسة مدة قرن ونصف القرن ، لكن ملوكنا لما كانوا مضطرين للدفاع عن الجهة الأخرى من البلاد التى كان يهاجمها (النورمن) فقد أصبحو مجبرين على إخلاء الألزاس بعد أن احتلوها مرات متعددة .

يجوز لنا أن نعتبر أن الألزاس كانت عام (٩٧٩) ملتحقة بجرمانيا إلتحاقاً نهائياً ومرتبطة بها ارتباطاً وثيقاً محكماً ، فدور التطاحن على الألزاس والمعارك المتتابعة التى ثارت لأجله والتحمت بسببه يبتدىء من هذا التاريخ ، نعم إن هذه البلاد قد افتتحت ولكنها لم تطع الغالب أبداً ، وتاريخ الألزاس العائد لما بعد هذا الدور يثبت صحة ذلك بوضوح .

***

ان جشع الامبراطرة الجرمانيين أودى بالبلاد الى الخراب والدمار ، ولقد نجح الألزاسيون في بناء البلاد المحصنة فوقوا أنفسهم بذلك من البلاء ، وصارت هذه البلاد تنهض وتتحسن بمرور الأيام حتى أصبحت فى القرن الثالث عشر بحالة جمهوريات صغيرة مستقلة ، ولما كان الامبراطرة في الأصل يريدون أن يؤسسوا التوازن تجاه نفوذ زعماء الأقطاعيات وقوتهم ، فقد ساعدوا هذه البلاد على النهوض وأعلنوا إلحاق بعض هذه البلاد بالأمبراطور مباشرة باسم (بلاد الامبراطورية)

فهذا الالحاق الغامض البعيد ي الذى لا يربط الملحق بالملحق به ربطاً فعلياً حقيقياً كان بمثابة استقلال حقيقي لهذه الجمهوريات وخصوصاً ا (ستراسبورغ) فقد كانت تلك الجمهوريات تضع الأنظمة

المختصة بها بنفسها مقتبسة ذلك عن الأنظمة الرومانية وقد كانت السلطة الرئيسية في يد موظفين يدعون (أشوفن *Echevins*) يماثلون الحكام الرومانيين الذين كان يطلق عليهم لقب (قونسول) وكان الوقوف في وجه تدخل المانيا بالشؤون الداخلية أخص ماتقضي به وظائف هؤلاء الموظفين عليهم

ولقد كانت كل بلدة من تلك البلاد المتمتعة بالحكم الذاتي بحرية تامة كما ألمعنا الى ذلك تؤلف جمهورية صغيرة تمارس الأمور التي كانت من حقوق الملوك فكانت تضرب السكة (النقود) وتسن القوانين كما تشاء وهكذا لم يكن ارتباطها بالامبراطورية سوى ارتباط (شرفي) أي اسمي محض

وقد كانت هذه الجمهوريات المختلفة تقوم بالتجنيد وتوظف السفراء وتعقد المحالفات بدون أن تحتاج لأخذ موافقة الامبراطور كما أنها كانت تتحد أحياناً عند مفاجأة الاعداء كما تتحد الأيالات (كانتون) السويسرية وخصوصاً في سبيل صد غارات (شارل الجريء) . وفي عام (١٣٥٤) صادق امبراطور المانيا شارل الرابع على قرار الوحدة الشهير الذى وحد بين عشرة بلاد الزاسية سميت (البلاد العشرة *La Decapole*) فهذه الوحدة كانت بمثابة وحدة لبلاد الألزاس بأجمعها في ظل حماية جرمانيا الاسمية .

ثم ان الألزاس لم تعدم فرصاً تعرب بها عن استقلالها : فقد أتيح لها أن ترفض دفع الجزية للأمبراطورية وأن تسمح لبعض الولاة باكتساح بلاد لايعرفهم أهلها أو على التحالف معها كما كان من أمرها مع الامبراطور (مكسملين) عند ماطلب اليها في عام (١٤٩٢) أن تزحف معه على فرنسة فقد أجابت على طلبه بالرفض

ان الجمهوريات الألزاسية كانت دوماً شديدة التمسك بالديمقراطية وكثيراً ما كانوا يطردون النبلاء أو كانوا يجبرونهم اذا أرادوا أن يكونوا ممن يحق لهم إبداء الرأي على الاعلان للملأ بكونهم من عامة الناس ، وهكذا فقد كانت صفة تعشق الاستقلال المستعصى على الخضوع لأي عبودة سياسية أو اجتماعية من الصفات التي لم ينفكوا لحظة عن الاتصاف بها

كان الألزاسيون ينظرون دوماً لوجود الأغراب في بلادهم حتى ولو كان هؤلاء الأغراب من فئة العمال بعين المقت والكره وعند ما كان تقدم الصناعات يضطر الالزاسيين لقبول الأجانب كان هؤلاء الأجانب يؤلفون فئة خاصة على حدة ويدفعون ضريبة خاصة ، وهكذا فقد كانت الألزاس فى القرون الوسطى موصدة الأبواب في وجه النفوذ الأجنبي أياً كان بقدر ما كانت أبواب بلاد اليونان فى القرون الأولى موصدة تجاه النفوذ الأجنبي

لقد رحبت الألزاس بحركة الريفورم (ماأتى به لوثير وكالفين وغيرهما من التغييرات في الدين المسيحي) أحسن ترحيب ، فقد أتت تلك الحركة مطابقة تمام المطابقة لغريزة حب الاستقلال التي فطر عليها الألزاسيون ، لكن هذه الحركة كانت منشأ معارك مديدة نشبت بين الألزاسيين والحكام الألمانيين

ولكي يتخلص الألزاسيون من الألمانيين فقد حولوا وجوههم شطر فرنسة التي كانوا يكنون لها في أفئدتهم منذ العهد الروماني عاطفة ود وحب شديدين لدرجة جعلت الامبراطرة الجرمانيين لا ينفكون عن التنديد بها

وفي عهد وزارة (ريشليو) افضى الحب الى تحالف ولكن ملوك فرنسة لم يفكروا قط بأمر الحاق الالزاس ببلادهم خلافاً لروايات الالمانيين الذين يدعون أن الالزاس فصلت عنهم قسراً . ولقد كانت الجمهوريات الالزاسية تحلف بالتعاقب يمين الولاء لفرنسة من نفسها بعد أخذ موافقة الشعب المستشار مقابل تعهد فرنسة بحمايتها ودام الامر على هذا المنوال حتى زمن انعقاد الصلح العام

وبعد أن شملت الحماية الفرنسية الكثير من البلاد الالزاسية تقدمت بلاد الالزاس كافة عدا (استراسبورغ) الى (لويس الثالث عشر) راجية منه أن يشمل البلاد بتمامها بحمايته ورفض (ريشليو)

مبدئياً هذا الطلب ولم يقبل إجابة الالزاسيين الى طلبهم اللهم إلا بعد ما ألحوا عليه الحاحاً متواصلا .

ان الحماية الفرنسية تركت للبلاد فى الأصل استقلالها التام فقد بقيت البلاد الالزاسية محتفظة بحرية ضمائرها وشعائرها وأنظمتها فلم يتغير شيء في زمن الحماية الفرنسية عما كان عليه . وكانت حامية صغيرة من الجنود تقوم بالدفاع عن البلاد على نفقة الامبراطور

وفي معاهدة (فستغاليا) التى انتهت بها (حرب الثلاثين سنة) انقلبت الحماية الفرنسية التى كانت موقتــة الى الحاق دائم وفي عام (١٦٤٨) تنازلت المانيا لملك فرنسة عن الالزاس بجميع ما لها من حقوق الحــكم فيها خلا (ستراسبورغ)

***

و بعد أن تملصت الالزاس من الحــكم الجرمانى المطلق استولى عليها القلق برهة من الزمن أمام الحكم المطلق الذي باشرته السلطنة الفرنسية لــكن هذا القلق لم يدم زمناً طويلا فقد بقيت البلاد محتفظة بحريتها التامة في كل شيء وخصوصاً في أمر دينها وعبادتها . ولم يفكر لويس الرابع عشر الذى كان يحترم المعاهدات (١) برغم تعصبه الشديد بالغاء

(١) المادة (٤٧) من معاهدة (مونستر Munster) التى عقدت عام (١٦٤٨) المادة الخامسة حتى المادة الخامسة والعشرين من معاهــدة (أوصنابروك Osnabruck)

أحكام مرسوم (نانت) في هذه البـلاد بالرغم من أن ما يزيد على نصف عدد الالزاسيين كان ينتمي للطائفة الـكاثوليكية

هذا وانه لم تفرض ضريبة ما فى بلاد الالزاس وكذلك لم تشملها الجمارك الفرنسية . وقد كان ممثلو الملك يقتصرون على السعي وراء توحيد الادارة العدليـة والمالية في البلاد والاجتهاد في سبيل اقامة نصاب السـلام والنظام والامن فيها . وهكذا فقد بلغت الالزاس درجة قصية من العمران حتى أصبح معها عدد نفوس سكانها الذى تناقص بنسبة الثلث بسبب الحروب ضعفى ما كان عليه ببرهة وجيزة من الزمن .

***

وفي زمن اعقاب لويس الرابع عشر بقيت السياسة الحرة ذاتها تجري حكمها في البلاد

وقد أقبلت الروح الالزاسية طوعاً على اتباع احكام المدنية الفرنسية وأصبحت مرتبطة بها ارتباطاً وثيقاً كما كانت مرتبطة باحكام المدنية الرومانيـة قبلا وكانت افكارنا وأعمالنا دليلا أخـذ بيد الالزاسيين فى تطورهم المعنوى . وكانت تربطهم بالوطن الاكبر يوماً فيوماً

ان الالمانيين أنفسهم وعلى الاخص (غوت Gothe) يعترفون بأن الالزاس كانت في أواخر القرن الثامن عشر فرنسية تماما

وجاءت الثورة الفرنسيه فأذابت أفكار الالزاسيين المتشبعة بالميل للاحتفاظ بالاستقلال الخاص (Particularisme) ضمن نار الوطنية القومية التى كانت تحتدم اذ ذاك وتتأجج . والجميع يعلمون بأى شوق ألقى متطوعة الالزاسيين أنفسهم فى ميـدان العراك عام (١٧٩٢) وكيف أن (ستراسبورغ) تلك الايالة التى كانت منفصلة بسياستها المحلية زمنا طويلا كانت أول من ترنم بالنشـيد الوطنى الفرنسى رمز الآمال الجديدة التى أصبحت الامم تتوق اليها

لم يكن للالزاس حتى عام (١٨٧١) تاريخ خاص فان تاريخها هو تاريخ فرنسة ذاته ، اذ أن الالزاس كانت تكون احدى الايالات الاكثر اخلاصا والأشد تعلقا وتمسكا بفرنسة

***

في أثناء الخمسين عاما التي تلت حرب الـ (١٨٧١) طبقت المانيا في الالزاس نظام الحكم المطلق فى حين انه كان بامكانها أن تفرغ هذا النظام فى شكل يلائم منافع البلاد ويجعل سكانها يتطلبون بقاء سيادة حكامهم الجدد

على انه من المعلوم ان المانيا لم تسر على هذه الخطة وإنما ضيقت على الالزاس وضغطت عليه لدرجة جعلت (٢٥٠) الف فرنسى يفضلون هجر البلاد على احتمال هذه السلطة الغاشمة وقد عوضوا بـ (٣٠٠) الف الماني لكن هؤلاء الالمانيين لم يظفروا يوماً بالامتزاج مع ما بقي من أهل البلاد الأصليين أبداً

لم تنجح المانيا في (جرمنة) الالزاس فلا الجيش أفادها في هذا الشأن ولا المدرسة ولا الانظمة والقوانين ولقد بدا فشل الالمانيين للعيان في المدة الاخيرة تاما واضحا كما بدا في الماضي وعليه فلا يمكن الادعاء بأنها تمكنت من أن تجعل من الالزاس أرضا المانيا

***

معلوم بأي حمية وهيام احتفل الالزاسيون بعودتهم الى الانضواء تحت حكم فرنسة . فقد مقتوا نظام الحكم الالماني واستنكفوا منه ، على أن هذا النفور لم ينشأ عن أنظمة الجرمانيين وقوانينهم فقد كان بعض هذه الانظمة والقوانين حسنا جداً ، وانما كان ناشئا عن خشونة وفظاظة الموظفين القائمين بتطبيق تلك القوانين . ان الالمانيين بالنظر لعجزهم عن فهم طباع الشعوب الاخرى وغرائزها كما يقرون و يعترفون ذاتهم بصحة ذلك فقد كانوا دوما مبغوضين وممقوتين من الشعوب التي حكموها بل لقد بدا نفور هذه الشعوب من

الالمانيين برغم الخدمات الجلى التي لا يمكن نكرانها التي أسداها هؤلاء لها بما قاموا به من الاعمال الاقتصادية

والامر الوحيد الذي لم يكن الحكم الجرماني فيه جائراً هو الشؤون الدينية التي لها اهميتها الكبرى عند الالزاسيين وقد أمل الالمانيون أن يتحكموا بالشعب على يد نفوذ جماعة الاكليروس ولهذا فقد اغدقوا النعم على هؤلاء فزادوا في رواتبهم زيادة بالغة واحترموا احكام الاتفاق الديني (كونكوردا Con corda) الذي كان يربط الالزاسيين بروما و يحدد علاقتهم بها

وهكذا فان العبر البالغة والدروس القيمة التي تلقنوها عن مدرسة التاريخ علمتهم انه لا يجب التعرض لمعتقدات الشعوب الدينية أو مسها .

***

ان فرانسة المنتصرة لم تسر على هذه الخطة الرشيدة في أول الامر وعوضاً عن أن تجعل على رأس اللجنة التي عهدت اليها — في أثناء انعقاد الصلح — بتنظيم الشؤون الدينية في الالزاس واللورن — رجلا محايداً كما كانت تقضي عليها بذلك المصلحة فقد اسندت منصب الرئاسة لرجل من أكثر أفراد العشيرة الحرة (الماسون) مجاهرة بعدم

التسامح وهذا الشخص هو رئيس اللوج الماسوني المعروف باسم
(الشرق الاعظم Grand Orient)

أما الالزاسيون الذين كانت الكاثوليكية عقيدتهم فقد امتعضوا بطبيعة الحال من مثل هذا الاختبار . فان النتف التي كانت تنشر من خطابات هذا الماسوني لم تكن تستطيع أن تدع في النفوس أي مجال للتردد في الحكم على آرائه وأفكاره ومعرفة كنهها وحقيقتها بل كانت تفصح عنها أتم إفصاح .

وقد كان من امر ذلك الرئيس المتطرف أن صرح للالزاسيين الذين كانوا يميلون كثيراً لأن يتلقن أبناؤهم الثقافة الدينية وان يشاهدوا الاساتذة يقودون أولادهم الى الكنيسة ، نقول كان من أمره أن صرح للالزاسيين (بأنه يجب تحرير المدارس من شوائب الاديان وتحرير الدماغ البشري من الخيالات والأوهام والافك والبهتان) « لا اله هناك ولا سيد » ذلك كان مبدأه وتلك كانت خطته

ان هذه الافكار التي لا تعرف التسامح اصلا هي من مظاهر الروح اليعقوبية (١) الهائلة التى دفعت فرنسة ثمنها غالياً سواء في

(١) نسبة الى اليعقوبيين أو الجاكوبيين وهم اعضاء حزب ماسوني كان من أكثر أحزاب الثورة الفرنسية الكبرى تطرفاً وقد دعي حزبهم باسم (حزب الجاكوبيين) نسبة الى دير القديس جاك الذى كانوا يعقدون اجتماعاتهم فيه .
المترجم

الشؤون السياسية وسواء في الامور الدينية

ان (الجا كوبى) الذي يتيقن بأن معتقداته هي حقيقة ناصعة لايكاد يقبض على مقاليد السلطة والسيطرة حتى يهب لحمل الغير على قبول تلك الحقيقة قسراً . فهو يرى ان الآلهة التى يعبدها في المعابد الماسونية هي الآلهة الحقيقيــة الوحيدة ولا يطيق أن يسمع بغيرها . ولما كان ذا يقين تام فهو لا يقبل إنكار الآلهة التي يعبدها بوجه من الوجوه ويعتبر بث الضلال و إذاعة الباطل وظيفة يتوجب عليه القيام بها ، وهذا هو منشأ عدم روح التسامح القاسية المتسلطة عليهم والمتمكنة من نفوسهم .

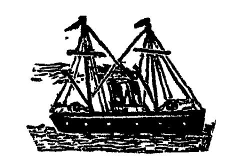
و بعد اختبار دام بضعة أشهر أصبح لابد من الاعتراف بأنه لايمكن تطبيق أحكام العقلية الجا كوبية في الالزاس ولاتجد تلك الروح رواجاً في هذا السوق .

أما ذلك الحين فقد جاء متأخرا قليلا ففي نفس اليوم الذى أبرمت فيه معــاهدة الصلح أصبــح من الواجب صيانة الالزاس وحمايتها من الروح اليعقوبية وذلك بتسليم مقاليد الحكم في الالزاس الى الالزاسيين أنفسهم .

والمؤلف لايرى حاجة لأن يشرح الأسباب التى توجب العمل

بموجب هذه الخطـة فان الالزاسى يريد أن يبقى ألزاسياً وهو يعلق أهمية عظمى على رؤية عقيدته الدينيـة وأنظمة مدارسه وعاداته وتقاليده محترمة

إذا كنا نريد أن لا يتحسر الالزاس على عهد الحكم الالماني وأن لا يبقى في قلبه لهف الى العهد الألمانى وتوقان للتظلل براية المانيا فيجب على فرنسة أن تقلد زمام الأمور في هذه البلاد الى موظفين ذوي نفوس متحررة تماماً من الروح اليعقوبية



الفصل السابع

الحالة المالية اليوم

أي الشعوب ستتكبد نفقات الحرب

ان اختلال التوازن الذي وقع فيه العالم اليوم ليس ناشئاً عن الاخطاء النفسية فحسب بل ان من الاسباب التى دعت اليه سلسلة الاوهام والخيالات المشهودة في عالم الاقتصاديات والحقوق . بل ان تقدمهما انما أمكن تحققه لاسبب آخر سوى جهل الطبيعة بهما .

ان القوانين الطبيعية تسير بانتظام كما تسير الدواليب المتشابكة لكننا نحتج على جورها عند ماتتعاكس مع حسياتنا ولكن هذه الاحتجاجات تضيع سدى .

انه مامن زمان لم يتبع القوانين الاقتصادية كزماننا الحالي . ومع ذلك فان الأمم لم تتمرد يوماً على هذه القوانين كتمردها عليها اليوم .

مما لاشك فيه ان أوربة اليوم تحس اصطداماً شديدا يجري

بين الضرورات الاقتصادية و بين حسيات الحق والعدالة التي شرعت تصدم هذه القوانين .

ان مسألة التعمير هي منشأ هذا الخلاف فان الالمانيين بحسب ماتوحيه الينا مداركنا بشأن الحق والعدالة يجب أن يرمموا ماخربوه لكن القوانين الاقتصادية التى تدير ارتباط الشعوب بعضها ببعض اليوم قوية لدرجة يستحيل معها أن يتم التعمير بكامله . وعدا ذلك ان النفقات التى يقتضيها هذا التعمير عوضاً من أن يتكبدها المغلوبون فسيتكبدها المنتصرون حتى انهم لن يتكبدوها لوحدهم بل والحياديون الذين لم يشتركوا بالحرب أصلا .

ان بعض ايضاحات مجملة تكفي لاثبات صحة هذه المزاعم .

***

ولنشر أولا الى أن الايضاحات التالية تنطبق على حالة المانيا اليوم ولكنها لاتنطبق أبدا على حالها بالأمس زمن الهدنة .

يروى أن أحد المندوبين الجرمانيين بعدماسمع شروط الصلح التى عرضها المرشال فوش سئل عن مقدار المبالغ التي ستكلف المانيا بدفعها بكل خوف ووجل فاضطر القائد الاعظم الى الاجابة بأن حكومته لم تعطه أي تعليمات في هذا الصدد .

ومن المعلوم اليوم أن ألمانيا التي خشيت أن تقضى عليها المعاهدة بتسليم جيشها وخافت دخول جيوش الحلفاء الى برلين كانت مستعدة لأن تدفع مبالغ طائلة . وكان بامكانها أن تتدارك هذه المبالغ إما من صناعاتها التي لم يطرأ على ماليتها خالل وإما بعقد قرض خارجي . فهذا القرض كان يمكن عقده بسهولة لأن الألمانيين لو كانوا مغلوبين عسكرياً لما تزعزع اعتبارهم التجاري . وفي أثناء مفاوضات الصلح عرضت ألمانيا أن تدفع مئة مليارا .

و بعد أن انقضى هذا الدور شرع الالمانيون ينقبون عن وسائل يتملصون بها من الدفع ونجحوا فى اسقاط قيمة أوراقهم النقدية الى حد جعل الدفع غير ممكن بوجه من الوجوه .

ان وزير ماليتنا المسيو (دولاستري) قد لخص في إحدى خطبه الحالة الراهنه كما يلي :

ان المانيا لم تجتهد في خلال أربعة أعوام الاوراء اغتنام الوقت وفي سبيل فك عرى روابط الاتحاد التى تربط الحلفاء بعضهم ببعض ولم يدر فى خلدها يوماً أن تسدد مالنا عليها من الديون

بلى إنها في نفس الوقت الذي تدعي فيه انها عاجزة عن الدفع الينا نراها تجد المليارات لزيادة وتحسين أدواتها الاقتصادية واعادة

تأسيس تجارتها البحرية وانشاء خطوط السكك الحديدية والقني وتحسين وتزيين بلادها .

ولقد كانت طلبت في أواخر العام الماضى موراتوريوم لمدة بضع سنين بدون أن تقدم للحلفاء بمقابل ذلك أقل ضمان . ولو بلغ بنا الجنون الى حد القبول بهذا الطلب لكان في ذلك مصيبة حقيقية لبلادنا . بل لو تمكنت ألمانيا من ايجاد وسيله تتملص بها من الدفع مدة بضع سنين واستعادت بذلك حالها السابق فهل يبلغ البله والسذاجة بالناس لدرجة تجعلهم يتصورون بأنه من الممكن أن ترضى المانيا حينئذ بتسديد ديونها ؟

ما هي الحالة التى كان يمكن أن تصير اليها الامتان لو نجحت خطة المانيا ؟ إن المانيا أرادت من وراء اسقاط قيمة المرك الى درجة العدم انكار دينها الداخلي كما أنها أملت بالقضاء على التعويضات أن تقضى على ديونها الخارجية حتى اذا رمت عن عاتقها العبء الثقيل عبء ديون الحرب ـ الذى تنوء تحته الدول المحاربة جعلت حالتها في تحسن اقتصادى لا مثيل له وقبضت على صولجان التفوق في كل أسواق العالم واذ ذاك لا تعتم أن تقضي على جل الحكومات فى تجاراتها الخارجية بما تتوسل به من المنافسة الفظيعة فتولد بذلك أزمة رهيبة من البطالة والعطلة في جميع أنحاء العالم

أما فرنسة التى تعد القيام بتعهداتها من مقتضيات الشرف والتى سيكون عليها أن تتحمل عبء التعميرات الثقيل فتبقى حينئذ أمام دين يبلغ المليارات . واذ ذاك فان التجارة والصناعة والزراعة التى تنوء بالضرائب تصبح والعثرات تعترض سبيل تقدمها . فهل هذا ما يقضى به الحق ؟ أهكذا تقضى العدالة ؟ » اه

***

ان هذه الحقائق التى أصبحت اليوم واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار فى نظر العموم لم يكن من الصعب كثيراً ادراكها والتنبوء عنها سلفاً .ومع هذا فانه ما من سياسى من السياسيين الذين كانت بيدهم مقدراتنا أثناء وضع معاهدة الصلح رأى أن المانيا التى كانت قادرة كثيراً على دفع التعويض زمن الهدنة بواسطة القروض التى كان باستطاعتها وقتئذ عقدها بسهولة ، نقول لم ير أحد منهم أن المانيا ستسعى بعدئذ للتملص من أداء الأقساط التى تصورها سياسيون بلغت منهم السذاجة حداً جعلهم يصدقون انه بالأمكان اجبار شعب على دفع ضريبة سنوية باهظة مدة (٤٠) عاماً .

فان هؤلاء الساسة لم يبدأوا بفهم السياسة الالمانية اللهم الا بعد الاربعة عشر مؤتمراً التى عقدت خلال أربعة أعوام ، وما عدا ذلك فان المانيا لقيت معاضدة من قبل انكلترة التى لم تكن تود كثيراً

أن ترى النقد الألماني ينتقل لأيد فرنسية عوضاً عن أن ينسكب في صناديق التجارة البريطانية

ولما انتهت فرنسة من خيالاتها عزمت على احتلال الرور ولكن الحالة الاقتصادية في أوربة كانت وقتئذ قد تبدلت تماماً

ان هذا الاحتلال الذي قد يضمن الأمن والطمأنينة لفرنسة لا يظهر عليه انه يعود عليها بالكثير من التعويضات

***

ان الوقائع قد انقلبت في الحقيقة لشكل أصبح معه احتمال حصول الحلفاء على شيء من التعويضات من المانيا ضعيفاً بالرغم من كل ما يستطيعون اجراءه من وسائل التضييق

ولكي نقيم البرهان على هذا علينا أولا أن نأتي على بعض معلومات عن الحالة المالية في بعض البلاد

ولنلاحظ قبل كل شيء أن مسألة التعويضات ليست السبب الوحيد في تقلقل الحالة الاقتصادية في أوربة أصلا لا كما يدعي الانكليز وانه اذا سدد الالمانيون ما عليهم من الديون فان ميزانيتنا لا تستعيد بذلك توازنها القديم كما يظن الكثيرون

لقد أبان الشيخ « سناتور » (برانجه) في خطاب ألقاه في مجلس الشيوخ في الخامس من تشرين الثاني عام (١٩٢٢) أن

مجموع ديوننا [الديون العامة (٣٣٧) ملياراً ونفقات التعمير والترميم (١٣٢) ملياراً والخ ...] يبلغ (٤٧٥) ملياراً . وزاد على ذلك قائلا « واذا وازنا بين مالنا وما علينا نرى ان الحكومة الفرنسية ستجد نفسها حتى في حالة قيام المانيا بتعهداتها وتسديد الحكومات الاجنبية مالنا عليها من الديون ، تقول ستجد نفسها امام (ذمة) نهائية تبلغ (٤٧٥ — ١٢٩ تساوي ٣٤٦) مليار فرنك ورقي على معدل الاسعار فى السوق المالية اليوم » اه

***

ماهي حالتنا المالية وكيف ستكون في المستقبل ؟

ومع أنه من الصعب الاشارة الى مابلغ اليه المجموع الحقيقي لديوننا فان الحالة المالية لا تبدو زاهرة بهية .

ولأجل (تغطية) التضخم المشؤوم فى قسم النفقات من ميزانيتنا قايلا لقد قسمت ميزانية النفقات الى ميزانية اعتيادية وميزانية غير اعتيادية وميزانية نفقات سميت (نفقات قابلة للاسترداد) .

ان مجموع هذه النفقات يبلغ سنوياً مايقرب من (٤٤) ملياراً ، فى حين أن واردات الضرائب تكاد لاتساوي نصف هذا المبلغ فيظهر من هذا أن العجز المالى هائل ومخيف .

ان العجز السنوي في وارداتنا يدعو الى ازدياد سريع في مبلغ ديننا.

ان وزير المالية كان قد أشار في نيسان عام (١٩٢٣) الى أجزاء نفقاتنا وفندها بالأرقام الآتية :

ان المخصصات التي خصصت لتعويض بقايا دخل القروض قد تزايدت أضعافاً مضاعفة منذ عام (١٩١٣) فبعد أن كانت ملياراً و (٣٥٥) مليوناً تصاعدت حتى بلغت (١٣) ملياراً و (٤٠٦) ملايين ، فتآلف منها على هذه الصورة ما يربو على النصف من مجموع النفقات في ميزانية عام (١٩٢٢) . « فيجب والحالة هذه أن يعتبر السبب الرئيسي في تضخم الميزانية عائداً لهـذا القسم من النفقات الذي لا يمكن انقاص كميته . »

ان النفقات العسكرية بعد أن كانت في عام (١٩١٩) تساوي (١٨) ملياراً و (١٨٥) مليوناً تدنت في سنة (١٩٢٠) الى سبعة مليارات و (٦٨٤) مليوناً والى ستة مليارات و (٣١٢) مليوناً في سنة (١٩٢١) والى خمسة مليارات و (٣٤١) مليوناً في عام (١٩٢٢) .

أما نفقات الادارة الملكية التي كانت تبلغ في عام (١٩٢٠) أحد عشر ملياراً و (٣٧٧) مليوناً فقد تدنت في عام (١٩٢٢) الى سبعة مليارات و (٣٢٨) مليوناً .

فكل هذه الأرقام تدل على أن العجز في ميزانيتنا حتى ولو دفعت المانيا جميع التقاسيط المطلوبة منها سيبقى على ماهو عليه من الارتفاع الهائل .

***

هذا ولقد مضى زمن طويل جداً ريثما حصل التيقن من أن الدستور القائل بأن (المانيا ستدفع) الذي تكرر اللفظ به أكثر من مرة والذي كان يتخذ أحياناً مبرراً لانفاق كثير من المال على أقل الأمور نفعاً ـ ليس الا أملاً قائماً على الوهم .

ولما كان من الثابت أن العجز باق في ميزانيتنا حتى ولو سددت المانيا جميع ديونها على مابرهنا الآن قبل بضعة أسطر فقد كان يتوجب التنقيب عن غير هذا الأمر .

ان توسيع أبواب الاستثمار ـ استثمار مواردنا الطبيعية ـ وتخفيض نفقاتنا هو الحل الوحيد الداخل في حيز الامكان لهذه المسألة .

و بانتظار الزمن الذي تتقرر فيه هذه الحقيقة في جميع الأذهان سنستنبط شتى الوسائل والتدابير . ان السهولة في طبع أوراق نقدية بدون ضمانة معدنية لها يدعو الى ازدياد النفقات يوماً عن يوم . أما الحالة المالية فتشبه خيولا جامحة تعدو بجنون لتوقع مركبتها المالية في

كارثة يصعب تلافي أذاها . أما الوزراء فانهم يقفون فى وجه هذه الخيول الجامحة ولـكن مقاومتهم ضعيفة .

ان أمثولة انـكلترا التى ازدادت الواردات في ميزانيتها عن عام (١٩٢٣) بضعة مليارات بواسطة التخفيض فى النفقات بوجه خاص الذي قامت به حكومة بلغت من القوة حداً مكنها من حمل البرلمان على الاذعان لارادتها ـ ان هذه الأمثولة لم تلق بعد مقلدين لها في فرنسة .

***

ان الامبراطورية البريطانية رغم غناها وعمرانها وفلاحها تضطرب الآن من الفوضى الاقتصادية التى ترزح أوربة تحت عبئها الثقيل . ان المحصولات الغذائية التى تستهلكها انـكلترة والمواد الأولية الضرورية للصناعات الانـكليزية تأتيها بكاملها تقريباً من الخارج . وهي تصدر مصنوعاتها الى الخارج كثمن لما تبتاعه . على أنه مهما تنوعت أشكال الطريقة المستعملة للأداء فان أي بضاعة كانت لاتقع باليد الا بنتيجة المبادلة ببضائع أخرى .

ان هذه المصنوعات التى هي عملة انـكلترة الحقيقية لا تحوز ثمناً وافياً الا اذا وجد لها مشترون . على أن انـكلترة قد أضاعت زبوناً من أحسن زبنها وذلك الزبون هو المانيا . ولهذا السبب فان

انكلترة تجتهد بكل مافي وسعها فلا تدع واسطة الا وتستعملها في سبيل إحياء حالةز بونتها القديمة ـ الاقتصاديةو إعادتها الى ماكانت عليه حتى ولو كان ذلك على حساب فرنسة أي ولو كانت تلك الواسطة تضر بفرنسة .

وفي انتظار تمام هـذا الأمر فانها تفتش عن مشترين أخر . لـكنه لما كان لها في الأسواق التجارية الخارجية مزاحمون يبيعون بسعر أقل من السعر الذي تبيع به فهي مضطرة لتنزيل الأسعار التى تبيع بموجبها وبالتالي لانقاص الأجور التى تدفعها للعمال سيما أجور عمال المناجم .

فهذه الضرورة كانت سبباً في اعتصاب عمال المناجم اعتصاباً كثير الثمن دام زهاء ثلاثة أشهر ، ولو قبلت مطالب المعتصبين لعاد ذلك على الامبراطورية البريطانية بالافلاس التجاري .

ان هذا المثال لوحده يكفي لاظهار قوة بعض القوانين الاقتصادية وعدم إمكان مكافحتها ومناضلتها .

***

ان الشعوب لم تـكن يوماً تمتت بعضها بعضاً مقتها لبعضها اليوم فلو كانت الارادة تـكفي لافناء البشر لغدت أور بة صحراء مقفرة .

فهذه الضغائن ستبقى حتي اليوم الذي يستقر فيه فى الأذهان

ويصبح الرأى العام فيه قانعاً من أن منفعة البشر هي في التضامن والتعاون أكثر مما هي في التطاحن والتذابح .

ان التطور والتكامل الذي حدث في الزمن الذي تقدم نشوب الحرب في الصناعات والتجارة اللتين هما الركن الأساسى في عالم الاقتصاد الأوربي أوصل العالم المذكور الى حالة من التجانس تامة بدون أن يكون القابضون على زمام الامور في الحكومات على علم بهذه الحادثة . إن كل حكومة أوربية لها مكانة وأهمية حيوية بالنسبة للحكومات الأخرى بكونها موضع انتاج وإصدار أو استهلاك . ولذلك فان دمار وخراب أي حكومة أوربية ما كان ليتم بدون أن يلحق الحكومات الأخرى من جرائه الضرر والأذى

ان هذه الفكرة قد تعممت اليوم حتى بين الالمانيين أنفسهم ، ولكن الفكرة التى كانت متمكنة من أذهان الألمانيين زمن الحرب كانت على طرفي نقيض من هذه ، فكانوا قليلي المبالاة والاهتمام جداً بالارتباط المتقابل والمصلحة المتبادلة المتحكمين برقاب الشعوب عند ما كان غرضهم الأسمى وهمهم الوحيد سواء في بلجيكا وسواء في فرنسة هو القضاء على الفبارك والمناجم التى كانت تزاحمهم غالباً بما تصنعه وتنتجه . ولقد صرح المسيو (باينس) وزير الامور الخارجية

السابق في بلجيكا بأن حاكم البلجيك الألماني وقتئذ البارون (بيسينغ) لم يدخر وسعاً ولم يترك وسيلة إلا استعملها في سبيل القضاء على الصناعة البلجيكية قضاء تاماً . يقول الوزير المذكور « واقد نهبوا بدون أدنى خجل جميع ما وقع بأيديهم من آلات معاملنا وعددها وأدواتها توخياً لمصلحة المعامل الجرمانية المزاحمة لها وقوضوا دعائم الأبنية المدنية التى كانت الفبارك تتألف منها وهدوها من أركانها »

***

ان كل الوسائل التى دبرت لارغام المانيا على تسديد ديونها تفضى الى نتيجة غريبة وتلك النتيجة هي أن الفرنسيين والاجانب هم الذين سيسددون الدين الالماني في النهاية

ولما كانت العملة مفقودة من يد المانيا فهي تدفع ثمناً للأقوات و لمواد الأولية التي هي مفتقرة اليها بمبادلتها بما تصنعه في فباركها وتنتجه ، وهكذا تتوفر لديها وسائل للايراد والارتزاق

ولقد كان باستطاعة المانيا أن تسدد ديونها بما يزيد عن صادراتها لكن ذلك يحملها حينئذ على تزييد منتوجاتها زيادة بالغة توضحت النتائج التى تترتب عنها أجمل اتضاح في خطاب القاه أحد الوزراء الانكليز فى منجستر اذ قال :

اذا كانت المانيا تستطيع في برهة أربعين أو خمسين عاماً من هذا التاريخ أن تسدد ديونها فتصبح لهذا السبب وحده ذات السيادة في جميع الاسواق التجارية فى العالم ، كما انها تصبح أعظم الشعوب من وجهة الاصدار الى الخارج بدرجة لم يعهد لها مثيل بل تغدو مملكة الاصدار التجاري الوحيدة تقريبا فى أنحاء المعمور واذا قبضت الحكومات المتحدة الاميريكية في برهة أربعين أو خمسين عاما جميع ما يحق لها فانها ستشهد من نتيجة ذلك هبوطا في الاصدار التجاري وتري أن شعبها بات محروماً من قسم كبير من حرفه وصناعاته الجوهرية . وحينئذ ترى أن جماع اقتصادياتها الوطنية قد تقوضت دعائمها . أما المانيا وهى الشعب المديون فستبذل نشاطاً شديد الضرر كما أن الولايات المتحدة الاميريكية وهي الشعب الدائن ستبدي رقوداً وسكوناً يجلبان الضرر والأذى أيضاً . » اه

إن جميع هذه الحقائق الواضحة تبرز الآن رويداً رويداً لعالم الوجود من فوضي الأخطاء الاقتصادية التي يتخبط العالم في دياجيرها المظلمة .

***

إذا كانت المانيا ستفي ما عليها من الديون لفرنسة بصفة بضائع بكمية وافرة جداً تتناسب مع خطورة هذا الدين فان المصنوعات.

الالمانية تفيض على بلادنا بدرجة تضطر معاملنا لأن تقلل مصنوعاتها أو أن تقف عن العمل بتاتاً . ونتيجة ذلك تحدث في البلاد أزمة عامة من الفقر والبطالة

إن تأدية الديون بصفة بضائع يجعل فرنسة تضيع من جهة ما تحصل عليه من جهة أخرى، ولاجتناب هذه النتيجة التى هي على غاية من الوضوح فقد تقرر — لمصلحة الحلفاء — وضع زيادة جمركية على نسبة ١٢ فى المئة على البضائع التى تصدرها المانيا وهذا معناه أن سعر مبيع البضائع الصادرة قد ارتفع على نسبة ١٢ في المئة وعلى ذلك فان جميع الذين يشترون المنسوجات الالمانية أياً كانت جنسيتهم يدفعون لها الاثمان اذن بزيادة (١٢ في المئة) عن ذي قبل . فيظهر من هذا جلياً أن الذين يدفعون قسماً من التعويضات المخصصة للتعميرات ليسوا هم الالمانيون بل هم المشترون على اختلاف أجناسهم .

ولقد وضع على بساط البحث مرة اقتراح ولعله لم يوضع حتى الآن اقتراح أحسن منه وهو أن يجبر كبار الصناعيين الالمانيين على التخلي عن عدد وافر من الأسهم التي تؤلف رأس مال معاملهم بقدر الثلث مثلا . لكنه لما كان لهذه الأسهم أصحاب فان الحكومة الألمانية تضطر إذ ذاك لتعويض الأضرار التى تلحق

بهؤلاء من جراء ذلك ، وهذا يفضى الى نفس ماانتهت اليه الطريقة السابقة أي ازدياد أثمان البضائع ، وهكذا فان مستهلكى البضائع الألمانية من الأجانب هم الذين سيتكبدون دوماً تسديد الدين الجرماني

ان جميع هذه الحوادث قد غابت عن ذهن الجمهور بل حتى عن ذهن قادته القابضين على زمام أموره أيضاً ــ زمناً طويلا . ولكنها اليوم غدت مفهومة أكثر من ذي قبل . ولقد جاء الرأي العام الأجنبي بهذا الشأن موضحاً أجلى وضوح في الكلمات الآتية التى وردت فى إحدى كبريات الجرائد الأميركية . قالت الجريدة :

« ان زيادة رسم قدره ١٢ فى المئة معناه فرض نوع (تعريفة) انتدابية يمتد ظل حمايتها على جميع الشعوب التى تستورد البضائع من المانيا وهو رسم يجبى من المشترى الاميركى عن جميع البضائع الالمانية التى تضع رحالها هنا . ولكن هذا الرسم عندما تجبيه المانيا يتسرب الى خزينة الحلفاء لا إلى خزينة الحكومات المتحدة كما لو كان رسماً (أميرياً) مجرداً فرضته الحكومة . وسيفضى هذا الرسم الى حدوث ارتفاع في الاسعار وهبوط في كمية الاخراجات . » اه

***

ان جميع البيانات التى سبقت مهما بدت غير مستملحة فانها جديرة بالتأمل إذهي أدلة تجعل فى يد جمعية الامم مستندا تستند

عليه للتوصل الى تقرير ابطال الحروب أقوى وأعظم من الابحاث الغامضة المشتقة من القواعد الانسانية التى تشغل جلسات تلك العصبة

إن الوسائل التى بحثنا فى نتائجها وانعكاساتها ترى في الواقع بجلاء تام أنه بسبب الارتباط المتقابل الذى يزداد تحكما بين الشعوب يوما فيوما فان اى أمة عند ما تخذل في الحرب وتصيبها الهزيمة تصبح الأمم الاخرى مرغمة على تسديد الغرامات التى يجب علي تلك الامة المغلوبة تأديتها .

فهذه الضرورة التى دعت اليها النهضة الاقتصادية كانت مجهولة حينا من الدهر ، اذ كانت الامم العظيمة وقتئذ تغنى وتثرى عن طريق الغزو والفتوحات ، ولقد كانت المبالغ التى تتقاضى من المغلوبين تؤلف في عهد الرومان جزءا جسيما من الميزانية .

وقد ذكر «فريرو» ان قرطاجنة دفعت للرومانيين عقب واقعة (البون) الثانية مبلغا قدره (٥٥) مليون فرنك وهو مبلغ طائل لا يستهان به في ذلك العهد، وروى (پلين) أيضا أن (پول اميل) لما غلب الملك (برسيه) قد أجبره على دفع مبلغ (٧٥) مليونا بل ان المغلوبين كانوا يحرمون من جميع ما يمتلكون كما كان من أمر (مرسللوس) عند ما فتح (سيرا كوزه) فقد استولى على كل غال وثمين حوته تلك المدينة .

لم يمر على انقضاء هذا العهد ، عهد البطولة ، زمن طويل ولكنه عهد لن يعود بعد هذا الانقضاء . فباستطاعة الامم بعد اليوم أن تشهر حسام الحرب فيما اذا كانت تسعى وراء التفوق الدولى كالمانيا أو الذب عن حياضها كتركيا . و لكنها لن تثرى على حساب الامة المغلوبة .

إذا كانت جمعية الأمم تفتش عن كلمات تحلى بها (واجهة) القصر الذي تعقد اجتماعاتها فيه فانى أنصح لها برسم العبارة الآتية: « إن جميع الحروب بعد اليوم ستئول بالغالب كما تؤول بالمغلوب الى الخراب والدمار . » وإذا بدا للبعض أن هذه العبارة وجيزة جدا فيمكن اتمامها باضافة ما يلى . « اذأن أى أمة اذا أشهرت الحرب على غيرها فأن الأمم الاخرى باسرها ستتكبد نفقات هذه الحرب . فمن مصلحة الشعوب المباشرة والحالة هذه أن تتحد وتتضامن لتحول دون نشوب حروب جديدة .

حث البشر من آن الى آخر على التحابب وإعادة ذلك على مسامعهم دوماً من النصائح التى لم تعمل الشعوب بموجبها أصلا . إن الحكمة القائلة « عاضدوا بعضكم بعضا فبذلك تعملون لمصلحتكم المجردة » تستطيع أن تغير حال العالم إذا تمكنت من الحلول في سويداء القلوب بعد أن تكون قد قلبت الأفكار وحولتها عن مجراها ؟

الكتاب الثاني

عدم التوازن الاجتماعي

الفصل الأول

النظام الاجتماعي والروح الثورية

ان النظام الاجتماعي أي وجوب الانقياد لبعض القواعد قد كان دوماً منذ العصور العريقة في القدم أي منذ العصر الحجري حيث كانت البشرية تعيش بحالة عشائر رحالة حتى زمن المدنيات العظمى الحديثة ـ الركن الأساسي الذي يقوم عليه كيان الجماعات . وكلما ارتقت المدنية في سلم التقدم كانت تلك القوانين تزداد عدداً وتزداد إطاعتها وجوباً .

ان الانسان الجديد المحمي كثيراً من قبل القوانين عوضاً عن أن يفطن لحسنات تلك القوانين فانه غالباً لا ينتبه الا لما فيها من

شدة . وقد ألف المتشرع البلجيكي الكبير (ادمون بيكار) كتاباً لطيفاً دعاه (القوانين الثابتة في الحقوق) أثبت فيه أن الضغط (La Contrainte) هو القاعدة الأساسية التي يجب أن تتخذ في أي حياة اجتماعية كانت . وقد أورد المؤلف المذكور في كتابه جملة لشو بنهور تصف ماتؤول اليه حالة الجمعية البشرية اذا لم تكن إطاعة القوانين متحتمة عندها ، وهي هذه :

« ان الحكومة قد وضعت حقوق كل فرد من الأفراد في يد قوة أعظم بكثير من قوة الشخص . بهذه القوة تجبر الشخص على احترام حقوق الآخرين ومراعاتها . وهكذا تحتجب عن الظهور الأثرة التي لاحد لها المتمكنة من نفوس جل الخلق والخبث الذي له الشطر الأوفر في طباع الكثيرين والشراسة التي يتصف بها بعضهم . فان الضغط يجعلهم مقيدين ، على أنه وان كان ماينتج عن هذا الضغط ليس الا صورة مزيفة لكنه عند ما تفقد الحكومة قوة الذب عن الحياض أو عند مايطرأ على تلك القوة شيء من الضعف والشلل كما يحدث أحياناً ، عند ذلك تنطلق من عالم الخفاء الى عالم الظهور الصفات التي تنطوي عليها نفوس البشر من جشع ونهم ومكر وخداع ومخاتلة ورياء وغدر ومين . » اه

***

ان النظام يخلق نوعاً من التوازن بين الميل الطبيعي أو الدافع الغريزى في النفس البشرية وبين الضرورات الاجتماعية . فلتأسيسه يجب قبل كل شيء فرض عقوبات صارمة . لكن القانون الذي تنص عليه (مجلة الأحكام) لا يصبح ذا قوة حقيقية الا بعد أن ينتقش في النفوس نقشاً .

وهكذا فان النظام الخارجي الموضوع بطريقة الضغط يدخل في شكل نظام خفيف الوطأة ثم يعمل فيه قانون الوراثة الطبيعي فيغدو بالنهاية من العادات المألوفة . وعندئذ ، وعندئذ فقط ، تغدو العقوبات عديمة الجدوى لأن النظام يكون حينئذ قد استقر فى النفوس . لكن الأمر ليس كذلك عند جميع الشعوب بعد .

ان النظام الاجتماعي (وتكونه عادة يكون بطيئاً جداً وغير تام الاستقرار في كثير من الأحيان) سهل التزعزع أمام العواصف الكبرى . فالشعوب المملصة حينئذ من قيود القوانين وضغطها لا يبقى لديها دليل سوى ميولها وأهوائها فتغدو كريشة فى مهب الريح طائرة لا تستقر على حال من القلق أو كما قال المؤلف كسفينة بلا (دفة) في عرض البحر تتقاذفها الأمواج المتلاطمة وتلعب بها كما تشاء .

***

ان خطورة أمر النظام وأهميته الأساسية تظهر لحيز الوجود عندما يتحقق أن الشعوب لا تحظى بالتمدن الا بعد أن تكون قد حصلت على النظام وانها تعود الى حال التوحش عندما تفقده .

فان خروج أهالى أثينا عن النظام هو الذي ألقاهم في مهاوي الأسر في الزمن القديم . كما أن تدني روما وانحطاطها لم يبدءآ الا عندما زالت فكرة اتباع النظام . وكذلك سمعت روما الجرس يدق معلناً حلول ساعة التدني والانحطاط عندما زالت كل فكرة مراعاة للنظام وانقياد له ، ولم يبق ثمة من قوانين الا ارادة الامبراطرة ، تلك الارادة التى هي والعدم سواء كيف لا وان الجنود هم الذين كانوا ينصبون الامبراطرة و يخلعونهم . وفى ذلك الحين فقط نجحت حملات البرابرة على روما وتكالمت بالنصر .

ولقد أظهر المسيو (كميل جوليان) فى كتابه المعنون « كيف تفنى الاوطان » أن حكومة غاليا المستقلة اضمحلت على هذا الشكل ذاته : قال المؤلف المذكور : فلم يكن ثمة من مطيع للقوانين وكان كل ماهو من القواعد المقررة في الشؤون العدلية والمالية والاجتماعية يخترق في كل لحظة ولهذا فقد نجحت حملة (قيصر) على تلك البلاد بسهولة كلية .

***

ان اوربة بأجمعها تجتاز اليوم دوراً خطيراً من أدوار فقدان النظام لا يتيسر لها أن تجتازه بدون أن تعم فيها الفوضى والتدني اللذين يولدهما هذا الخروج عن التقييد . ان المبادىء القديمة التى كانت العناية التامة تحوطها من كل جانب قد أضاعت قوتها ؛ على أن المبادىء التى تستطيع أن تقوم مقامها لم تتكون بعد .

ان عدد الفوضويين وان لم يكن بعد قد بلغ حداً كبيراً لكن عدد الذين خرجوا عن التقييد بنظام أصبح لا يدخل فى حد ولا يحصيه عد . ففى العائلة كما في المدرسة وفي المعمل كما فى المصنع يزداد اضمحلال نفوذ الأب أو الأستاذ أو الوهين (١) يوماً عن يوم . فأمر الخروج عن النظام قد تعاظم عن ذي قبل كما أن عجز الرؤساء عن حمل مرؤوسيهم على الاطاعة قد تقرر لدى الجميع وأصبح أمراً ملموساً وحقيقة محسوسة .

يرافق فقدان النظام اليوم بعض علامات الانحلال الأدبي وهاك أهمها : النفور من كل أنواع الضغط ، تناقص نفوذ القوانين والحكومات تناقصاً مستمراً ، الحقد العام على التفوق بأنواعه سواء من جهة الثروة أو من جهة الذكاء ، فقدان التعاضد أو التكاتف بين مختلف الطبقات الاجتماعية وتطاحن الصنوف ، الاستخفاف المفرط

(١) هو الذي يتولى رئاسة عمل أو ادارة .

بالأمثال العليا القديمة كالحرية والأخاء ، تقدم العقائد والمذاهب المتطارفة القائمة على محاربة أي نظام اجتماعي كان وتقويض دعائمه ، قيام السلطة الاوتقراطية لجماعة من الأفراد مقام جميع الأشكال القديمة للحكومة .

فأمثال هذه العلامات سيما منها النفور من أنواع الضغط وفقدان النظام الناشيء عن ازدراء القوانين والاستهانة بها . أمثال هذه العلامات لها نتيجة متحتمة لا بد منها وهي تعاظم الروح الثورية والشدة والمقت الملازمين لتلك الروح ملازمة لا انفصام لها .

***

يظهر جلياً مما تقدم أن الروح الثورية هي مسألة عقلية أكثر بكثير مما هي عقيدة .

ان من أوصاف الثوري عجز عقله عن الوفاق مع نظام الأمور المقرره فشطر كبير من تعطشه للتخريب وتقويض الدعائم منشأه عن هذا العجز .

ولما كان الثوري عدواً لكل أنواع النظام فهو يتمرد حتى على قادة حزبه عند ما ينغلب الحزب وينتصر . إن أي ثورة في التاريخ لم تخل من مثل هذه الحوادث . فان المونتنياردين كانوا في نزاع ونضال دائمين مع الجيروندين أثناء الثورة

قد يخطر على البـال أن الروح الثورية تتطلب وجود حرية فكرية كبيرة ، ولـكن الحقيقة هي أن الامر يناقض ذلك تماماً ، بل إن الحرية الفكريه الحقيقية تستلزم وجود ذكاء ومحاكمة مما لا أثر لهما في أدمغة الثورويين . إن الثورويين وإن كانوا في الظاهر يبتعدون عن فكرة الاطاعةوالانقياد ، لـكنهم يشعرون بأنهم في حاجة عظمى لدليل يقودهم مما يجعلهم يخدعون بسهولة لارادة زعمائهم وهكذا فان الاكثر غلواً من متطرفينا كانوا يرضخون باحترام فيرضون بالاوامر الملـكية الصيغة التي كانت تصدر عن كبير كهنة البلشفيك الذي كان حاكما فى (موسكو)

فالحقيـقة التي لا مراء فيها هي أن أغلبيـة الأفكار ترغب في الرضوخ أكثر بكثير مما ترغب في الاستقلال اما الروح الثوروية فهي لا تزيل هذه الرغبة أو بعبارة أصح هـذه الحاجة أصلا . ان الثوروى هو امرؤ يرضخ بسهولة ولـكنه يتطلب تغيير رئيسه تغييراً متواتراً .

عند ما تـكون البلاد في دور التوازن التـام يحول النظام العام فيها دون تفشى الروح التوروية عن طريق السراية العقلية فان جرثوم الثورية لا يفعل فعله التخريبي إلا في أدوار التقلقل والتبلبل عند ما تضعف المقاومة المعنوية

على أن كل ملاحظة عن أخطار الثورات وعدم نفعها هي في الأصل عديمة الفائدة لأن فكرة الثورية كما قلت وأكرر القول هنا أيضاً حالة عقلية أو ذهنية وليست مذهباً من المذاهب أو عقيدة من العقائد . أما العقيدة فليست سوى تعليل يصلح لدعم الحالة الذهنية . وبالتالي فان هذه الاخيرة أي الحالة الذهنية تبقى دائمة حتى ولو فازت العقيدة

في نفس الوقت الذي تنتشر فيه الروح الثورية عند كثير من الشعوب يعتري نفوذ الحكومة فيها الضعف. ان رجال الحكومات بسعيهم وراء فكرة غير معينة وحملهم الناس على اتباعها والرضاء بها يضيعون من نفوذهم كلما جدوا في خطتهم

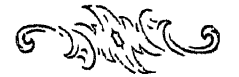
فرؤساء النقابات أو الاحزاب الثورية أو الاشتراكية المتحدة مثلا ليسوا مطاعين إطاعة تفوق تلك، فقد رأينا أن حركة الاعتصابات كانت تسير على خلاف مشيئة قادتها ومديريها : كما حدث في اعتصاب عمال السكك الحديدية . الا أن أولئك الزعماء كانوا عندما يعجزون عن إملاء إرادتهم على المعتصبين وتسيير الاعتصابات طبقاً لرغباتهم يخضعون لمشيئة مرؤوسيهم فيتبعونهم لكيلا يظهروا بمظهر المنبوذين من قبل جماعاتهم

***

إذا كانت الدعاية الشوروية تجد اليوم نجاحاً وتلقى اتباعاً عديدين في مختلف البلاد فلا يرجع الفضل في ذلك للنظريات التى أتت بها بل انه مسبب عن اضمحلال الوازع من نفوس الخلق عموماً

إن الفئة المنورة فقط هي التى يتاح لها النجاح في مكافحة الخروج عن النظام الذي يهدد سلامة المدنية ويخشى منه تقويض دعائمها . على أن أفراد تلك الفئة إنما يتاح لهم ذلك عند ما ترتقى طباعهم الى مستوى ذكائهم .

وهناك أمر تنساه جامعات بلادنا دوماً خلافاً للجامعات الانكاوسكسونية التى لا تنساه لحظة ، وهو أن النظام والسجايا اللذين يقودان المرء الى الفوز والانتصار فى الحياة لا يستندان على الذكاء بل يرتكزان على السجايا فقط



الفصل الثاني

العناصر الاعتقادية

في النزعات الثوروية

عنـد ما يبحث عن مصادر النظريات الثوروية التي تزعزع أركان العالم يتحقق أنه يوجد وراء تلك الأشكال المختلفة من النظريات كالشيوعية والاشتراكية والنقابية (*Syndicalisme*) ونظرية استئثار العمال بالحكم (*Dictatur du Proletariat*) وما اليها — وهم اعتقادي أو سري مشترك بين جميع تلك الأشكال وبعض مزاعم وظنون متحد بعضها مع البعض الآخر .

إن النتيجة التي يولدها ذلك الوهم الاعتقادي الذي سندرس كيفية نشأته وتكونه بعد قليل — هي أن العامل لما كان يعتقد بأنه أجدر من أهل الطبقة الوسطى بادارة شؤون الحكومة والمشروعات الصناعية فهو يرى من واجبه والحالة هذه أن يحتل مكان رجال تلك الطبقة كما هو جار في روسيا

أما العواطف التى ترتكز عليها النظريات الجديدة فهي في فئة الزعماء طمع شديد وتوق عظيم للقبض على زمام سلطة يجرون من روائها مغنما . أما في الفئة الساذجة المندفعة وراءهم التى تدين بنظرياتهم فهي مقت التفوق المتولد من الحسد بأنواعه

إن هذا الشعور بالمقت نحو التفوق بأنواعه قد تجلى فى روسيا بأجلى مظاهره وقد ظهر ظهور الشمس في رابعة النهار في أوائل أيام الثورة التى حدثت فيها اذ أن جماعة المفكرين الذين أظهر تقلص ظل حياتهم اليوم ـ أهميتهم الاجتماعية ، قد لاقوا من الظلم مثل ما لاقى أصحاب رؤوس الأموال فاضطهدوا وذبحوا . ان الوقائع التى تماثل ما صنعه البلاشفة عقيب الاستيلاء على مدينة «باكو» كاسنادهم منصب رئاسة جامعتها الى بواب قديم وتقليدهم جماعة الخدم الذين يخدمون فى تلك الجامعة أمر معاونة الرئيس الجديد في مهام وظيفته عديدة لدرجة تكاد لا تدخل تحت حصر

ويمكن أن يقال بوجه عام أن المطاليب التى يتوق اليها القوم في أوربة تمثل توقاناً لمناضلة التفاوت في الذكاء والثروة الذي أصرت الطبيعة على أن يكون موجوداً

فالأفكار التى تنطوى تحت دستور (استئثار العمال بالحكم)

أصبحت الانجيل الذي تدين به كتلات العمال لأنه لائم عنجهيتهم وتطابق مع زهوهم وصلفهم . ولقد خيل لتلك الكتلات أن القوة التي حصلوا عليها بفضل النقابات والاعتصابات هي قوة تضارع قوة الملوك يجب على الجميع أن ينحنوا أمامها ويطأطئوا لها رؤوسهم . وعندهم ان العمل وحده هو الذى سيقبض على صولجان الملك في الجمعية البشرية في المستقبل

***

لقد تحقق أن الاخفاق الذي لاقته تجارب استئثار الشعب بالحكم سيما تجارب الشيوعية في مختلف البلاد لم يكن ليزيل الغشاوة عن أعين المتشيعين لتلك النظريات فلم يتقدموا قيد شبر نحو الصواب بالرغم من ذلك الاخفاق ولم يتزعزع إيمانهم بصحتها :

فالعجب الذي يثيره تحقيق هذه القضية يتبت أن كنه سرعة التصديق التي فطر عليها الناس لم يزل بعد مجهولاً وعليه فلا تكون كلمة موجزة عن كيفية تكون هذه السذاجة عديمة النفع في هذا المقام

ولما كان البحث لا يتناول فى الظاهر سوى الكلام عن تجريد أحد الصنوف عما يملكه في سبيل منفعة صنف آخر فانه يظهر لأول وهلة أن المطامع المادية لمحضة هي الركن الوحيد الذي قامت عليه المذاهب الجديدة

إن هذه العقائد والانجيل الشيوعي الذي يضم أحكامها بين دفتيه تستند في الواقع على منافع مادية ولكنها مدينة بقوتها الاساسية للعناصر الاعتقادية التي لم تزل هي المسيطرة على عقليات الشعوب منذ عرف التاريخ

بالرغم من الشوط البعيد الذي قطعته الفلفسة في مضمار الرقي والتقدم ، فان الاستقلال الفكري لا يزال وهما من الأوهام وخيالا من الخيالات . لأن الانسان غير مسوق فى هذه الحياة بعامل الاحتياجات والعواطف أو الأهواء فحسب بل لا بد له من عقيدة لكى تسيير سفينة آماله وأحلامه في الوجهة المطلوبة . فان الانسان لم يكن يوماً بغنى عن عقيدة يؤمن بها و يوقن بصحتها

إن التصوف (Mysticisme) القديم لا يزال محتفظاً بتمام قوته . وغاية ما هنالك ان مظاهره فقط قد تغيرت وتبدلت :فان العقيدة الاشراكية تحل اليوم شيئاً فشيئاً مكان الأوهام الدينية

واقد سبق لي أن أبنت باسهاب فى غير هذا المكان أن التصوف أي نسبة المقدرة الخارقة للعادة للقوى العليا كالآلهة والقوانين أو المذاهب هو من المظاهر التى فاقت غيرها تبارزاً في التاريخ

ولا أرى هنا فائدة من العودة الى ذكر الادلة التى استعنت بها

على تأويل جملة حوادث عظيمة كالثورة الفرنسية الكبرى وتعليل العوامل التى سببت نشوب الحرب الكونية الاخيرة بل أقتصر على الاشارة الى أن سلطة القوى السرية أو الاعتقادية على العقل هي التي يمكنها فقط أن تعلل السذاجة أوسرعة التصديق –على الأصح– التي جعلت الناس فى جميع الأزمنة يؤمنون حتى بأبعد المذاهب عن جادة الحقيقة والصحة

بل انك لتجد تلك المذاهب يؤمن بها ويوقن بصحتها جملة وبدون تمحيص او مناقضة ، ففي دائرة التصوف حيث تنضج عناصر الايمان لا وجود للمستحيل

حالما تستولى العقيدة التي يأتى بها مذهب جديد على العقل — وذلك تحت تأثير عناصر الاقناع التي سأجمل الكلام عنها فيما بعد فانها تملك على الشخص الذي استوثق منها لبه ومشاعره وذهنه وافكاره ويصبح قياده فى يدها فتقوده حيثما تشاء كما أن غاياته ومصالحه الشخصية تضمحل وتزول ، ويغدو مستعداً لان يضحى بنفسه فى سبيل تغلب عقيدته وفوزها .

ولما كان الشخص المؤمن بتلك العقيدة متيقناً بأن الصواب التام والحقيقة الخالصة متمثلان فيما يعتقد فهو لذلك يشعر بحاجته لبث تلك الحقيقة بين الملأ ويضمر لمعارضيه كرها ومقتاً لا مزيد عليهما .

ان تأويل العقيدة وتحليلها لما كان يختلف بطبيعة الأمر حسب العقلية المؤمنة بها فان حوادث الانشقاق والبدع أي الالحاد في الدين سرعان ماتكثر وتتعدد . على أن هذه الحوادث لاتزعزع يقين المؤمن بل هي في رأيه ليست الا دليلا على أمر واحد وهو فساد عقيدة جماعة المعارضين .

فالذين يتولون الدفاع عن بدعتين متفرعتين عن عقيدة أساسية واحدة سرعان مايشعر كل فريق منهما بنار البغضاء والمقت تتأجج في صدره نحو الفريق الآخر . وذلك المقت يعادل بشدته وقوته المقت الذي تحس به كلتا الفئتين تجاه الذين ينكرون عليهما عقيدتهما نفسها . فهذا البغض المستحكم بين المؤمنين بفرعي مذهب واحد يكون عادة في غاية التأجج والتسعر وربما وصل بأصحابه بعد قليل من الزمن لدرجة تجعلهم يشعرون معها بحاجتهم الى ذبح معارضيهم .

ولقد عقدت النقابات أخيراً مؤتمراً في مدينة « ليل » يستطيع المرء عند مايقرأ وصف افتتاحه الذي وصفه به أحد محرري جريدة (الماتان) أن يحكم على المشاعر التي يحس بها الذين يتولون الدفاع عن مذهبين تكاد لاتدرك الفوارق التي بينهما . قال المحرر :

« لايزال ماثلا أمام عيني ذلك المشهد المتعاصي عن الوصف مشهد تلك الجلسة التي تمثل فيها الجنون والجيشان بأجلى مظاهرها

كأنها البحر الهائج تلاطمت فيه الأمواج وثارت في جوه العواصف.
ولا أزال أشاهد وجوهاً بدل الغضب والغيظ معالمها وأفواهاً تقذف من السباب ضروباً ومن الشتائم أنواعاً ، ونبابيت تلوح فى الفضاء بل ان ضجيج المتنازعين وصراخ الجرحى وألفاظ الشتائم التى كان يتبادلها القوم وذوو العيارات النارية ؛ كل هذه الأصوات لاتزال أصداؤها تتجاوب في أذني ولا يزال رنينها فيمسمعي ، ولا أكون كاذباً اذا قلت أني لم أشهد بحر الشحناء، والضغينة يفيض مثل هذا الفيضان الهائل في يوم من أيام عمري . »

ومع ذلك فان الذين تبلغ الضغائن والأحقاد من نفوسهم هـذا المبلغ ليسوا الا جماعة المتطرفين فى كل مذهب . أما التطرف فـلا يختار ذويه الا من الأشخاص المنحطين وضعاف العقول وعديمى الارادة المندفعين وراء ميولهم اندفاعاً لايستطيعون له مقاومة أو معاكسة . ان بأس هؤلاء المتطرفين عظيم ولـكن التردد والتحير يالغان من شخصياتهم حداً هم بحاجة قصوى معه لزعيم يقودهم ويتولى زمام أمورهم

أما صنف المنحطين فهو أكثر صنوف المتطرفين خطراً ، فقد لوحظ أيام تسلم شيوعيو هنغاريا مقاليد السلطة أن رجال الديكتاتور (بيلا كون) كانوا شرذمة من اليهود تضم المصابين بأشنع العاهات

الخلقية (بفتح الخاء) التى ينبو عنها النظر . وقد كان المذهب الجديد الذي يسمح لهم بانزال أفظع أنواع التنكيل وأقساها بالمواطنين مهما بلغوا من الفضل والنيافة خير عون لهم وأحسن مستند يتمكنون بواسطته من الانتقام للخزى والمذلة اللذين يحكم بهما (خروج الاعضاء عن المألوف فى نموها) على ضحاياه

***

مهما كانت عقيدة من العقائد التصوفية باطلة ومخالفة للعقل والصواب بقدر ما يتسع لذلك باب الافتراض ، فانها اذا رسخت دعائمها وتوطدت تجذب اليها في برهة وجيزة أهل الجشع والطمع والاشخاص النصفيى الذكاء والعاطلين في الوقت ذاته عن العمل . فبواسطة المذاهب التى دخل احتمال أحكامها في حيز الامكان اكثر من غيرها قد أسسوا بسهولة نظما اجتماعية محكمة الاتقان من الوجهة النظرية .

ففي الزمن الذى كانت المدنية فيه أبسط مما هي عليه اليوم لم تكن للأوهام التصوفية أو الاعتقادية نتائج أبلغ ضرراً واسوأ وقعا فقد كانت النظم التى عرفها قدماء المصريين عندما كانوا يعبدون التمساح أو الاصنام ذات الرؤوس المنحوتة على مثيل رأس الكلب تتطابق بسهولة مع تمدن موضعي غاية في البساطة عندما كانت مشاكل الحياة طفيفة للغاية والعلاقات أو المناسبات الخارجية تكاد تكون معدومة

لكن الحالة اليوم قد تبدلت تبدلا كليا فاصبحت غيرها بالامس اذ بالرغم عن التقدم الذي حدث في الصناعة وفي علاقات الشعوب بعضها مع بعض ، فان التمدن أصبح كثير الاشتباك والتعقد هائلها ففي هذا البناء الذي يتطلب حفظه وصيانته كفاءة علمية عظيمة لا تستطيع الأهواء الخيالية أو الوهمية التى يحلم بها جماعة الخياليين أن تولد سوى الخراب والدمار واشتباك (الملاحم)

***

ان الحاجة لايمان تصوفي هي الأرض التى تنبت عليها المعتقدات ولكن كيف تنبت الاعتقادات دعائمها وكيف تذيع وتنتشر ؟

ان الباطل هو أيضا كالحقيقة لا يستقر أبداً في نفوس الخلق بواسطة الأدلة العقلية بل ان كليهما يقبلان بمجموعهما بشكل مزاعم لا تقبل مناقشة ولا جدلا

ولما كنت قد تكلمت باسهاب عن كيفية تكون المعتقدات في غير هذا المكان ، فسأكتفي هنا بالالماع الى ان المعتقدات تتكون بتأثير العناصر النفسية الاساسية الآتية ، وهي التأكيد ، التكرار ، الاعتبار أي النفوذ ، العدوى

فهذه العناصر التى عددناها لاوجود لعنصر العقل بينهما وذلك لأن تأثير العقل على تكون العقيدة خفيف وضعيف

ان التأكيد والتكرارهما من أقوى عوامل الاقناع فان التأكيد يخلق الفكرة ثم يأتي التكرار فيثبت هذه الفكرة في الذهن و يجعل منها عقيدة أي فكرةراسخةفي الذهن رسوخاً لاخوف عليه من التزعزع بتأثير العواصف .

سلطة التكرار على الأرواح البسيطةوغالباً على غير البسيطة أيضاً عجيبة تبعث على الدهشة . فبتأثيره يصبح الباطل مهما كان واضحاً جلياً من الحقائق الناصعة

ومما يدعو للاغتباط — بالنسبة لمصلحة حياةالجمعيات البشرية أن الوسائط النفسية التى من شأنها أن تجعل الباطل يدخل في شكل عقيدة من شأنها أيضاً أن تحمل على قبول الحقيقة بشكل عقيدة . ان الذين تولوا الدفاع عن النظم الاجتماعيةالقديمة التى لا تزال تدعمنا وتحمينا حتى اليوم ينسون هذا الامر غالباً .

فلكى نحول الحقائق الاقتصادية والاجتماعية التى تستند عليها حياة الشعوب الى شكل معتقدات ـ بالنظر لانه ليس من الممكن حمل الناس على قبولها بغير هذه الصورة ـ يجب على رسل هذه الحقائق أن يخضعوا لحكم ما يقع عليه الاختيار من أساليب الاقناع المتفردة بجدارتها للتأثير على أرواح الخلق بحيث أن يقابل مناصرو الحقيقة تأكيدات مروجي الباطل الشديدة والمكررة بتأكيدات مثلها في

ة والتكرار ، ويجب خصوصاً مقابلة دساتير الباطل بدساتير الحقيقة.

إذ وهكذا فان فاشستى ايطاليا اتبعوا طرائق تشابه الطرائق التى نتكلم عنها حتى تمكنوا من صد أمواج الشيوعية التى كادت تطغى على الحياة الصناعية في بلادهم وتجعلها أثراً بعد عين والتى عجزت الحكومة عن مقاومتها .

***

ان حال الكثير من الجمعيات البشرية الحديثة يذكرنا بذلك الدور دور الانحطاط والتدنى الذي دخلت فيه روما عند ما أنكرت آلهتها وأهملت النظم التى قامت عليها عظمتها . فتركت مدنيتها للبرابرة [الذين لم يكونوا على شيء من الثقافة وليس لهم من القوة إلا وفرة عددهم والشدة التي كانت تتحلى فى رغباتهم وشهواتهم] فقوضوا دعائمها وهدوا أركانها .

فالحضارات الكبيرة يبدأ اضمحلالها منذ الزمن الذي تحمل فيه الدفاع عن نفسها . إن المدنيات العديدة التي تلاشت من عالم الوجود منذ بدئه حتى اليوم ذهبت بوجه خاص ضحية عدم مبالاة حماتها وضعفهم

إن التاريخ لا يعيد نفسه دوماً ولكن القوانين التي تسيطر عليه أبدية خالدة .

الفصل الثالث

الاشتراكية فى الاموال

جعل الأموال مشتركة بين الخلق

بين المذاهب الباطلة التى تحاول الانحراف بالنظام الاقتصادي الى جادة الضلال والتى يتخبط العالم فيها اليوم على غير هدى توجد أوهام الاشتراكية . فهذه الأباطيل بالرغم من أن مروجيها يمثلونها بأشكال مختلفة ، الا أن جميع تلك الأشكال هدفها واحد ويجمعها كذلك دستور واحد ، وذلك الدستور هو (جعل الأموال مشتركة بين الخلق)

لقد حدث أثناء سير العالم في طريق التكامل أن كان يطرأ على نفوذ الآلهة أحياناً بعض الضعف ولكن سلطة الدساتير التى لها فعل السحر لم تضمحل يوماً من الأيام . فان الانسان مسوق في هذه الدنيا دوماً بعامل تلك الدساتير ليس إلا .

فهذه الدساتير سواء كانت دينية أو سياسية أو اجتماعية فانها

تؤثر في النفوس على نمط واحد كما أن منشأها كذلك واحد . على أنه لا يرجع السبب فيما لتلك الدساتير من النفوذ الى ذرات الحقيقة التى تتضمنها ، بل يعود ذلك الى القدرة التصوفية أو الاعتقادية التي يعزوها الخلق الى تلك الدساتير .

فالجمعيات البشرية تجد نفسها اليوم أمام انقلابات عظيمة وتحولات عميقة تهدد أنظمتها وقوانينها بسبب ذلك الدستور الجديد دستور جعل الأموال مشتركة بين الناس . ان ذلك الدستور حسب قول مناصريه سيوجد المساواة الكاملة بين الأشخاص وسيهيء أسباب سعادة وميمنة عامتين تشملان الناس أجمعين .

فهذا الوعد السحري الخلاب قد انتشر بسرعة البرق بين فئات العمال فى أنحاء المعمور كافة ، ويلوح للناظر أن ذلك الدستور بعد ماقضى على الحياة الاقتصادية في الروسيا سينشب معاول التخريب والتقويض فى أوربة بكاملها . أما أميركة فهي وحدها قد صدته بغاية الشدة لأنها شعرت بتأثيره السيء المشؤوم على سعادة الشعوب ورفاهها

ان عمال السكك الحديدية الفرنسيين عند ما اغتنموا فرصة حلول أول أيار من أحد السنين فحاولوا القيام باعصاب عام — لم يكن

لهم من غرض سوى تحقيق فكرة جعل كل شيء ملكا للأمة تلك الفكرة التي يحلمون بها منذ أمد

إذن فهذا الاعتصاب كان خلافاً لجميع الاعتصابات التي تقدمته اذ لم يكن الغرض منه الزيادة في الأجور أبداً . ولقد أثبتت ذلك جمعية تضامن العمال العامة عند ما أعلنت بأن الغرض من هذه الحركة ليس زيادة الاجور و إنما يسعى المعتصبون لتطبيق نظرية جعل السكك الحديدية بوجه خاص ملكاً للأمة

ولكن مما لاشك فيه أنه لا يوجد أكثر من شخص واحد بين كل ألف شخص من المعتصبين يستطيع أن يدرك كنه نظرية جعل السكك الحديدية ملكاً للأمة وأن يتكلم عما تتكون منه تلك النظرية وأن يبين كيف سيكون تطبيقها في المستقبل : بل لو استوضحت بضعة أفراد من المعتصبين من الذين تفردوا من حيث كفاءتهم واستعدادهم لأدراك شيء مما يريدونه بعض الأدراك فمن المحتمل أيضاً أن تختلف أجوبتهم عن معنى جعل السكك الحديدية ملكاً للأمة اختلافاً بيناً عن بعضها . فان غاية مايراد من ذلك العمل في نظر الأغلبية الجسيمة من المعتصبين هو أن يستثمروا السكك الحديدية و يستغلوها لحسابهم الخاص .

أما من جهة أمر اتباع المتعصبين لزعمائهم فهو عائد لمجرد كون هؤلاء زعماء إذ أن المتعصبين لا يسعون وراء الاستفهام والاستيضاح عن غاية الأوامر التي يتلقونها وما ترمى اليه .

على أنه في الأصل لا يجب أن ننسى أن أعظم المنازعات الدينية في التاريخ وأشدها قد حدثت أيضاً بين أشخاص لم يكونوا يفقهون من أمر المسائل اللاهوتية التي اختلف عليها زعماؤهم شيئاً بل لم تكن عقولهم تقوى على إدراكها . فالقوانين الموضوعة بشأن نفسيات الأمم تفسر لنا سر هذا الحادث وتوضحه بسهولة كلية

ان القاعدة الوحيدة التي تسند عليها الشروح والتفاسير الغامضة التي يدلي بها أنصار مذهب جعل كل شيء ملكاً للأمة وحماته الرسميين هي عبارة عن سلسلة إدعاآت لا تدعمها حجة ولا يسندها برهان . ولقد لحض تلك الادعاآت أعظم أولئك الحماة كفاءة ومقدرة بالأسطر التالية .

« ان هناك تضاداً بين منفعة رؤوس الأموال و بين المصلحة الجماعية . يجب أن تكون الصناعات على اختلاف أنواعها سيما السكك الحديدية ملكاً جماعياً يستثمر لحساب الجماعة . ولكن لا من قبل الحكومة بل من قبل (إدارة) مستقلة عن (إدارة) الحكومة يضع أساسها مؤتمر مؤلف من ممثلي الجماعة، كما أن مؤتمراً

مركزياً يجب أن يدير الأمور المتعلقة بالمياومات وانتخاب الموظفين وترقية رتبهم . »

فيتضح جلياً ان الادعاء القائل بجعل كل شيء مشتركا بين الخلق ليس شيئا آخر سوى أن يقوم مقام الشركات الحالية شركات أخرى مؤلفة من موظفي السكك الحديدية .

ولكن لكي يحصل الموظفون على شيء من النفع من وراء هذا التبديل فى الموظفين يتوجب عليهم أن يكونوا على جانب من الكفاءة والمقدرة عظيم يفوق كفاءة ومقدرة المهندسين والاخصائيين الذين يديرون في الوقت الحاضر أمور السكك الحديدية الكثيرة التعقد والاشتباك .

ان ذوي السلطة الواسعة الذين يديرون شؤون السكك الحديدية اليوم لايسعون لجعل بضعة من رؤوس الاموال اكثر جسامة مما هي عليه أي لايشتغلون لنفع بعض رؤوس الاموال كما يؤكد الاشتراكيون بل ليعود عملهم بقليل من الربح على المساهمين ذوي الاموال الضئيلة والمعادلين من حيث العدد لذرات الغبار الذين يملكون شبكة الخطوط الحديدية على سبيل القسمة فبحرمان المساهمين بأجمعهم من الأرباح بجعل شبكة الخطوط الحديدية مشتركة بين الناس ستزيد المياومات

التي يتقاضاها الموظفون اليوم ولكن زيادة ضئيلة للغاية .

في الحقيقة ان الذين يديرون مثل تلك الحركات والمحركين الأول لها لايخدعون انفسهم بالنتائج التى يمكن أن تتولد عن الحركات التى يقومون بها بل أن غاية مايؤمله هؤلاء من وراء جعل الشركات مشتركة بين الخلق أن يعود عليهم ذلك بالنفع . فهم اذا قاموا باعتصابات مهلكة فانما يفعلون ذلك لكي يصبحوا بدورهم زعماء ورؤساء ليس الا .

***

هل يوجد تضاد حقيقي بين مصلحة رؤوس الاموال وبين مصلحة المجموع ؟ وهل يمكن حقيقة القول بأن العمل لايجري لمصلحة الجميع بل لمصلحة البعض فقط ، في الجمعيات الحالية ؟

ان الحقيقة التى لامراء فيها هي أن الامر على خلاف ذلك تماما فان الاغلبية الجسيمة من العمال هي التي تستفيد من جهد فئة الخواص . ان هذا هو الواقع منذ بدأت النهضة الصناعية في حين أن بسطاء العمال لم يكونوا أصلا الموجدين لهذا التقدم والرقي الذي يستثمرونه ويستفيدون منه .

وعدا ذلك فان العمل اليدوى والمهارة الصناعية ليسا في الاصل من العناصر الاساسية في الطريق الموصلة الى الاثراء والانتاج أبداً

بل أن فكرة استنباط المشروعات ، وملكه الابتداع أو الاختراع والاستعداد ، وتوفر الجرأة بقدر ما تتطلب المخاطرة ، والمجازفة ، وقوة التمييز والمحاكمة . . . . ، كلها عناصر تفوق ذينك العنصرين اهمية وخطورة في تعبيد الطريق الموصل للغاية المتوخاة .

ان رأس مال الشعب انما يتألف من توفر أمثال تلك الملكات بين أفراده . فاذا كانت الروسيا بالرغم من عظيم غناء أراضيها زراعياً ومعدنياً وجسامة عدد أهليها لا تستفيد وما الا تلك الاستفادة الضئيلة فانما يرجع السبب في ذلك للقحط في الرجال الاكفاء المستولين عليها فى أيام حياتها .

والا فان الاعتقاد بأن رأس مال البلاد يتألف بوجه خاص من المناجم والاراضى والمآوي والأيدى العاملة والنقود والاموال هو وهم خطر مخيف . فان هذا الرأسمال عديم القيمة من نفسه ويبقى كذلك عديم النفع مادام لوحده . والبلاد المحرومة من أهل الكفاءة محكوم عليها بالافلاس والخراب العاجل .

ان رؤوس الأموال عندنا تستثمر اليوم على أسوأ مايكون ، بسبب نوايا العمال السيئة والاعتصابات التى تتزايد يوماً بعد يوم . فان كل اعتصاب جديد أصبح يزيد في فقر البلاد ويزيد في غلاء المعيشة ويجعل المستقبل أكثر غموضاً وظلاما عن ذى قبل.

(٩ ـ اختلال التوازن)

على أن الاشتراكيين وحدهم الذين يسرون من هذه الحالة. ولكنهم سيكونون أول ضحاياها شأن المتطرفين في جميع الأطوار والأجيال.

* * *

أمام الايضاحات التي ذكرت حتى الآن والتي أصبحت من القواعد المقررة بشأن منابع الثروة، ليس لدى الاشتراكيين والنقابيين الذين وجدت بين أفراد كل فئة منهم عاطفة الانتقام التي يشعرون بها على السواء ما يقابلونها به سوى جملة تأكيدات وحجج واهية. ولقد نشرت (جمعية التضامن الاشتراكي في السبن) أيام الانتخابات الأخيرة البيان الآتي.

« في كل البلاد يوجد قوتان تتصادمان وتتعاركان وقد دبت فيهما روح الحركة على أثر بروز تلك الجمهورية الفتيــة لعالم الوجود جمهورية الاشتراكيين السوفيتية :

فئة العمال من جهة :

وأبناء الطبقة الاخرى من الجهة الأخرى .

في كل مكان يهب العمل فى وجه التطفل

فيجب أن يغلب التطفل وينـدحر »

من العبث ان يلح المرء فى الـكلام حول بيان وجه التأخر في أمثال هذه المدارك والعقول : تأخرها في مضمار النضوج والتقـدم

وبقائها في دور الطفولة من حيث الادراك بل كثيراً ما كان العالم ينقلب رأساً على عقب من جراء مزاعم من هذا القبيل

ان الالمانيين الدين اضطروا لتجربة مذهب جعل كل شيء مشتركا بين الناس تحت تأثير ضغط متطرفيهم عادوا فعدلوا عن تلك التجربة بسرعة

ولقد أنشأت جريدة دويتشه تاجس زايتونغ مرة مقالا جاء فيه « اننا مهددون بفوضى اقتصادية تماثل الفوضى السياسية الضاربة أطنابها في ربوعنا ، و بقدر الفرق الكائن بين النوعين من الفوضى سكون النتائج أعم بلاءاً وأسوأ وقعاً . ان صنف العمال سيشهد بنفسه نتائج الاخطاء التي ارتكبها ولكن بعد مرور مدة طويلة أي عندما يكون الوقت قد فات . على أن هذا الصنف ليس على وشك القضاء على مستقبل المانيا وعلى المنابع التي تعيش من ورائها فحسب بل سيقضي أيضاً على استعداداتها التي لا تزال تعد حتى الساعة أثمن من جميع علل غنائها وثرائها . » اه

***

إن توتر العلاقات بين مختلف صنوف الهيئة الاجتماعية التي أصبحت مصلحتها التامة منحصرة في الائتلاف ـ غدا من الخطورة بمكان . على أن السبب في انتشار روح الخلاف بين تلك الصنوف

يرجع لعاطفة الحسد والانتقام التي تشعر بها نحو بعضها أكثر مما يرجع للتضاد والتعاكس الكائنين بين مصالحها .

فالخلاف الحاصل بين أفكار تلك الصنوف نشأ بوجه خاص عن الجهد الذي بذله الساسة الاشتراكيون الذين ما انفكوا يثيرون عواطف طبقة العمال وكوامن صدورهم ويشجعونهم على التشبث بمطالبهم مهما كانت مستهجنة ومخالفة للصواب وما ذلك إلا لكي تصبح مقاليد السلطة في أيديهم كما أن جميع هؤلاء الساسة بدون استثناء أحد منهم كانوا يساندون ويدعمون جميع الاعتصابات لأن كل اعتصاب كان بمثابة مرحلة يتقدمون بها نحو اليوم الذي تستأثر فيه طبقة العمال بالحكم . ان الجمعيات ذات رأس المال تبدو لهم كأنها نوع من « المسوخ » [جمع «مسخ»] قدر له أن يهلك في القريب العاجل في سبيل منفعة طبقة العمال

ان الدمار الذي جره هؤلاء الساسة هو في نظرهم ضئيل الخطورة ولا شك . بل هم يدعون أنهم ساعون في سبيل إيصال العمال الى تقلد زمام الحكم والاستئثار به ، وهم لا يسعون في الحقيقة إلا وراء الاستئثار بالحكم المطلق لأنفسهم

ولو كانت التجربة قادرة على أن تعود بالعظة على الشعوب وأن تثقف عقول أفرادها وتنير أذهانهم إذن لاعتبرت تجارب مذهب جعل كل شيء مشتركا بين الناس وقد أجريت في الروسيا وافية كافية

فلقد جعلت السكك الحديدية والمناجم في الروسيا مشتركة بين الناس ولكن بالرغم من إجبار العمال على العمل مدة (١٢) ساعة يومياً فان ادارتها قد اختلت في برهة بضعة أشهر لدرجة أرغمت المستأثرين بالحكم على استدعاء الأكفاء الذين اقفرت الروسيا منهم من البلاد الأخرى وأن يدفعوا ثمن تلك الكفاآت ذهباً وهاجاً

ان من ادعى ميزات الايمان للعجب هو كونه لا يدع المؤمن يشعر بما حوله مما يغاير عقيدته ؛ ولم يعهد ارتداد عن دين الاشتراكية من الاشتراكيين غير المسيو أرليخ إذ أنه عندما عاد من الروسيا ورأى اتجاه العصبة الاشتراكية المتحدة شيئاً فشيئاً نحو البلشفية قدم استقالته من ذلك الحزب . وقد قال هذا (المبعوث) في كتاب استقالته ما يأتي :

« انى لا أستطيع أبداً أن أفهم كيف لا تجرأ العصبة الاشتراكية المتحدة على استنكار أعمال بلاشفة الروسيا المتناهية في التطرف والغلو وتقبيح افراطهم في ارتكاب ضروب الجنايات واتيان أنواع المظالم وكيف أنها عوضاً عن ذلك تقابل تلك الافعال بالاعجاب وتعتبر أنها أمثلة يجب على فئة العمال الفرنسيين أن تحتذيها .

في الواقع أن فئة النبلاء قد تلاشت من روسيا ولكن الصناعات

الوطنية الروسية قد هبطت مع تلك الفئة الى الحضيض فعاد ذلك على طبقة العمال الروسيين بالضرر الجسيم وعاد على الصناعة الألمانية التي أصبحت على وشك الحلول مكان الصناعة الروسية بالنفع العميم ان البلشفية لم تعرف توليد شيء سوى المجاعة والقحط في الروسيا التي كانت بالأمس أيضاً مورد غذاء لقسم كبير من أوربة . فالطرائق التي أتت بها الديكتاتورية الروسية جعلت فظائع عهد القصاص الهائل وأهوال العهد القيصري دونها بمراحل . ولقد استهدفت جميع الحريات الشخصية لأنواع الاعتداآت فلم يبق لها أثر . وفي كل يوم تساق الى طريق الأبدية المئات من العمال والمفكرين الروس من قبل نفر مأجورين من المجريين والصينيين بدون أي استجواب أو محاكمة ، ولا ذنب لهؤلاء سوى أنهم لا يفكرون كما يفكر البلاشفة . » اه

***

ان فوز البلشفيكي المسمى صادول بـ (٥٠) ألف صوت أيام الانتخابات التي جرت في فرنسة مؤخراً يدلنا على مبلغ رواج البلشفية بين أفراد الصنوف العاملة

واذا وهنت عزيمة الحكومات أثناء العراك الحالي أو القادم

الذي يهدد المدنية فانه ليس عليها إذ ذاك الا أن تتخلى عن الحكم لزعماء فئة العمال .

ومما يؤسف له أنه لايجب الاتكال في هذا الشأن على قوة الحكومة . فان قوة الرأي العام ستصبح أعظم فعلا من قوة الحكومة بما لا يقاس وأنجع تأثيراً . ولقد بلغ من حنق الجمهور على جماعة المشاغبين والمهوشين الذين كانوا يضحون بالمصلحة العامة فى سبيل أطماعهم الخاصة أثناء اعتصاب عمال السكك الحديدية العظيم ان رفض كثير من الباعة في الولايات كباعة مواد العطارة والخبازين بل وباعة الخمور ذاتهم ـ أن يبيعوا شيئاً من بضائعهم للمعتصبين .

ان التنبؤ عن النتائج الأخيرة التى تجرها هذه المعارك والمناوشات يكاد أن لايكون ممكناً . ونحن على يقين بأن الشعوب سيكون قيادها دوماً في يد نخبة أبنائها وخيارهم وصفوتهم . ولكن ذلك الفوز الموقت فوز العناصر المنحطة يجر الى بلاء وخراب ودمار يستحيل إصلاحه أو تلافيه كما هو جار في الروسيا وهنغاريا .

ان المساء العظيم يبدو لزعماء طبقة العمال قريباً جداً . وفي الحقيقة أن ليلا حالكا سيستولى بجيوش ظلامه على العالم بتحقق أحلامهم

الفصل الرابع

تجارب الاشتراكية فى بلاد مختلفة

ليس للتجربة فيما يتعلق بالعقيدة الدينية أى عمل أو تأثير على أرواح المؤمنين . فانه لمن المستحيل أن يدخل التبديل أو التحوير على ضلالهم وأوهامهم فهي باقية أبداً على حالها .

أما فيما يتعلق بالعقيدة السياسية والاجتماعية فانه ليس للتجربة أيضاً تأثير يفوق ذاك على الذين رسخ الايمان الأكيد بهما فى نفوسهم واستقر تماماً في قلوبهم . ولكنه من الممكن أن يكون للتجربة تأثير على الذين لم ترسخ العقيدة بعد تماماً في نفوسهم ولا يزال الشك والتردد يخامرانها .

ان من الأوصاف التى تميز الزمان الحالي عن غيره هو انحلال الرابطه التى كانت تجمع بين عناصر القواعد أو المبادىء القديمةالتى قام على أساسها كيان الجمعيات البشرية . فان القلاقل والاضطرابات

على اختلاف أنواعها التي ولدتها الحرب من شانها أن تديم هـذا الانحلال كما أنها ولدت في نفوس الخلق أنواعاً جديدة من الأهواء والميول وجعلت قلوبهم تتوق الى أمور لم تتق اليها من قبل

تنقسم الأفكار المسيطرة على عقول الناس اليوم الى نوعين من الميول والأهواء يناقضان بعضهما بعضا على خط مستقيم . فمن جهة تسيطر فكرة القوميات وما يتعلق بها من الشعور بالحاجة الى التفوق الدولي ، ومن الجهة الأخرى تسيطر الفكرة التي ترمى الى تأسيس الأخاء العام على الأرض بين سكان المسكونة أجمعين

ان فكرة القومية التي تعد الوطنية نوعاً من أنواعها هي عند القابضين على زمام الامور في الحكومات بأجمعهم بمثابة ضرورة تاريخية ، أي أنهم يعدونها من مقتضيات التاريخ فان التاريخ يرينا في الحقيقة أن فكرة حب الوطن كانت دوما من قوى الشعوب التي يعتد بها ، وان طروء الضعف على تلك الفكرة يسجل على الشعوب الانحطاط والتدني ويكتب لها الاضمحلال والفناء .

أما فكرة الدولية أي الأخاء العام بين سكان المعمور أجمعين التي تنادي بها طبقة العمال خصوصاً فهي ناشئة عن أهواء في النفس تخالف تلك الميول تماما . إذ أنها تنادي بطرح فكرة الوطنية جانبا وترغب في مزج الشعوب بعضها ببعض بدون اكتراث بل بدون الشعور

بما هنالك من اختلاف فى العقليات وتضارب فى المصالح اللذين من شأنهما التفريق بين الشعوب .

في الزمن الذي يصبح فيه المسيطر على العالم ليس شيئا آخر سوى الاحكام العقلية البحتة والحقائق الناصعة المجردة تمام التجرد عن كل ميل وهوى والذى يحتمل أن يكون بعد قصيا للغاية ـ في هذا الزمن تغدو الفكرة الأخيرة فكرة الأخاء العام بين سكان العالم كاملة خالية من كل شائبة، خالصة من كل عيب . لأنه عدا عن هذا الشعور الغامض الذي يدفع صنوف العمال فى مختلف البلاد نحو التآخي ، فقد رأينا أن النهضة الصناعية في العالم تقود الشعوب نحو القرب من بعضها وتوثق عرى الارتباط بينها شيئاً فشيئاً حيث يظهر لها من ثمّ ضرورة التعاون والتضامن عوضاً عن التطاحن وأفناء بعضها بعضا .

ان هذه الضرورة لا تزال في يومنا هذا عبارة عن حقيقة معطلة عديمة التأثير لأنها تتصادم مع العواطف والميول والأهواء التى هي اليوم دليل الشعوب الوحيد وقائدها الفذ فى معارج الحياة .

***

وعلى ذلك فان الحكومات الحديثة تجد نفسها اليوم أمام اختلاف بين نظريتين على طرفي نقيض من بعضهما . إما بمناصرة الدولية

التى تمثل المستقبل وذلك يتطلب نزع السلاح من ايدى الشعوب، أوترويج فكرة القوميات التى تتطلب زيادة التسليح ليصبح خطر التعديات مضموناً معما في زيادة التسليح من النفقات الباهظة والمصاريف الطائلة التى تنوء تحت عبئها الأمم والشعوب

إن العراك بين هاتين النظريتين المختلفين عن بعضهما تمام الاختلاف يحتم على رجال الحكومات اتباع سياسة خاصة في كل يوم على حدة، لأنهم لا يستطيعون معرفة شيء من أمر غدهم المجهول. وكذلك فان عامة الخلق الذين فقدوا الثقة بزعمائهم يذعنون للغرائز الأصلية التى تعود للظهور دوماً عند ما تتزعزع أركان النظام القديم لاحدى الجمعيات البشرية تزعزعاً عنيفاً.

إن التقويض الذى لحق برموز الآلهة ولؤم أو دناءة الذين انتخبهم الشعب — حمل الخلق على الاعتقاد بأن العالم يجب أن يكون ملكهم. فالقوة هي اليوم القانون الوحيد الذي يذعنون له

لقد لاحظت إحدى الصحف الانكليزية زمن اعتصاب عمال المناجم الذي كاد يقضي على حياة بريطانيا العظمى — ان العقود (كونترات) المعقودة بين أصحاب العمل وممثلي العمال كانت تخرق بلا انقطاع من قبل هؤلاء الاخيرين عند ما كانوا يجدون في خرقها منفعة لهم و بمقتضى المبدأ الاساسى القائل بأن قوة المجموع تخلق له حقه. على أن هذا الحق هل يخلق — بدوره — الكفاءة التى تتطلبها

النهضة الصناعية ؟ ان تجارب جعل الحكومة بيد جمهور الناس التى أجريت مؤخراً تستطيع الاجابة على هذا السؤال

لما كانت جميع التأكيدات التى يصرح بها جماعة الاشتراكيين قد دحضت ونقضت منذ زمن بعيدوهي مع ذلك لم تتأثر ولم تتزعزع فقد أصبح من الضروري تحقيق تجربة الاشتراكية . ولقد حققت تلك التجربة مؤخراً في بلاد مختلفة بصورة حاسمة نهائية . اما نتائجها فهي معروفة لدرجة يمكننا أن نقتصر معها على تذكير القاريء بها تذكيراً بدون أن نعمد الى الاسهاب أو التطويل

***

بالرغم من أنه لم تكن الاشتراكية الكاملة هي التي جربت في مختلف الحكومات فان بعض الشعوب سيما فرانسة قد أصبحت منذ زمن بعيد خاضعة للاغراض الاشتراكية في البرلمانات على أن هذه الأغراض الاشتراكية كانت تصطدم دوماً بمرانه وعوائق بعضها متولد عن بنية أي خلقة المرء النفسية والبعض الآخر ناشيء عن الضرورات الاقتصادية الحديثة . فهذا الاصطدام بين النظريات الخيالية و بين القوانين الطبيعية الممكنة قد كلف عماً باهظاً

إن النتائج الاساسية للنفوذ الاشتراكي البرلماني في مختلف البلاد تنحصر في جعل الكثير من الصناعات تحت إدارة الحكومة الجماعية أي جعلها ملكا للحكومة . وقد أعيدت هذه التجربة مثامرة فكان يظهر أنه ليس من ورائها إلا الدمار والخراب

واذا كانت هذه النتائج واحدة لم تتغير في كل البلاد وفي جميع الصناعات فليس ذلك إلا لأن ادارة الجماعات وسياستها في تدبير الأمور من شأنها أن تقضى على أعظم القوى النفسية تأثيراً والتي هي أصل النشاط البشري وهي: المنفعة الشخصية، الشعور بالمسؤلية المبادهة أي التقدم بالرأي ؛ الادارة وبكلمة واحدة: العناصر المولدة لجميع أسباب الرقي والتقدم التي تطورت بها الحضارات

***

إن النتائج التي تولدت عن الميول الاشتراكية تساعد منذ الآن على التنبؤ والاستدلال على النتائج التي تولدها اذا أصبح نجاحها في يوم من الأيام تاماً

لقد تنبأ كثير من المتأملين المتبصرين عن المصائب والنكبات التي يولدها نجاح الاشتراكية الكامل . ولقد كان يمكن الارتياب بخطورة هذا التنبؤ وقتئذ لأنه لم تكن تحققت بعد تجربة من التجارب تحققاً كاملا يساعدها على اثبات صحته ودعمه

أما اليوم فقد أجريت تلك التجارب من قبل عدة شعوب وكانت النتيجة واحدة في كل مكان

لو لم تجر هذه التجربة في غير روسيا لأمكن القول بأن تجربة تجري على شعب نصفي التمدن لا تعتبر نتائجها برهاناً قاطعا وحجة دامغة ، و بأن التجربة التي تجري على شعب بلغ قسطاً وافراً من

الثقافة هى التى يمكن اعتبار نتائجها من البراهين المقبولة فقط . من أجل هذا ان تجارب الاشتراكية التى تكالت بنجاح موقت في المانيا وهنغاريا وايطاليا لها خطورة عملية من الأهمية بمكان .

ولقد وجدت المانيا نفسها في اليوم التالي لانكسارها في دور تقلقل وتبلبل، وكانت تسير على غير هدى وتتلمس الطريق تلمسا ولما كانت الحرب قد أظهرت لها الأخطار الكامنة في المبادىء التى بنت عليها بأسها وسلطانها فقد أصبحت بطبيعة الامر مضطرة للتفتيش عن غيرها

ولقد عرضت الاشتراكية نفسها بل جعلت نفسها تقبل قسراً لأجل ترميم البلايا والرزايا التى جرها الحكم العسكري ولما كانت المانيا لم تجد أحسن منها فقد قبلت أن تجربها وتمتحنها

فنقلبت عليها حينئذ جميع أشكال الاشتراكية من البلشفية المتطرفة بسوفياتها وما تستند اليه من النهب والسلب والتقتيل والذبيح الى الاشتراكية المعتدلة المتجردة الا عن بعض قوانين من قوانين المذهب الاشتراكى

عند ما منيت المانيا بالانكسار كان أول ما حدث أن طرأ انقلاب عنيف على السلطة التى يرجع العهد بتوليها زمام الامور لاجيال كثيرة والتى كانت تدير أمور الدولة المتحدة المختلفة التى تؤلف الامبراطورية فسقطت عن عرشها وهبطت من قمة مجدها

في هذا الدور الأول كان الظفر حليف الأحزاب المتطرفة وتولى البلاشفة الذين يعرفون باسم (السبرتكيست) زمام السلطة بضعة أشهر وأصبحوا بفضل النهب والسلب وهدر الدماء حكاماً للبلاد وبعد ذلك شادوا بناء عهد استئثار طبقة العمال بالحكم

ولقد أسس العمال فى كل مكان المجالس والمؤتمرات تشبهاً بجماعة السوفيات في الروسيا . فكان من جراء ذلك أن عمت الفوضى بطبيعة الحال كل مكان كما حدث فى روسيا

ولقد تكلمت إحدى الصحف الالمانية الكبرى عن هذا العهد الاشتراكي وأوضحت النتائج التى تنتج عنه أيضاحاً وافيا في الخلاصة التالية التى اقتطفها عنها ، قالت :

« إن اختلال النظام قد جعل الميراث القومى الألمانى ذلك الميراث الذي كادت أربع سنى الحرب لا تقوى على النوال منه — عرضة للخطر . فان الضرائب واستصفاء الأموال أي ضبطها واحتكارها قد سببت انتقال رؤوس الأموال الى الخارج انتقالا لا ينجح معه دواء ولا يقوى أي تدبير من تدابير (الضابطة) ووسائطها على ايقافه والحيلولة دون انتقاله . أما العقارات والفبارك وما تحويه من مكنات فانها تباع للأغراب بأثمان بخسة بالنظر لأنها لا تستطيع الجلاء عن البلاد . وهكذا فقد ابتاع الانكايز عدة مناجم في حوض الرور كما أن المصرف النيويوركي المعروف باسم (ناسيونال بنك) قد حط

رحاله في برلين وفي غيرهـا من المدن الألمانيـة الـكبرى واستقر فيها . » اهـ

***

إن هذا الدور لم يطل أجله . لأن الديكتاتورية الشيوعية قد أظهرت عجزها وعدم كفايتها بسرعة كما كان من أمرها فى الروسيا

على أن هناك في الأصل سبب آخر وهو سبب نفسانى يكفي وحده للحيلولة دون استمرار أجل ذلك الدور ولو لم يحل دون ذلك ما كان من أمر الديكتاتورية الشيوعية . أما هذا السبب الأساسى الذي لا تقوى عقول الاشتراكيين على ادراكه فمن الممكن تلخيصه بالقانون الآتى :

أي كانت الانظمة التى يجبر أحد الشعوب على قبولهـا أو التى يقبـل بها هذا الشعب من نفسه لأجل معين لابد أن تستحيـل من شـكل الى آخر فى مدة وجيزة بحسب عقلية ذلك الشعب .

إن استحالة كهذه يلاحظ حدوثها في جميع عناصر الحضارة من دين ولغة وفنون وصناعات . ولقد كرست فيما مضى مؤلفاً خاصاً وقفتـه على اثبات هـذا الـقانون الذي هو مسيـطر على السياسـة والتاريخ(١)

(١) سر تطور الأمـم أو تطور الأمم وقوانينه النفسـية . (الطبعـة الخامسة عشر) .

ولقد استحالت الاشتراكية الالمانية بسرعة من شكل الى آخر بتأثير ذلك القانون .

ويستطيع المرء أن يرى هذه الاستحالة عند مايتحقق له ماستؤول اليه الانظمة السوفيتية مثلا أو بعبارة أوضح مؤتمرات العمال التى هي الركن الأساسى فى صرح البلشفية

لقد نصت إحدى مواد (القانون الأساسى) الجديد على تأسيس مؤتمر للعمال « لأجل الدفاع عن مصالح العمال الاقتصادية . وأن الحكومة مجبرة أن تعرض عليه ، من باب الاستشارة ، جميع لوائح القوانين مما يتعلق بالشؤون الأقتصادية »

فيتضح للقاريء أن (السوفيتية) التي استحالت على هـذا الشكل ليست أبداً دائرة من دوائر الحكومة طالما أنها أصبحت استشارية فقط .

ان أنظمة السوفييت الروسيين مختلفة تمام الاختلاف عما سبق . اذ أن الالوف من مؤتمرات أومجالس العمال الصغيرة يجب عليها من الوجهة النظرية على الأقل أن تدير الشؤون المحلية .

على أنه قد ظهر في الاصل أن مثل هـذه الانظمة لايمكن تطبيقها إذ أنه لما كان كل مجلس من المجالس السوفيتية يعد نفسه مستقلا تمام الاستقلال فقد أصبحت ارادة كل سوفيتي

محلي مما يعرقل أهواء السوفيتيين الآخرين .

وحقيقة الأمر أن السوفيتية الروسية كانت تمثل أحط أطوار الجمعيات الاولية تكاملا ولم يعد هذا الحال من الانحطاط في الواقع مشهوداً الا لدى القبائل المتوحشة .

***

بعد أن تملصت المانيامن البلشفيةوالسوفيتية أصبح عليها أيضا أن تحارب بعض الاغراض التى كان الاشتراكيون يحاولون التوصل اليها . فقد كانوا يريدون بوجه خاص أن تستصفى الحكومة الاموال وأن تضع يدها على الأملاك الخاصة وعلى جميع معامل الانتاج ، وان تتولى هى أيضاً أمر أيالاتها وادارتها

ان محاربة الحكومة الالمانية للاغراض التي كانت ترمى الى جعل كل شيء مشتركا بين الناس قد امتد أجلها حتى اليوم الذى أدرك فيه الجمهور أن فكرة جعل كل شيء مشتركا بين الناس تستند على قواعد نفسية باطلة وان تحققها اذا عم كل مكان يفضى الى خراب البلاد وافلاسها الاقتصادي .

أمل رجال الحكومة الالمانية أن يرضوا جماعة المستمرين علي المعارضة من الاشتراكيين فاستمروا على تأييد مبدأ جعل كل شيء مشتركا بين الناس فى خطبهم ومحاضراتهم ، ولكنهم لم يفكروا

بتطبيق هذا المبدأ اللهم الا على بعض الحرف التي يمكن أن تصبح (مونو بولات) منتجة للحكومة كما هو شأن مصلحة التبغ في فرنسة مثلا.

أما الصناعات الأخرى فان الرأي العام بشأنها قد تمثل أتم تمثل في الفقرة التالية التي وردت في احدى الصحف الالمانية :

« . . . . اذا امتدت يد الاشتراكية للفحم والحديد فانها تكون قد استولت في الوقت ذاته على جميع الصناعات الاخرى . واذ ذاك تزول المنافسة الحرة والكفاآت الشخصية ، في حين انه يجب أن لا يغرب عن ذهننا أن تولي الحكومة أمر الحرث أو التعدين أو غيره من الاعمال يزيل المنافسة التي لا تعيش الاعمال بدونها ويدعو لنفقات طائلة ويحول دون الاصدار . أما النشاط الخاص ، والمنفعة الشخصية فانهما على العكس من ذلك من القوى العظيمة التي لا يلحقها الفناء والتي تحمل الطبيعة على اخراج كنوزها الدفينة من أعماق منابعها وتعود على الشعب بالثراء العظيم والحظوة والاعتبار . » اه

ان أعظم رجال الحكم في المانيا تشبعاً بالمبدأ الاشتراكي هم أنفسهم يعترفون بأن الصناعات وتجارة الاصدار يجب أن لا تتأثر بمبدأ من مباديء الاشتراكية بل يجب أن تبقى حرة تماما .

ان البلشفية لم تجرب في روسيا والمانيا فحسب بل لقد جربت في هنغاريا ايضا .وأما الطرائق التي اتخذتها في هذه البلاد الاخيرة

فقد كانت نفس المناهج التي سارت عليها فيما سبق اى هي عبارة عن قتل ارباب الحرف ونهب المصارف واستلاب الثروات الخاصة واجبار الاغنياء القدماء علي ممارسة الاعمال اليدوية ! وهكذا فقد صودرت المساكن الخاصة وتركت غرفة واحد فقط لصاحبها القديم اما الغرف الاخرى فقد وضعت تحت تصرف العمال .

ان الأنظمة الاجتماعية التى قامت عليها البلشفية الهنغارية قد اقتبست عن أنظمة البلشفية الروسية ، وعلى ذلك فقد وجد على رأس القائمين بهذه الأنظمة ديكتاتور يأمر بالنهب والسلب ويفرض أنواع التنكيل والتعذيب .

ولقد أفضت طريقة الحكم هذه بطبيعة الحال الى النتائج نفسها التى أفضى اليها تطبيق تلك الطريقة في الروسيا ، وهكذا فان جميع المعامل والمصانع رأت نفسها بالتعاقد مضطرة لاغلاق أبوابها ، وعم البؤس والشقاء كل مكان .

ففي ذلك الحين أصبح القوم يعتاشون (بالأكوام) التى تكدست عند ما كانت البلاد تدار بطريقة الحكم السالفة وعند ما نفدت تلك المواد جاء دور الهزيمة . وهناك بعض أسباب بقيت مجهولة لو لم يطل بسببها أمد معاكسة دول الاتفاق في شأن تدخل سكان رومانيا الذى كان الشعب الهنغارى يهتف له من صميم فؤاده وبملء

اختياره ولولا ذلك لدام أجل الحكم الشيوعي مدة وجيزة للغاية . على أن دعائمه قد تقوضت عند مااقتربت بعض الفرق العسكرية من العاصمة .

***

لقد كان يبدو على بلاد الانكايز أنها في حالة مقاومة الأمواج التى تحمل بين طياتها روح الثورة والتمرد ستفوق البلاد الأوربية الأخرى . لكن البلشفية قد لاقت فيها مع ذلك بعض النجاح بفضل المبالغ الطائلة التى بذلت في سبيل بث الدعوة (البروبغنده)

ويظهر أن جماعة المعدنيين قد سرى بينهم ذلك المرض أكثر من غيرهم ، فان توعداتهم وتهديداتهم أصبحت متواصلة متتابعة لايلحقها فتور ، وهم يطالبون الآن بجعل المناجم ملكاً مشتركا بين الناس وهذا يدل على أنهم يريدن أن يختصوا أنفسهم بجميع الأرباح التي تأتي من وراء بيع الفحم ، على أن تبقى نفقات التعدين على عاتق الحكومة

هذا وان بعض متطرفي الانكايز قد ذهبوا الى أبعد من هذا المدي : فقد ادعوا أنهم يجبرون رئيس وزراء الانكايز على الاعتراف بالحكومة الروسية السوفيتية وعلى منع فرنسة من مد يد المعونة الى

بولونيا التي يهددها جيش روسى ، ان نفوذ هؤلاء وحده يمكن أن يفسر سلوك الحكومة الانكليزية في هذه الحالة الأخيرة

على أن ادعاآت المتطرفين هذه قد أثارت في الأصل روح المعارضة القوية في انكلترة

وقد كتبت جريدة (التيمس) مرةمقالا جاء فيه « أن الشعب الانكليزي قد كان في جميع أدوار حياته يحفظ فيقلبه الكره والمقت الشديدين للاستبداد مهما تنوعت أشكاله وألوانه ، فكما أنه لا يحتمل الاستبداد المخالف لروح الدستور اذا كان مصدره الحاكم فهو كذلك لا يحتمله اذا كان صادراً عن جمعية من جمعيات العمال الدائبة وراء السلامة العامة »

ان هذا الأمر يجب أن يكون من الأمور المأمولة المنتظرة ولكن الحقيقة هي أنه ما من أحد يفقه من كنهه شيئاً ، ان العدوى العقلية يمكن ايقافها عند حدها ، ولكن بقدر مايستمر أمد بقائها يجب أن نقاسى من ورائها الخسارات الفادحة والأضرار الجسيمة

والأمر الذى يبدو اليوم على غاية من الوضوح هو أن بعض انقابات الانكليزية تتوق الى ربط كتلات العمال بالحكومة البلشفية في موسكو ، من كان يستطيع التنبؤ وقتئذ أن انكلترة تلك

البلاد ذات المبادىء الحرة والتي اشتهرت بتمسكها بالتقاليد ستصل يوماً الى ما وصلت اليه اليوم ؟

***

ان فرنسة هي أيضاً حتى اليوم من البلاد التي فاقت غيرها من جهة الدفاع عن كيانها أمام التطرف الاشتراكي وغلوه ، ومع ذلك فان العقيدة الاشتراكية مستمرة على التقدم والنجاح فيها

ان الحزب الاشتراكي الذي بلغ مابلغ من الأضرار بنا قبل الحرب عند ماشل حركة التسليح والاستعداد للحرب عندنا لدرجة جعلت المانيا تظن أن باستطاعتها مهاجمتنا دون أن تتجشم المخاطر نقول أن ذلك الحزب آل به الأمر أخيراً الى قبول المبادىء الشيوعية على علاتها (بدون استثناء شيء)

ولكي يستعيد هذا الحزب ما كان له من نفوذ وسلطة تراه يدأب على بث الأوهام والخيالات المريعة في نفوس جماهير العامة

على أن الذين يعرفون قوة الاتحاد والتكاتف ليسوا مع الأسف سوى تلك الفئة التي تمثل قوى الطبقات المنحطة ، أما فئة المتنورين الذين هم أقوياء عقلا وإدراكاً فيبدوا عليهم عدم الاستعداد لممارسة الأشغال العملية أي اليدوية وبالتالي فان باعهم قصير في ميدان الدفاع عن النفس ، في حين أنه يكفي لانقاذ البلاد من خطر

الاشتراكية وجود بضعة أشخاص من ذوي المقاومة والجلد ، ولقد قدمت ايطاليا على هذا مثلا يخلده لها التاريخ بالاعجاب والتقدير

***

لقد قامت الاشتراكية في ايطاليا مدة من الزمن بنفس أعمال الافناء والتخريب التى قامت بها فى غيرها من البلاد التي نفذت اليها

فلما رأى الاشتراكيون الايطاليون أن مبادءهم عاشت في ايطاليا مدة بضعة أشهر خيل اليهم أن نجاحهم غدا باتاً قاطعاً ، فاستولوا على دور البلديات فى بعض البلدان وطردوا أصحاب المعامل وشرعوا في أعمال النهب والسلب وا قتل والتنكيل تبعاً للطريقة العامة التي تجرى عليها الاشتراكية الظافرة ، أما الحكومة فقد ارتعدت منها الفرائص أمام بأس هؤلاء وغدت تذعن شيئاً فشيئاً لما كانوا يدأبون على مطالبة به

على أن شدة التطرف أحدثت بعد قليل رد فعل . فقد هب حزب الفاشستيين الجديد الذي هو مؤلف بوجه خاص من قدماء المحاربين — في وجه الاشتراكية و بعد كفاح دام برهة وجيزة حالفه الفوز أودي بالشيوعية الى حالة بينة من العجز ووهن العزيمة

ان الفاشستية قد ظفرت لا لسبب آخر سوى أنه كان على رأسها رجل من أولئك الافذاذ الذين يتصفون بالعزم والحزم والجرأة النادرة

والذين يندر اليوم وجود نظيرهم بين القابضين على زمام الحكم في العالم .

لقد كان هذا الزعيم — وهو المسيو موسوليني ؛ حائزاً على خاصتين من أعظم الخصائص التي يكتسبها المرء من وراء الدراسة في الكتب وهاتان الميزتان إحداهما في طبعه أي في سجيته والاخرى في محاكمته وملاحظته

إن الاطاح التي هزها السنيور موسوليني من أركانها فجعلها تتحد وتنجذب بأن أرجع الامور الأدارية الى حالة بسيطة للغاية والتي في تشبكها الذي يزداد نمواً يوما فيوما ما يهدد حياة الجمعيات البشرية الحديثة — أمام تلك الاطاح المتحدة المتماسكة ربما غلب الديكتاتور موسوليني على أمره في نهاية الأمر ولكنه يترك وراءه عملا على غاية من النفع

ان أعظم مزية للمسيو موسوليني هي رغبته في هدم أركان طريقة الايتاتيزم الاقتصادية التي يدافع عنها الاشتراكيون بكل ما أوتوا من قوة [أو بكل حرارة ورغبة كما يقول الفرنسيس) والتي ترزح اليوم كثير من البلاد تحت عبثها الثقيل

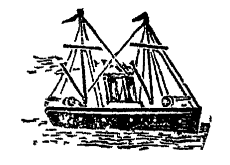
ولقد بسط آراءه بصراحة ووضوح تامين في احدى خطبه التي ألقاها أمام ممثلي الغرفة التجارية الدولية في روما واليك بعض النبذ من ذلك الخطاب :

« إن المباديء الاقتصادية التي ترغب فيها الحكومة الايطالية الجديدة بسيطة . وأنا أعتقد أن الدولة يجب أن تعدل عن الوظائف الاقتصادية سيما ما كان منها من جنس (المونوبول) تلك الوظائف التي كثيراً ما أظهرت الدولة عجزها عن ايفائها حقها . وفي يقيني أيضا أن حكومة تتطوع لتخفيف الارتباك الذي ألم بجماهير الناس من جراء الأزمة التي دهمتهم بعد انتهاء الحرب فيجب أن تدع للاجتهاد الشخصي الحرية العظمى ، وعليها أيضا أن تعدل عن جميع القوانين التي من شأنها التدخل في الشؤون ووضع العراقيل والعوائق في سبيل الأعمال . فهذا العدول يستطيع ولا شك إرضاء حزب اليسار المتعصب النظري (ثورة الشعب) في البرلمان ولكن ليس من ورائه — كما أظهرت التجارة — إلا الحاق الضرر البالغ بالمصالح الاقتصادية و غوا... الاقتصادي

انا لا أعتقد أن مجموعة تلك القوى التي يمكن أن تسمى سواء في الصناعة أو الزراعة أو التجارة أو المصارف أو في أعمال النقل بكلمة إجمالية وهي (رأسمالية) على وشك الزوال والاضمحلال كما يؤكد ذلك بعض أهل النظريات من غلاة الاشتراكيين ومتطرفيهم و لاغتباط بملء أشداقهم . منذ زمن بعيد أثبتت التجربة التي حدثت أمام أعيننا والتي هي من نوعها أعظم ما عرف التاريخ بصورة غاية في الوضوح أن جميع القواعد الاقتصادية التي تغفل شأن الاجتهاد

الشخصي الحر والنشاط الذاتي عرضة في أجل قريب لافلاس هو على كل الأحوال مدعاة للحزن على الاجتهاد الشخصي لا يحول دون توحيد الصفوف . و بقدر ما يكون الدفاع عن المصالح الذاتية مشفوعاً بالامانة والاخلاص يصبح الاتحاد أقرب منالا وأسهل حصولا » اه

ولقد استنسخت هذه الكلمات لانه لا يمكن التعبير عن الحقائق الناصعة التي أدافع عنها منذ زمن بعيد بأصدق وأوجز من هذه الصورة . ان وجود رجل في أوربة بلغ من كفايته وقوة عزمه ما جعله ينهض لتطبيق تلك الحقائق لما يدعو للاغتباط . واذا قدر النجاح للعمل الذي قام به فيكون قد ساعد على انقاذ حضاراتنا من خطر الاشتراكية الذي يتهددها بخراب وتهديم لن تقوم لها بعده قائمة



الكتاب الثالث

عدم التوازن المالي ومنابع الثروة

الفصل الأول

فقر أوربة في الزمن الراهن

ان جميع القابضين على زمام الامور في الحكومات المختلفة سيما منهم حكام الامبراطورية البريطانية لايفتأون عن طلب اعادة بناء الصرح الاقتصادي في أوربة وتجديد أركانه .

فكي تمكن معرفة السر في هذا التجديد قد المأمت (دزينة) من المؤتمرات كانت عقيمة بصورة تدعو للحزن والرثاء .

ان الوزير الانكليزي السابق المستر لويد جورج الذي هو صاحب مشروع هذه المؤتمرات الحقيقي والحاث الفذ على عقدها كان ينسى دوما في جميع خطبه التي لايحصيها عد أن يجهر بالدستور الذي وجد لأجل ذلك التجديد . لكنه في خطبه التي القاها كان

يطلب و يلح في الطلب الحاحا مشفوعا بالعند والصلابة أن تتنازل فرانسة عن قسم من مال التعويض الذي لها على المانيا بل أن تؤجل قبض هدا المال كلما حل موعد دفعه المرة تلو المرة الى أن تسأم التأجيل والتسويف فتتنازل عنه بكامله .

ولقد احتاط هذا لوزير اللبيب للأمر فاجتنب عرض أي دستور يسير بموجبه القوم عندما يقومون لتحديد كيان أوربة الاقتصادي، اذ لاشك بأنه لم يكن يجهل أن مثل هذا الدستور لاوجود له .

ان تجديد الكيان الذي يطلب القيام به يتعلق في الحقيقة بتوفيق الاعمال توفيقاً لا يمكن البت بكيفيته مع بعض الضرورات الاقتصادية التي هي من البساطة بمكان عظيم ولكنها لاتلقى بوجه عام أي اهتمام أو أعتبار

ان قوة هذه الضرورات تظهر بوضوح عندما تستقصى أسباب الفقر الذى كانت بلاد كثيرة في أوربة من ضحاياه والفوضى التي ولدها

(١) المنابع الحقيقية للثروة

ماذا يعنى البرنامج الذي ينص على « أعادة بناء صرح أوربة الاقتصادى » والذي ماانفك سامنه الجيل الحالى عن ترديده لحظة واحدة ؟ ألا يمكن تفسيره بكل بساطة بهذه الحقيقة التى تنص على أن الامم لاتستطيع الحياة بدون أن تؤسس بين المحصولات التى

تنتجها وبين المواد التي تستهلكها وتفنيها بعض المناسبات والروابط؟

أن ثروة البلاد والعالم على حالته الراهنة أصبحت بوجه خاص تتعلق بكمية المحصولات التي ينتجها الشعب من تربة البلاد أو من معاملها. والذي يفضل مما تنتجه عما تستهلكه بوسعها أن تبادله في الخارج مقابل المواد الضرورية لاغراض الحياة مما لا تنتجه أرضها.

ان الانتاج بسعر يجعل الاصدار ممكناً ليس هو كل ما يطلب بل يجب علاوة على هذا ايجاد مشترين لذلك المحصول إذ ان هذا الامر من العوامل الجوهرية في القضية. فاذا كانت البلاد تصنع من المواد كمية تزيد على الكمية التي تستطيع بيعها فان معاملها تضطر لان تحدد الكمية التي تنتجها فيقع العمال في أزمة من البطالة بنتيجة ذلك كما هي الحالة التي وقعت فيها انكلترة تماماً فقد غدت (انكلترة) تفتش عن زبن حتى في الروسيا

ان هذه الضرورات التي تقضي بالمبادلة التجارية تظهر مرة أخرى مبلغ ارتباط الشعوب ببعضها. كما انها تظهر أيضاً أي الاوهام تضل فيها على غير هدى تلك البلاد التي تجعل بلادها مكتنفة بسياج من الجمارك. والعالم اليوم في هذه الحالة من الفقر والفاقة بحجة أنها تريد حماية صناعاتها الوطنية فهذا لعمل السيء لا يتأتى عنه

بالمقابل سوى نتائج سيئة أيضاً لاتلبث ان تصيب الصناعات المحمية بالشلل فى آخر الامر فتقضى عليها شر قضاء

***

ان منابع الثروة التى ألمعت اليها فى الأسطر السالفة توضح بسهولة لماذا وقعت بعض الشعوب كالنمسا مثلا في وهدة عميقة من البؤس . إذ أن الكيلوغرام من الخبز الذي كان يباع في « فينا » ذاتها ، (٥٠) سنتيما فيما مضى ــ عند مايغدو ثمنه اليوم ستة آلاف فرنك تقريباً فهذا لايدل على أن الثقة بالأوراق المالية التى أصدرها المصرف النمساوي أصبحت ضعيفة للغاية فحسب بل يدل أيضاً و بوجه خاص كذلك أن (قابلية) الانتاج عند العامل النمساوي غدت أحط بكثير مما يكفي لتعويض الكمية التى تقضى الضرورات باستهلاكها . فمن الوهم إذن أن نظن ــ كما كان من أمر جمعية الأمم أن مثل تلك الحالة يمكن أن تتحسن عن طريق اقراض النمسا بعض المبالغ من المال .

ليمنح رجال الحكم في النمسا سلطة تكفي لأن تساعدهم على انقاص المبالغ الهائلة التى تنفقها دواوين الحكومة والتى تكاد تبتلع كامل دخل الحكومة إنقاصاً عظيما وليحمل العمال على تزييد الكمية التي ينتجونها باعطائهم أجوراً مناسبة، فعندذلك نكون قد أوجدنا

لكل من هذه القضايا أنجع حل وأحسن تدبير. وفي استطاعتنا أن نتحقق سلفاً أن القروض المالية لن تنجع في رتق ذلك الفتق بوجه من الوجوه . فعبثاً رددوا على الاسماع مالهذه الطريقة من التأثير الناجع .

يستنتج مما سبق أن الشعب الذي نقد العملة والنقد ولكن باستطاعته أن ينتج من أرض بلاده ومعاملها المواد الضرورية للقيام بأود حياته ولصنع البضائع التي تتيسر مبادلتها بغيرها - يمكن أن يصبح أغنى بكثير من الشعب الذي يملك بعض الذخائر من الذهب أو من الفضة ولكنه لا ينتج سوى كمية غير كافية من البضائع . إذ أن الذخائر المعدنية تنفد بسرعة إذا لم تعوض . ان الفقر الذي أصاب الاسبانيول الذين كانوا يظنون بأنهم أغنياء لأنهم امتصوا كل الذهب الموجود في أميركة هي مثال جلي في هذا الصدد .

أما المانيا فهي على العكس من ذلك عبارة عن شعب قد أضاع الذهب الذى كان موجوداً لديه ؛ لكن موقفه الاقتصادي مع ذلك لا يزال على ماهو عليه من الجودة بفضل المحصولات التي ينتجها .

ان هذه الطريقة التي تكون بها الثروة عن طريقي الانتاج والمبادلة تتصادم اليوم ببعض عوائق مختلفة وهي عوائق صناعية في أغلب الأحيان لكنها تبعث على الخوف والرهبة دوماً :

فالعوائق من الدرجة الأولى هي أن عدد المشترين قد نقص نقصاً جسيما في جميع أقطار العالم. ففي النمسا والروسيا لم يبق من مشتر، أما البلاد الأخرى من العالم فقد قل فيها عدد المشترين .

وعدا ذلك فان إصدار البضائع بسعر يساعد على بيعها قد أصبح عسراً تبعاً لسقوط قوة ابتياع العملة في عدة بلاد كفرنسة وايطاليا مثلا

وهكذا فانه لأجل الحصول في انكلترة أو في أميركة على بعض الكميات من المواد الاولية التي يساوي ثمنها في فرنسة مئة الف فرنك تقريباً من الضروري إنفاق مبلغ ثلاثمائة فرنك على وجه التقريب . ولما كانت كلفة المواد بهذه الدرجة من الارتفاع فان أمر بيعها يصبح عسراً . كيف لا وان المشتري هو في الأصل في حالة ضيق شديد بسبب مؤنه . اذ أن التبدلات الدائمة التي تطرأ على قوة ابتياع عملته تجعله عرضة للخسارات الجسيمة في حالة ادخاره لمبلغ كبير من العملة أو في حالة تعامله بالعقود التجارية ذات الأجل المعين

فيرى من هذا أن الامم أصبحت اليوم أمام شروط صعبة لكي تضمن لنفسها البقاء ودوام العيش بسبب الاضطرابات التي تكلمنا للقارىء عنها .

ان الشعوب الزراعية التي كانت تعيش مما تنتجه أرضها والشعوب

الصناعية التي كانت تحيا عن طريق مبادلة البضائع التي تصنعها لغيرها مما هي بحاجة اليه ، أصبحت جميعاً اليوم في حالات تختلف اختلافاً كلياً عن الحالات السابقة .

إن فرنسة وهي البلاد التي تمتاز بكونها زراعية تستطيع عند الاضطرار أن تعيل نفسها بواسطة تربتها أما انكلترا فهي لا تستطيع ذلك أبداً اذ انها لو أحيطت بجدار لا يمكن اختراقه واجتيازه لما استطاعت أن تعيش من محصولات تربتها أكثر من شهر واحد بكل جهد في حين أنه لو أحاط فرنسة جدار مثل هذا فان تربتها تقدم لها ما يكفي لاعالتها مدة عشرة أشهر على أقل تقدير

إن شروط البقاء هذه التي هي بهذه الدرجة من الاختلاف في الاشكال والتباين في الصور، يمكن أن توضح لنا بعض النقاط من سياسة انكلترة . اذ انه يتحتم عليها أن تحصل على المحاصيل من الخارج ولما كانت البضائع لا تتيسر مبادلتها الا ببضائع أخرى أيضاً فهي مضطرة لأن تفتش على مشترين في جميع الجهات

منابع الثروة الصنعية

لما كانت الشعوب على اختلافها تنتج منذ الحرب قليلا وتبيع باسعار رديئةفقد وجدت نفسها مضطرة، لكي تضمن البقاء لحياتها أن تلجأ لشتى الانواع والطرائق والوسائل فاول ما لجأت اليه من الطرائق هو ايجاد أوراق مالية جعلت التعامل بها اجبارياً

ولما كانت هذه الطريقة تبدو في أول أمرها كأنها من الوسائل التي تنجح نجاحاً دائماً فقداختارت العمل بها كثير من الحكومات

من الجلي أن العملة المصنوعة من (الورق) لا قيمة لها سوى الثقة التي يكنها الجمهور في صدره أزاء الحكومات التي أصدرت تلك الأوراق . وتعلمنا التجربة أن هذه الثقة تتناقص كلما زادعدد الأوراق الموضوعة للتداول وكلما حصل بطء فى تأدية قيمتها نقداً

وفي الاصل أن قيمة العملة الاعتيادية أي قوةابتياعها يجب أن تتناقص بالتدريج الى أن تصل الى الصفر فاذا كانت هذه القيمة مهما كانت ضئيلة تستطيع الثبات فوق الصفر فان الحكومة التى أصدرت مثل هذه الاوراق النقدية باستطاعتها أن تستبدلها دوماً بعملة أجنبية جيدة . على أنه في الحقيقة ما الذي يهمها اذا كانت تدفع ورقة بقيمة ألف فرنك لكي تحصل على فرنك فضى ما دامت

هذه الورقة التى هى بقيمة الف فرنك لا تكافها سوى ما يعادل نفقات الطبع

اذا كانت احدى الحكومات حائزة على قدرة (نظرية) تمكنها من صنع أوراق نقدية لا يمكن أن تبلغ قيمتها الصفر في يوم من الايام مهما تقربت من هذا الرقم فانها (أى الحكومة) تستطيع أن تحصل بواسطة أوراقها الرديئة على جميع ذهب العالم

من الجلي أن مثل هذا الافتراض لا يكن تحقيقه بالفعل فان التجربة تظهر كما أظهرت في الزمن الذى أصدرت فيه فرنسة الاوراق المالية المسماة (آسسينيا) (١) ان اصدار كمية غير محدودة من العملة الاعتيادية يفضى الى تجريد هذه العملة من كل قيمة. وهذا ما حدث فى الروسيا و بولونيا والنمسا وغيرها .

أما المانيا فلما كان سقوط قيمة المرك الورقى غير ناشيء بوجه من الوجوه عن زيادة جسيمة فى المواد المستهلكة مقابل الانتاجات كما هو الامر فى البلاد الاخرى . بل كان ذلك السقوط ناشئاً عن سبب واحد وهو أن الحكام فى المانيا كانوا يودون أن يجردوا الاوراق المالية عن كل قيمة لكى يغدو دفع أموال التعويضات الحربية مستحيلا

(١) هي أوراق عالية أوجدت فى قرن عام ١٧٨٩ وألغيت عام ١٧٩٧ ـ المترجم

ولما كان الامر على هذه الصورة فان قيمة العملة الصنعية في المانيا لم تبلغ الصفر فى يوم من الايام بالرغم من أن المانيا كانت تصدر منها عدداً لا حد له .

وفي الحقيقة ان اصدار عدد لا حد له من الاوراق المالية يمكن الذين أصدروها من مبادلة أوراقهم التى لا قيمة لها بعملة حسنة غيرها أو ببضائع ومواد أخرى ولكن هذه العملية لا يمكن أن تدوم مدة طويلة . واذا امتدت فان البلاد التى أصدرت تلك الاوراق تصبح حالا من البلاد التى لا يوجد لديها أوراق نقدية مقبولة : وما من واسطة تلجأ اليها حينئذ — كما هو الحال في الروسيا — سوى واسطة تجارية واحدة وهى أن تبادل محصولاتها بغيرها من المحصولات مباشرة فتكون بذلك قد عادت الى اتباع طريقة المقايضة التى كانت سائدة في لازمنة الغابرة

ولو تعمقنا فى البحث قليلا لعلمنا أن طريقة المقايضة كانت في غير الازمنة القديمة أيضاً هى الواسطة التجارية الصحيحة

اذا كانت احدى البلاد تجتاز أزمة مالية اضطرتها لأن تعوض ما فقدته من العملة الذهبية أو الفضية بأوراق مالية فان طريقة اصدار العملة الورقية تكون ذات نفع في هذه الحالة فقط . فان الاوراق المالية التى استعيض عنها بالعملة الحقيقة لا تكون حينئذ الا عبارة عن

قرض لم يعين أجل دفعه : وتفقدهذه الاوراق قيمتها بالدرجة الاولى اذا زيد فى عدد ما أصدر منها ثم اذا حدث البطؤ في دفع ما يقابلها من النقد كما ألمعنا الى ذلك قبل أسطر

فيجب على الحكومات اذن أن لا تنسى أبداً أن الاوراق المالية التى يكون التعامل بها اجبارياً هى عملة عن عملة تفنى قيمتها مع مرور الزمن كما انها تميل دوماً الى الهبوط نحو الصفر



الفصل الثاني

عوامل الثروة قديما وحديثا

كانت منابع الثروة الرئيسية في العالم القديم عبارة عن زراعة ضعيفة وتجارة بطيئة وغير ثابتة . وكانت الفكرة المقبولة وقتئذ هي أن الواسطة التى يتوصل بها الشعب الى الغنى والثراء تنحصر بشن الغارة على من في جواره ونهبهم واستلاب أموالهم .

أما في أيامنا فان ارتبـاط الشعوب بعضها ببعض وهو الذى أخذ يزداد باضطراد قد بدأ يزعزع أركان تلك الأفكار القديمةالتى كانت تقول بفائدة الغارات على أنها وان لم تتزعزع من عقول جميع الناس بعد فقد بدأت دعائمها تتقوض في عقول بعض الاقتصاديين. ولقد أثبتت حوادث عديدة أن الامم تربح من تبادل المحصولات التى تنتجها أكثر بكثير مما تربح من وراء اهلاك بعضها بعضا . كما أن التجربة أظهرت أيضاً أنه لأجل ايجاد طرائق لترويج البضائع وفتح منافذ تجارية لها عند أمة من الأمم لا يأتي غزو تلك البلاد والاستيلاء عليها بأي نفع أو فائدة . وهكذا فان

تجارة المانيا مثلا قد راجت أكثر ما يكون في بلاد نظير بلاد الولايات المتحده الاميركية

ان هذه الحقائق التي قررناها وان كانت جلية ظاهرة لكنه سبق لي أن نعتها في غير هذا المكان بنعت الحقائق المعطلة التي لا قوة فيها ولا نفوذ لها لأن جلاءها ليس من شأنه أن يجعلها من القوة بحيث تتمكن من السيادة والسيطرة على الدوافع الحسية أو السرية كالحسد والحقد والشعور بالحاجة والتفوق الدولي أو السيادة العالمية وما اليها من المشاعر التي تكفي لأن تأخذ بيد الشعوب نحو بعض الحوادث الجنونية والمشاريع الخطرة

ومع ذلك فان أربع سنوات طافحة بحوادث القتال والتخريب والتدمير قد منحت بعض الحقائق التي كانت عديمة القوة والتأثير فيما سبق شيئا من القوة والسلطة . فقد أثبتت بوجه خاص ان الحروب التي ترمي الى الفتوح لا تستطيع أن تغني أحداً وان تجعله في مصاف المثرين كيف لا وأن الحروب التي خرجنا منها قد عادت على الغالبين الظافرين بخراب وافلاس ان لم نقل أنهم يربوان على ما أصاب المغلوبين فهما يعادلان ما لحق بهؤلاء على أقل تقدير .

* * *

ان الشعوب أصبحت اليوم تكرس جميع جهودها في سبيل ترميم ما تخرب من بلادها ، وتأدية الديون التى تراكمت عليها وتجديد رؤوس الاموال التى فقدتها .

فأي المنابع ستنفجر لها عن أنهر الثروة فى الازمنة القادمة

ان هذه المنابع التى هي ذات طبائع متنافرة ستكون جميعاً تابعة لحكم القاعدة الاساسية التى لخصتها في الدستور الآتى

ان ثروة الشخص أو الشعب أكثر ما تكون تعلقا بالسرعة التى يتداول الناس بها رأس المال الذي هو قيد تصرفي

ان هذا الدستور هو قريب جداً من القانون الذي يقاس بموجبه عظم الجهد أو العمل فى علم الآليات (الميكانيكيات) ومن المعلوم أن عظم الجهد يعادل نصف الناتج عن ضرب الكتلة بمربع السرعة .

وكذلك الامر فى علم الاقتصاد فان (الكتلة) متمثلة برأس المال الذي هو قيد التصرف ، والسرعة الآلية هنا هي السرعة التى ينتقل بها رأس المال المذكور بين أيدي الناس .

اذا كان رأس المال الابتدائي ضئيلا فلا أهمية لهذا الأمر كثيراً. فان رأس المال مهما كان صغيراً لا يلبث اذا كان التعامل به سريعاً حتى يفوق رأس المال الجسيم اذا كان التعامل بهذا يسير سيراً بطيئاً .

ان التشابه مع الميكانيك موجود هنا أيضا . فان الطلقة النارية ذات الكتلة الصغيرة والتى هي مزودة مع ذلك بسرعة عظيمة تفوق من حيث القضاء على الحياة الكتلة المعدنية التى هي أعظم ثقلا بمئة مرة ولكنها تنطلق بسرعة ضعيفة . ان علم الرماية الحديث قد تغير وتبدل من جراء العمل بهذا القانون كما أن هذا القانون يميل بطبيعة الحال الى تحويل وتبديل الصناعة أيضاً

***

إن القوانين السالفة غدت تجعلنا ندرك الثروة بشكل جديد .

ففي العالم القديم كانت خزينة البلاد تتكون من ادخار قطع النقود الذهبية أو الفضية الموضوعة ضمن صناديق محكمة الاغلاق حيث كانت لا تخرج منها الا نادراً .

ولما حدث التطور الجديد خرجت الاموال المكنوزة بكاملها من الصناديق وألفت كتلة متحركة تختلف عظمتها كما قلت سابقاً بحسب سرعة انتقالها بين أيدى الناس .

ولكي نثبت هذه الافكار فى الاذهان ونجعلها ترسخ فيها نفرض أن تاجراً يملك رأس مال قدره الف فرنك كرسها لابتياع بعض الكميات من البضائع ، ثم باع هذه البضائع مقابل ربح يعادل ١٠ في المئة . فاذا تكررت عملية البيع هذه عشر مرات

فى الاسبوع الواحد فان رأس المال يصبح في آخر الاسبوع مضاعفاً .

واذا استمرت هذه العمليات فان التاجر يصبح بعد مدة وجيزة أغنى من الرجل الذي يملك رأس مال يبلغ (٥٠) الف فرنك اذا كان هذا الرأسمال غير متحرك أو كان يأتي بدخل ضئيل .

فيستنتج بطبيعة الحال من هذه الحسابات الابتدائية أن خطورة الربح التجارى أو الصناعي لا تتعلق بالربح الحاصل في كل عملية بل تتعلق بوفرة عدد هذه العمليات و يستنتج من هذا أيضا أنه كلما تكرر الربح كلما نقصت كميته . أما تناقص كمية الربح فانها تسهل بدورها سرعة انتقال رأس المال بين يدي المتداولين لأنها تضمن للبضاعة أن يبتاعها أكبر عدد ممكن من المشترين

وعلي ذلك فان كلا من المشترى والبائع يربحان كلاهما من وراء سرعة تداول رأس المال وعلى هذا المبدأ تأسست مخازن (الخرضة) العظيمة مكان الدكاكين الصغيرة التى كان البائع فيها مضطراً لان يبيع بأسعار مرتفعة بالنظر لقلة ما يبيع .

ان الامثلة التى أشرت اليها من شأنها أن تساعد على التعبير عن الدستور الذى تكلمنا عنه سابقاً بالصورة الآتية : —

ان ازدياد سرعة تداول رأس المال تعادل ازدياد هذا الرأسمال .

ان هذا الدستور سيحكم العالم الصناعي الحديث حكما سيزداد بشدة مع مرور الزمن • فما هي وسائط تطبيقه والعمل به

ان العوامل التي تستطيع أن تعجل سرعة تداول رأس المال قد درست كثيراً من قبل الاميركيين والالمانيين في الازمنة التي تقدمت نشوب الحرب . وهذا هو السبب الحقيقي الذي جعل اتساع تقدم الاقتصاديات عند الامتين المذكورتين يتخطى درجة نمو الاقتصاديات عندنا :

بعد أن تغدو ضرورة التسرع في الاستحصال وفي ترويج المواد المستحصلة أي في ايجاد منافذ لها من القضايا المسلم بصحتها يستطيع المرء اذ ذاك أن يدرك حالا مبلغ ما في اتقان طرائق الاستحصال واصلاح الآلات والادوات واتساع تقدم وسائط النقل من الاهمية والخطورة .

لست هنا لأفحص تأثير العوامل المختلفة في حصول ما يسمونه بالاشتداد الصناعي والتجاري أي في توفر السرعة في الاستحصال وفي رواج المستحصل . ومع ذلك فان هناك عاملا من تلك العوامل وأعني به العامل في ازدياد المحصول الزراعي أشير اليه أثناء انتقالي من هذه النقطة ذلك لأن أهميته ستنجلي أكثر من غيرها أثناء دور الجدب والقحط الذي أصبح يتهدد العالم

لقد كان المحصول الزراعي في فرنسة قبل الحرب ضعيفاً بدرجة ضعف المحصول الصناعي الذي كانت تنتجه وقتئذ . فلم يكن يزيد محصول الهكتار في الأراضي المزروعة قمحاً عن (١٢) هكتولتر بينما الأراضي الألمانية برغم أنها من حيث الصفات والخصائص دون الأراضي الفرنسية كانت تقدم ضعف تلك الكمية ، وما ذلك إلا بفضل استعمال الأسمدة .

ان عدم كفاية الدراسة الفنية عندنا سواء في الزراعة أو فى الصناعة هي من الأسباب التى جعلتنا دون الألمانيين فيجب نقض هذه الدراسة من أساسها وتجديدها واصلاحها من جديد .

***

لقد نشر المهندس المسيو لواره مقالا هاماً في مجلة (الاكسبانسيون ئه كونوميك) اتى فيه بأمثلة جلية عن مبلغ الاختلاف الذي يحدث في كمية المحصول اذا حصل عليه بواسطة قوة الساعد أو بواسطة قوة المكنات تبعاً لدرجة تمكن وتضلع العامل أو محرك المكنات من المعلومات الفنية .

ولقد ذكر محرر المقال القارىء بوجه خاص بالمثل المشهور الذي يروى عن تايلور (١) وذلك أن تايلور جعل أحد العمال لا يقوم

---

(١) هو رياضي انكليزي كبير ولد عام (١٦٨٦) وتوفي عام (١٧٣١) المترجم

بأية حركة من الحركات التي لا فائدة منها وذلك بطريقة خاصة فاستطاع العامل بهذه الصورة أن ينقل (٤٧) طناً من الحديد الصب الى إحدى الشاحنات في حين أن رفاق هذا العامل الذين لم يتبعوا تلك الطريقة لم يتمكنوا في المدة ذاتها من نقل اكثر من (١٢) طناً من الحديد .

وجاء الكاتب بعدئذ بأمثلة تكلم فيها عن المعامل ذات العدد الكهربائية التي استطاعت بفضل اتباعها لأفضل الطرائق أن تزيد في الكمية التي تنتجها أكثر من الضعف ، ثم بعض المعامل الأخرى التي اجتهدت فتمكنت من انقاص النفقات التي تنفقها على صنع البضائع بنسبة (٤٠) في المئة وأبان كيف أن عمل تلك المعامل يساعدها على أن تزيد في أجور العمال زيادة كبيرة ، وقال أيضاً أن المعامل اذا رغبت في زيادة أجور العمال ولم تزد في الوقت نفسه في الكمية التي تنتجها فان ذلك لا يفضي الا الى ازدياد النفقات التي تنفق على صنع البضائع . فيصبح صاحب العمل حينئذ عرضة لمنافسة أصحاب المعامل الأخرى الذين هم أوفر وأكمل عدة . وتغدو بضاعته كاسدة ليس لها من مشتر .

وقد لاحظ محرر المقال الذي نحن في صدده بعد ذلك أن استعمال الفحم ضمن طرائق خاصة يمكن أن تنقص الكمية التي تستهلك منه بنسبة (٣٠) في المئة . وقد ذكر القاريء أن في سباق

سائقي السيارات الذى أقيم عام (١٩٠٥) في معرض ليج كان الفرق بين العمل الذى قام به الأول و بين العمل الذى قام به الثانى كالفرق بين الخمسين والمئةعلى الرغم من أن الآلات والأدوات التى تتألف منها تلك السيارات كانت واحدة لافرق بينها على الرغم من أن الوقود التى استعمل فيها كان واحداً ومتساوى الكمية أيضاً

لقد أصبح من الأمور الجلية التي لايختلف فيها أن الضرورة غدت تحتم على العمال وعلى رؤسائهم أن يتمكنوا من المعلومات الفنية وأن يتقنوها وأمسى هذا الأمر من الأهمية بمكان قصى ؛ كما أنه عند ماتحتم الضرورة على صاحب العمل أن ينقص النفقات التي ينفقها على البضائع وما اليها تندر إذ ذاك اليد العاملة شيئاً فشيئاً وتصبح أجرتها غالية أيضاً

ولما كان شطر كبيرمن الديون التي علينا خارجياً فاننا لانستطيع أن نسدها الا بواسطة مايفضل عن المحصول الزراعي والصناعي في بلادنا

***

ان جميع هذه الملاحظات تظهر أن رأس المال المادى المؤلف من الدراهم أو من المعامل أو من المحاصيل يمكن أن يزداد ويكبر بصورة عظيمة عندما (يضرب) ببعض أضعاف شخصية سأطلق

عليه إسم « اضعاف القدرة العقلية » والعامل المختص بسرعة الاستحصال والذى أبنت مبلغ أهميته فيما سبق انما يتعلق بتلك « الاضعاف » ووفرتها أو قلتها .

فمن الجلي الواضح والحالة هذه خلافاً لأحلام القائلين بمبدأ المساواة من الاشتراكيين أن ثروة الشعب ستختلف فى المستقبل بأكثر مما كانت في الأيام الخوالى أيضاً حسب عدد المبرزين في العلوم والصنائع والتجارة بين أفراد ذلك الشعب بوجه خاص .

ان البلاد التي لايزال تقدم مبدأ الاتياتيزم(١) فيها بتأثير الاشتراكيين يصيب الجهود الشخصية بالشلل ستجد نفسها في حالة من التدني يسحق كيانها سحقاً أمام البلاد التي هبط فيها عمل الحكومة وتدخلها بالشؤون الى أدنى الدرجات وصعدت جهود أبناء البلاد فيها الى أقصى الحدود الممكنة كأميركا مثلا

***

لقد اضطرتنا الأحوال ان نقتصر في هذا الفصل على بيان ما للسرعة في إيجاد القيم والأثمان من الشأن الخطير .

واذا درسنا تأثير السرعة فى التطور العالمي الحالي يصبح من

(١) هو مبدأ يرمي الى جعل كل شيء بيد الحكومة ويترك التصرف بكل الشؤون لها بالذات — المترجم

السهل علينا أن نثبت ونبرهن على أن مدنيتنا ستجد نفسها يوماً بعد يوم محكومة من قبل هذا العامل (أي السرعة).

فهذا العامل بوجه خاص هو الذي يميز القرن الأخير عن جميع القرون التى تقدمته أثناء عدة آلاف من السنين التى مرت على التاريخ .

فمنذ أيام (سزوستريس) الى أيام (قيصر) الى أيام (لويس الرابع عشر) الى أيام (نبوليون) كان صنع المحاصيل وانتقال الأشخاص بل والافكار ذاتها أيضا يجرى ببطء زائد

ولقد جاء اكتشاف الفحم الحجري الذى يسمى بموجد السرعة باعثا على جعل الانتقالات السريعة وتشييد معامل تصنع كميات هائلة من المواد ـ في حيز الامكان

ان الحياة الجديدة أصبحت مرتبطة باستحصال الفحم الحجرى إرتباطا محكما ، وسيقف الدم الذي يجرى في عروق البشرية حالا عندما ينضب هذا الينبوع وتنفد جميع الكميات الموجودة من الفحم الحجرى في العالم ، فاذا حدث اعتصاب طويل الأمد من قبل المعدنين فى انكلترة فان هذا الاعتصاب يكفي لأن يجعل جميع النهضة الاقتصادية والاجتماعية فى تلك البلاد عرضة للخطر ، ان

مكانة الفحم الحجرى وخطورة أمره في حياة الشعوب المادية والمعنوية تسوغ لنا تخصيص فصل خاص له في هذا الكتاب

أى كان عنصر التمدن المعتبر اليوم فان الجهود العلمية متجهة نحو تزييد سرعة تقدمه ، بل يمكننا أن نقول أن عمل السرعة هذا يرمى الى إطالة أمد الحياة فيما اذا قبلت الكلمة التي سبق لي أن جعلتها في قالب دستور عام في غير هذا المكان وهي كما يأتي : ان أمد الحياة لا يتعلق بعدد الأيام بل يرتبط بتنوع المشاعر المتكدسة أثناء تلك الأيام



الفصل الثالث

اسرار السحب الظاهرة

عندما هلك جاك دي شابات مرشال فرنسة وزعيم الاقطاعية المسماة (لا باليس) أمام « بافيا » وذلك عام (١٥٢٥) خلف وراءه شهرة الجندي الباسل فقط ولم يترك وراءه شهرة الفيلسوف أبداً . الا أن أبناء الأجيال التى جاءت بعده قد جعلوا — وحدهم — من هذا المحارب الشريف أبا لفلسفة تمتاز بكونها جاءت بحقائق لا جدال فيها ولم يشعر الناس الا نادراً بحاجتهم للتذابح في سبيل الدفاع عنها .

ان الحقائق المعروفة باسم (حقائق لا باليس) هي عبارة غالباً عن أهم الخلاصات التى تنطوي تحتها زبدة ما نلم به ويدخل في نطاق معرفتنا ، وأن المرء لا يذهب في ركوب متن الشطط بعيداً ولا تتجاوز مغالاته الحد عندما يؤكد بأن أعظم مراحل الرقي والتقدم التى اجتازها العلم عبارة عن استحالة بعض فرضيات لم تتأكد صحتها فى باديء الامر الى شكل حقائق من نوع حقائق

لاباليس أى الى شكل حقائق جلية طاهرة للعيان أتم ظهور . ولقد سبق لى أن أبنت أن هناك مبدأ من المباديء الجوهرية في بحث الحرارة الديناميكية لم يهتد اليه الاخصائيون فى علم الطبيعة (فيزيك) الا بعد ان استعملوا كل ما حباهم الله به من ثقافة وحذاقة ووقفوا عليه كامل جهودهم مدة (٥٠) عاماً . أما هذا المبدأ فيمكن ارجاعه الى شكل حقيقة على نمط حقائق (لاباليس) بأن يقال أن النهر لا يصعد نحو منبعه .

والأمر على هذا النمط في كثير من العلوم . ولقد أكد في المدة الأخيرة مرشال من أشهر رجال هذه الرتبة عندنا أن الحقائق الوحيدة التى تنفع في الحرب هى عبارة عن حقائق لاباليس

ان نفس هذه الملاحظات تلاحظ في جملة علوم تبدو عليها سمات القساوة والجفاف فى الظاهر وتملء من المجلدات الضخمة عدداً غير قليل نظير علم الاقتصاد اذ أن هذا العلم يتضمن عدداً عظيما من الحقائق على نمط حقائق لاباليس كما هو شأن المبدأ الذي يبني عليه أساس قاعدة العرض والطلب مثلا فان أحقر طاهية تدركه جيداً عندما ترى أن سعر البيض الذي تبتاعه من السوق يزداد كلما تقدم البيض نحو الندرة .

وهكذا فان أكثر النظريات الموضوعة فى علم الاقتصاد تصبح بهذا الشكل البسيط حالما يجردها المرء عن الحجاب الكثيف الذى يسدله عليها المفسرون والمؤولون

***

ان الغرض من استهلال البحث بهذه التوطئة هو جعل القارىء على استعداد كاف عند البحث في شأن قضية من القضايا التى تزعزع اليوم من حياة الشعوب المالية الأركان ونعنى بها قضية « السحب » أو « القطع » أو بعبارة أصح «الصرافة الصغرى [(١)]» فقد تراكمت فوق هذه القضية شيئاً فشيئاً آصار وأحمال مشحونة بالأخطاء فغدت برغم بساطتها الكلية من الحوادث والاعاجيب الغامضة وأصبح الناس يخالون أنها تتأثر بقوى سرية لا يمكن ادراكها او بمقاصد ونيات مظلمة لشرذمة من المقومين أو المخمنين الماكرين

لنقبل أن فيلسوفاً سبق له أن تتقف بحقائق لا باليس وتغذى بها أقدم على ايضاح قضية « السحب » وشرح غوامضها بالرغم من الحواجز المظلمة التى تختفي وراءها هذه القضية فكيف يتاح له أن ينجح في مسعاه .

(١) نريد بهذه الكلمات ما يقابل كلمة Change الفرنسية

ان ذلك الفيلسوف اذا ما قام باختبار سريع بدون أن يستضيء بأنوار أحد من الاقتصاديين يستطيع أن يلاحظ بسهولة ان الخسارة في « السحب » أي تناقص قوة ابتياع النقد تتحول حسب درجة الثقة التي يظهرها الناس نحو البلاد التي هي مصدر ذلك النقد . فاذن يجب علينا لكي نحصل في سويسرة أو في انكاترة على حاجة يبلغ ثمنها في فرنسة مئة فرنك أن ندفع ثلاثمئة فرنك أي اذا كان الفرنك قد فقد من قوة ابتياعه الاسمية الثلثين فهذا يدل على أن الثقة بقدرتنا على الأداء أي ما يسمونه بالاعتبار المالى قد تناقصت تناقصاً بيناً ليس الا .

فالسحب عبارة اذن عن (ترمومتر) نفسي يقيس ثقة المنتج ازاء البلاد التي يبيعها بضاعته .

فيستنتج من هذا التعريف بوضوح أن الدستور القائل (بجعل أسعار « السحب » ثابتة مستقرة) والذى تكرر اللفظ به أكثر من مرة من قبل كثير من الاقتصاديين هو ضرب من ضروب المستحيلات فالسعي حول جعل أسعار « السحب » ثابتة كالسعي حول جعل الدرجة التي تبينها آلة من آلات القياس كالترمومتر مثلا ثابتة في مكانها لا تتغير بتغيير الظروف والاحوال .

اى الاسباب تعمل في تغيير تلك الثقة التي يدل عليها اهتزاز

السحب فى ترمومتر الاسعار من صعوداًوهبوط ، اننا اذا ما ا كدنا بأن النفقات الخاصة او نفقات احد اصحاب بيوتات الصناعة او نفقات الحكومة اذا بقيت مدة طويلة تربوعلى الواردات فانما نكون بذلك قد ذكرنا حقيقة من حقائق لاباليس

اذا اضطر المديون للزيادة في عدد القروض لكي يتمكن من اداء الديون التي عليه فان الثقة تتناقص ايضاً بقدر تلك الزيادة .

عند ما تكون الحكومة هي القائمة بهذه العملية فان القروض تأخذ اشكالا متبدلة من شأنها ان تخفي طبيعة تلك القروض وحقيقتها بعض الاخفاء . واكثر تلك الاسكال استعمالا هو الورق النقدى والورق المصرفي الاجباري التداول الذى لم يعين لادائه نقداً اى تاريخ اوزمن .

من الجلى ان مثل هذه الاوراق هي عبارة عن قروض ليس لها من ضمانة سوى الثقة بالحكومة المستدينة فاذا زادت هذه الحكومة في عدد اوراقهافان التقة تتناقص شيئاً فشيئاً الى ان تصبح في النهاية كالعدم .فهذا الدور الاخير الذي هوآخر الادوار التي تمر على الاوراق النقدية في حياتها والذى لا مناص من الوصول اليه هو

الذى وصلت اليه النمسا والروسياو بولونياوامثالها . ان سقوط كامل قيمة الورق النقدي يدل بطبيعة الحال على زوال كامل الثقـة التي كان حائزاً عليهـا فيما سبق.

***

ان ترمومتر الثقة المبنى على « السحب » حساس جدا . وهكذا فانك تراه في فرنسة يكابد سقوطاً عنيفاً عند ما يفوه النواب في قاعة البرلمان (وآيات العظمة والزهو مرتسمة على جباههم) بتصريحات تبعث على اساءة الظن

أما كون الصرافين (سبه كولاتور) يستغلون مثل هـذه الظروف لـكى يشددون حركة هذه « السحب » بشكل يضمن لهم بعض المنافع فهو من الامور التي لا مجال للشك فيها . ولـكن تأثير هؤلاء الاشخاص هو دوماً محدود وقتى اى سريع الزوال . كما ان الاهتزازات التي تحدث فى (منحنى الثقة لا تقوى على تغيير الوجهة التي تسير فيها)

اننا نكابد اليوم آلام العواقب التي نتجت عن ذلك الدستور الضار القائل (بان المانيا ستدفع) فقد دعانا الى انفاق مبالغ طائلة في البلاد المتخربة بلاجدوى . والغريب انه لم يخطر على بال احد وقتئذ عندما كانت المانيا تصدر من الاوراق الماليه كميه لا يحصيها عد لـكي تجرد المرك الورقى عن كل قيمة بأنها (اي المانيا) ستنجح

فى التملص من الدفع في حين انه ربما كان باستطاعة المسيو (دي لا باليس) ذاته ان يتنبأ عن ذلك سلفاً . لكن ساستنا لم تحدثهم نفوسهم بشيء من هذا .

***

فى عداد العوامل التي تسبب سقوط اسعار « السحب » والتى هي دوماً عبارة عن تناقص درجة الثقة يمكننا ان نذكر ايضا كعامل فى ذلك اختلال الموازنة التجارية اي اختلال النسبة بين كميتي الواردات والصادرات .

ولقد قدمت البرازيل على هذا مثلا من احسن الامثلة فى هذا الباب . وذلك ان ما كانت تصدره الى اوربة اثناء الحرب كان يزداد بسرعة في حين ان ما كانت تستورده الى بلادها كان يتناقص فى كل يوم . ولما كانت اوربة في حاجة وقتئذ لجملة اصناف من البضائع بالرغم عن انه لم يكن لديها ما تبيعه فقد غدت سيول الذهب تتدفق الى البرازيل وصعدت اسعار « السحب » فيها بسرعة كلية .

وعند ما وضعت الحرب أوزارها لم تكن أوربة في حاجة لابتياع أى شيء من البرازيل . أما هذه فقد كانت بالعكس مضطرة لابتياع كمية كبيرة من المواد من الخارج لكي تعوض الكميات الهائلة التى نفدت من عندها . وعندئذ أصبحت وارداتها تربو كثيراً على صادراتها فلم تمض برهة وجيزة حتى هبطت أسعار « السحب »

عندها وسيستمر هذا الهبوط الى أن تزيد انتاجها لدرجة تكفي لتعويض الكميات التي تستوردها . على أن هذه البلاد قدر لها في الأصل أن تكون من الذكاء بحيث لا تفكر في اقامة العوائق الجمركية في طريق البضائع التي تستوردها من الخارج كما كان شأن كثير من الشعوب اللبيبة الأخرى .

***

عند ما تفقد كامل ثقة الناس بقيمة العملة الصنعية كالورق النقدي مثلا تكون البلاد التي أصدرت هذا النقد الذي غدا عديم القيمة خالية الوفاض تماماً من الذهب أو الفضة هل يمكن القول آنئذ بان تلك البلاد لا تملك شيئاً يطلق عليه اسم النقد ؟

كلا ان القول بذلك غير جائز في حال من الاحوال ولا أكون كثير الاعادة والتكرار اذا قلت مخالفاً لرأي بعض علماء الاقتصاد بان الذهب هو عبارة عن بضاعة تماثل جميع أصناف البضائع الاخرى ويمكن استبدالها باصناف كثيرة من البضائع الاخرى ولا شك بأن نقل بعض البضائع أقل سهولة من نقل الذهب والفضة لكن قوة ابتياع تلك البضائع تضاهي من حيث الشدة قوة ابتياعهما

ان أي بضاعة يمكن الاتجار بها ككيس من القمح أو من الفحم الحجرى مثلا هي اذن عبارة عن نقد لا فرق بينه و بين ذلك الوزن

المحدود من الذهب الذي يؤلف قطعة قيمتها (٢٠) فرنكا لان مبادلة ذلك الكيس بكميات معينة من البضائع الأخرى ميسورة

ولقد سبق لي أن ذكرت القارىء بأن الشعب الغني هو ذلك الشعب الذي توفرت لديه كمية من البضائع الميسورة المبادلة تزيد عن مقدار ما يستهلك . كما أن الشعب الفقير هو ذاك الذي لا يملك من البضائع التي هي على هذه الشاكلة كمية كافية والذي هو لذلك مجبر على الاستدانة من الشعوب الاخرى . وهو في ذلك الحال لا يستطيع أن يدفع للبائع ما يتوجب عليه دفعه له بصفة بضائع بل يدفع له ما في ذمته بصفة أوراق هي في الحقيقة عبارة عن بضاعة وعود غير أكيدة

كلما كان الشعب غنياً بالبضائع التي يمكن الاتجار بها نقصت حاجته للذهب أو للفضة .واذا استعمل هذا الشعب الذهب أو السفاتج [أي البوالص جمع بوليصة] أو الاوراق المصرفية أو التحاويل (شك) وما اليها في سبيل تسهيل أمر مبادلة البضائع فلا حرج عليه ولا بأس ان الثقة لا دخل لها في أمر مبادلة البضائع ببضائع أخرى . لأن المشترى يقتصر على معاوضة البضاعة ببضاعة أخرى تضاهيها من حيث القيمة أما مباشرة أو بطريقة غير مباشرة . فهو يدفع في الحقيقة نقداً وان يكون الذهب أو الفضة لا يتدخلان فى العملية

ان التحولات التي تطرأ في كل يوم على قوة ابتياع العملة غدت تولد ارتباكات هائلة في انتظار تأسيس الموازنة التجارية في مختلف البلاد أي في انتظار تعادل ما تستورده البلاد مع ما تصدره

ان البلاد التي احتفظ النقد فيها بقيمته تضطرب أحياناً من جراء هذه الميزة اضطراباً قد يعادل اضطراب البلاد الاخرى التي هبطت قيمة أوراقها المالية هبوطاً كبيراً وعندما نضطر لأن ندفع ثمن البضاعة في انكلترة أو في اميركة ثلاثة أضعاف قيمتها بسبب هبوط أسعار « السحب » عندنا فكأن انكلترة أو أميركة قد زادتا في أسعار مبيع البضائع ثلاثة أضعاف

ولما كان هذا الترفع الصنعي في الاسعار يجعل المبيع عسراً بطبيعة الحال فان عدداً كبيراً من المعامل الاجنبية تضطر لاغلاق أبوابها.

واذا كانت البلاد التي لم يهبط سعر النقد فيها لا تستطيع اصدار ما تنتجه بسهولة فانها تدفع كثيراً اذا استوردت من الخارج لانها لا تدفع بفضل هبوط الاسعار « السحب » في الخارج سوى ثلث أو نصف ثمن الحاجة الاصلي وهكذا فان انكلترا تمكنت في المدة الاخيرة من الحصول على كميات جسيمة من السكر من فرنسة بسعر يقل كثيراً عن سعر السكر في انكلترة ذاتها . وكذلك استطاع أيضاً بعض الاجانب في فرنسة وفي المانيا أن يحصلوا على عقارات و بعض معامل ذات شأن مقابل ثلث قيمتها الاصلية

ان (الانعكاسات) التى تنشأ عن اختلاف قوة ابتياع النقد الواحد فى بلاد مختلفة لا تؤثر على التجارة فقط بل على جميع العلاقات المتبادلة بين الشعوب. لنفرض أن فرنسياً يسوح في ايطاليا وفي سويسرة قد أقام فى لوكندات تتناول عن الشخص (٣٠) فرنكا فى اليوم الواحد . فهذا السائح عليه أن يدفع في لوكندات متعادلة ما يعادل عشرة فرنكات يوميا في ايطاليا وستين فرنكا في سويسرة لاختلاف أسعار « السحب » ولهذا السبب ذاته يعادل ثمن الحاجة التي تباع في فرنسة بعشرين فرنكا (١٠) فرنكات في ايطاليا و (٦٠) فرنكا فى كل من سويسرة وانكلترا واميركا

***

ان من النتائج التى تستخلص مما سبق هى أن جميع البلاد التي هبطت أسعار النقد فيها تحصل على نفع من وراء الاصدار لا من وراء الاستيراد . أما البلاد التي لم يهبط سعر النقد فيها فانها تنتفع على العكس من ذلك من الاستيراد لا من الاصدار

ومما يؤسف له أن هاتين العمليتين: الاستيراد والاصدار تتممان واحدتهما الاخرى . ولهذا لا يمكن أن تنفصلا عن بعضهما . فالشعب الذي يقتصر على الاصدار أو على الاستيراد سرعان ما يلحق به الافلاس والخراب

و يرجع السبب في ذلك بوجه خاص الى أن الموازنة بين

الواردات والصادرات لم يبق لها أثر عنـد أكثر الشعوب بسبب الخلل والتشويش اللذين أصبحا في الامور المالية عامين فبعض الشعوب لا تستطيع الاصدار بكمية كافية لان قيمة بضائعها زادت عما كانت عليه ثلاثة أضعاف وذلك بسبب الخسارة التي لحقتها من وراء «السحب» والبعض الآخر لا تستطيع الاستيراد لا لسبب آخر غير هذا الارتفاع الذي حدث فى الاسعار

كيف ستنتهي حالة مثل هذه ؟ ولقد زادها جماعة الاقتصاديين قتاماً وظلاماً ، اذ أخذوا يهزءون ويهرفون حول جعل قيمة المرك ثابتة لا تتغير أو اصدار كمية لا يحصيها عد من الاوراق المالية ومع ذلك فيخيل الي أنهم اذا ما أمعنوا النظر قليلا فيما يقولون وتبصروا فى الامر بعض التبصر يتضح لهم بسرعة كليـة أنه لما كانت مبادلة البضائع ببضائع أخرى غيرها ميسورة فان قضايا النقد تفقد كل مالها من أهمية وخطورة حالما تصبح كميات البضائع التى هى برسم المبادلة من الوفرة بحيث تكفي لتأسيس الموازنة بين الـكميـات المنتجة والـكميات المستهلـكه وعندئذ لا يغدو النقد الاعتباري سوي علامة أو اشارة اتفاقية أو اصطلاحية نظير تحويل (شك) أو ما يسمى (بالمقبوضة) التى هي عبارة عن كتابة اقرارية بوصول مبلغ ومن الجلي أنى لو أرسلت الى أحد التجار الاجانب مثلا بعض الـكميات من الحديد برسم مبادلتها بكميات تعادلها من القمح حسب أسعار السوق

في العالم فان كل عملية من عمليات « السحب » تزول اذ ذاك وتفقد ولا يبقى لها من أثر

***

ليس أمر الأوراق النقدية وتبدلات أسعار « السحب » التي نبحث عنها من الأمور المستجدة التي ظهرت لعالم الوجود في هذا الجيل فقط بل لقد كان لفرانسة أيام الثورة الفرنسية الكبرى أوراق تسمى (آسسينيا) تاريخها معلوم لدى الجميع

ولقد استعملت الأوراق النقدية من قبل الحكومة البريطانية أيضا عند ما كانت تحارب نابوليون ، ودام التداول بالأوراق التي أصدرها « مصرف انكلترة » جبريامنذ شباط عام (١٧٩٧) حتى أيار عام (١٨٢١) أى مدة (٢٤) سنة

وهكذا تمكن الانكايز من الحصول على السعة المالية التي يتطلبها القضاء على سلطة نابوليون وتحطيمها ، أما أوراقهم هذه فانها لم تفقد من قيمتها المعدنية أكثر من (٢٥) بالمئة أبداً ، ولقد فقدت من قيمتها اثنين بالمئة فقط عام (١٨١٧)

ولقد استعملت الأوراق النقدية اميركا أيضا وذلك فى حربها التي ناضلت فيها فى سبيل التحرر من رق العبودية

ودوام تداولها اجباريا من سنة (١٨٦٢) حتى عام (١٨٧٩)

ولقد فقدت تلك الأوراق في السنين الأولى (٥٠ في المائة) من قيمتها المعدنية ، ولما انتهت الحرب زال هذا الهبوط بعض الزوال بسرعة بل لقد زال تماما قبل إلغاء قانون التداول الجبرى

كيف نجح الانكليز والأميركيون في استبقاء سعر الأوراق النقدية التى أصدروها معادلا لقيمتها الأصلية ؟ ان نجاح تجارتهم الذي أعاد الثقة هو الذي أفضى الى هذه النتيجة ليس إلا

ان هـذه الأمثلة تثبت أن تبدل أسعار « السحب » الذي غدا يضغط كثيراً على أسعار المعيشة في الوقت الحاضر ـ مرتبط ارتباطاً وثيقاً بأمر إصلاح الحالة الاقتصادية في أوربة وإعادتها الى ما كانت عليه في الزمن السابق . ولا نكون كثيري الاعادة والتكرار اذا قلنا أن هذا الاصلاح يمكن ارجاعه الى هاتين النقطتين : (١) الانتاج بأسعار تساعد على بيع البضائع التى هي أهل للأصدار (٢) زيادة إنتاج المواد الزراعية التى هي عبارة عن نقد دونه جميع أنواع النقد إن لم يكن فى بلاد كثيرة ففي فرنسة على الأقل . وإذ ذاك تستطيع الشعوب أن تؤسس الموازنة بين الكميات التى تستوردها من الخارج وبين الكميات التى تنفقها فتنتهي الفوضى المالية حالا وتغدو أثراً بعد عين

ان الأربعة عشر مؤتمرا التى انعقدت بالتتابع مدة أربعة أعوام في سبيل ايجاد طرائق أخرى لحل هذه القضية قد بقيت عاجزة. فلقد أنفق المؤتمرون في هذه المؤتمرات كثيراً من (الفصاحة) ونزراً يسيراً جداً من (العلم) وأقل منه أيضاً من (العقل الرشيد الراجح)



الفصل الرابع

كيف يمكن تحول الدين مع مرور الزمن

بين الأوهام التي استهدفت لأضرارها الشعوب الحالية يمكننا أن نذكر الأوهام المختصة بجسامة مبلغ الدين الألماني.

أن تحديد المبلغ الصحيح لهـذا الدين عسر وصعب لأنه يمكن أن يتحول ضمن نسب عظيمة وذلك حسب طرائق الدفع والتباطيء بالدفع وما إلى ذلك . ولقـد أتينـا فيما يلي على بعض حسابات من شأنها أن تبين مبلغ جسامة هذه الفوارق والاختلافات.

ولـكي نعمد إلى البيان بأجلى ما يمكن نقول : لنقبل أن دين المانيا الذي تم تحديد مبلغه في آخر الأمر وجعل (١٣٢) ملياراً هو مئة مليار فقط بفائدة (٥) في المئة ولنفحص ما يمكن أن يصير اليه مبلغ هذا الدين باختلاف آجال الدفع .

ولذلك انفرض أن المانيا تسدد في كل عام ملياراً واحداً فقط من أصل دينها ولنر بطريقـة الأرقام (الا أثرية) كـيف يزداد مبلغ دينها .

أن هناك دستوراً يعرفه الجميع تقريباً يبين أن الدين الذى يبلغ مئة مليار يصبح كمية بعد مضى ١٠ أعوام (١٥٠) ملياراً و (٣١٢) مليوناً . و بعد مرور (٢٠) سنة يغدو مساوياً ل (٢٣٢) ملياراً و (٢٦٤) مليوناً و بعد (٣٠) سنة يمسى معادلا ل (٣٦٥) ملياراً و (٧٥٥) مليوناً ثم بعد (٤٠) سنة يصل إلى (٥٨٣) ملياراً و (٢٠٠) مليوناً ، و بعد (٥٠) سنة يبلغ (٣٩٧) ملياراً و (٣٩٢) مليوناً .

وعلى ذلك فان مبلغ الدين يزداد عشرة أضعاف تقريباً بمضى (٥٠) عاماً و يرتفع الى رقم لو اجتمعت جميع خزائن العالم لما استطاعت عندئذ تسديده .

والآن لنفرض ان المانيا أرادت أن تسد دينها الاصلى البالغ مئة مليار والذى تبلغ فائدته ٥ في المئة فيتوجب عليها أن تدفع خمسة مليارات و (٤٧٧) مليوناً في كل عام

واذا فرضنا أن هذا الدين لا فائدة عليه فيكفي حينئذ أن تدفع مليارين سنوياً مدة (٥٠) عاماً لكي تسدده على الكامل .

ولنشر هنا الى ملاحظة هي من الاهمية بمكان وذلك أن جميع مطاليب المانيا المتعلقة بتأجيل موعد الدفع اذا تحققت تفضى الى

انقاص قيمة دينها الحقيقية انقاصاً كبيراً بسبب الضياع الذي ينتج عن (العوبة) « الفوائد المركبة » .

وفي الحقيقة أن قيمة ميلغ يعادل ملياراً واحداً في الزمن الراهن ليست سوى (٥٨٤) مليوناً و (٦٧٩٠٠٠) فرنك اذا كان هذا المليار سيدفع بعد (١١) سنة . و بتأخير دفعه (٢٠) سنة تسقط قيمته الحالية الى (٣٧٧) مليوناً ثم الى (٨٧) مليوناً فقط إذا كان موعد الدفع قد جعل بعد ٥٠ عاماً . و إذا كان موعد الدفع قد تأجل لبعد أربعة قرون تتدنى قيمة المليار الحالية الى ثلاثة فرنكات فقط .

فهذا التناقض الذي طرأ على دين قدره الف مليون فرنك فجعله يصبح عبارة عن ثلاثة فرنكات لهو من أحسن الامثلة التى تبين الدور الذي يلعبه الزمن في الشؤون المالية . فبفضل وساطة الزمن يغدو من الممكن أن تنقص قيمة مبلغ من المبالغ ضمن نسب جسيمة او ان تزيد على العكس من دلك تزايداً لا نهاية له . ولقد حسب مبلغ ما يصير اليه فرنك واحد جرى عليه حساب (الفائدة المركبة) منذ أيام يسوع المسيح حتى اليوم فوجد ان قيمته تغدو معادلة لقيمة كرة من الذهب يزيد حجمها عن حجم الكرة الارضية

وهكذ فانه بفضل هذا التأثير الذى يفعله الزمن يستطيع المرء أن يحصل على عقار تزيد قيمته كثيراً على سعة المشترى المالية في

الوقت الحاضر ، ان الدين يمكن أن يسدد بسرعة كليـة بواسطة أقساط سنوية ضئيلة المقدار فيما اذا استمر الدفع بدون انقطاع ، وتستند احدى بيوتاتنا المالية المعروفة باسم (الـكردى فونسيه) على هذا المبدأ في معاملاتها

ولما كانت الحياة الذاتية قصيرة الاجل جداً ، فان مبلغ القسط السنوى يزداد اضطراداً كلما كان تسديد الدين يجب أن يتم بأ كثر سرعة ، أما اذا كان المستدين جماعة وحياة الجماعة أبدية لا يلحقها العدم من الوجهة النظرية فان مبلغ القسط السنوى يمكن أن يصبح ضئيلا بقدر ما يراد ولهذا السبب استطاعت الحـكومات أن تستدين مبالغ جسيمة وأن تسددها بسهولة ، وكل ما هنالك أن تلك الحـكومات كانت تعمد الى جعل موعد تسديد المبالغ التى لا يمكن تسديدها فوراً — بعيداً جداً

***

ان الأرقام التى أتينا على ذكرها أعلاه تبين من الوجهة النظرية جسامة الديون التى تتراكم على المانيا من جراء أقل تأخير في تسديد ما عليها . ويجب على المرء أن يستسلم للاوهام استسلاماً لا يتخيله عقل لـكي لا يرى مبلغ ما هو مستحيل امكان الحصول على مثـل تلك المبالغ من المانيا

ومع ذلك فاننا افترضنا في حساباتنا السالفة أن الدين يبلغ مئة مليار بينما المبلغ الذى قبل في الوقت الحاضر يعادل (١٣٢) ملياراً

ولقد كان مبلغ الدين الالماني فى أول الامر أعظم من هذا المبلغ بكثير : ثم انقص المبلغ المذكور المرة تلو المرة بتأثير تضييق الحكومة الانكليزية وضغطها .

واذا كانت فرنسة تحنق على انكلترة فلأن هذه اضطرتها لانقاص مبلغ الدين الجرمانى . ففى أول الامر تقرر أن يكون مبلغ الدين عبارة عن (٢٥٩) مليار مرك وذلك في (بولونيا) ثم تقرر في (مؤتمر باريز) الذي عقد عام (١٩٢١) أن يجعل (٢٢٦) ملياراً على أن تدفع في خلال (٤٢) سنة و بعدئذ أنزل الى مبلغ (١٣٢) ملياراً على أثر المؤتمر الذي عقد في لندرة وفي هذه المرة أيضاً و بعد انعقاد مؤتمر لندرة أنقص المبلغ أيضاً وجعل (١٣٢) ملياراً أما الدفع فقد قسم في هذه المرة أيضاً كما هو الحال في كل مرة ـ على أقساط سنوية

ان رجال الحكومة الانكليزية الذين سببوا هذا الانقاص المتوالي أخطأوا فى الحقيقة خطأ عظيما باثارة سخط حليفة قوية لاجل بعض أرقام كان يجب أن لا يخفى عليهم ادراك الوجهة الخيالية فيها فهل كانوا يظنون حقيقة أن شعباً يعد (٦٠) مليون نسمة يمكن أن يدفع للذين غلبوه غرامة سنوية باهظة مدة نصف قرن ؟ وللمستر

« اسكويث » الوزير البريطانى الاول سابقاً في هذا الصدد آراء لا مجال للجدال في سدادها وقد أتينا على ذكرها فيما يلى :

قال الوزير :

« ان ا ... سورين أن باستطاعة تلك (الحفنة) من الرجال الما ... في ... حول الموائد مهما أوتوا من المعرفة والفطنة ومهما لهم من ... السياسية ــ أن تتنبأ عما سيحدث في صدد دفع ... لمان ... حتى مضى عشرين أو ثلاثين أو أربعين سنة ... بذهابهم هذا المذهب أنهم شربوا كأس السذاجة وسرعة ... حتى الثمالة كما أنهم يبرهنون على نقص في قوة التفكير ... السذاجة ونقص التفكير من العيوب التي لا تشرف رجال ... في الزمن الراهن » اه

الذي تجب معرفته هنا هو أنه لا فائدة من التنقيب عن النتائج التي تعود على مختلف الشعوب الاوربية اذا دفعت المانيا ما عليها من مال التعويض ما دامت (أى المانيا) قد تملصت من كل ما من شأنه أن يجعل دفع مثل هذه التعويضات ممكنا باصدارها عدداً من الأوراق المصرفية كفت وفرته لجعل قيمة هذه الأوراق قريبة من الصفر . ولقد رأينا في غير هذا الفصل على أي الشعوب ستقع في الحقيقة نفقات الحرب

الفصل الخامس

اسباب غلاء المعيشة

يتصور جمهور الناس أن الحوادث تنشأ دوماً عن سبب واحد فقط ولا أهمية فى نظره كثيراً لأن يكون هـذا السبب صحيحاً حقيقياً بل يكفي أن يكون بسيطاً . ان الحوادث التى نشعر بهـا مرتبطة ببعضها ارتباط حلقات السلسلة فهذا الارتباط الذي هو على غايةمن الاشتباك والتعقد ليس من الأمور التي يسهل سبر غورها على الجماعات ، بل أن المشترعين الذين يسيرون في هـذه الحيـاة منقادين لعواطف الجماعات ومشاعرها ليس سبر غور هذا الارتباط بأسهل عليهم من الجماعات ذاتها

ان الافـكار البسيطة التي تملء أدمغة جمهور الناس تدفعهم الى تطلب طرائق ابتدائية لحل أعوص القضايا وأصعبها . عندماتزداد أثمان البضائع والحاجيات أو أسعار أجور السكن هل يوجد ـ في الظاهر ـ أسهل من معالجة هذا الأمر بوضع (تعريفة) خاصة تحدد تلك الأسعار ؟ لقد أظهر عدد كبير من التجارب أن النتيجة التي

كان يحصل عليها من وراء تطبيق هذه الطريقة كانت تأتى مخالفة تماما للغرض الذي كان الأمل معقوداً عليه ؛ ولكن التجربة قلما تشترك مع العناصر التي من شأنها إقناع الشعوب وإلقاء الحقائق فى عقول أفرادها

فلكي يصغى الناس لفكرة من الافكار البسيطة ويقبلون بها يكفي أن تكون هذه الفكرة مشحونة بالآمال، ملأى بها

في البلاد التى يسود فيها الرأي على غير هدى تحصل الأفكار البسيطة بسرعة مهما كانت مخالفة للصواب على قوة يبلغ من شأنها أن الحكومات ذاتها تصبح عاجزة عن تذليلها والتغلب عليها، فتخرج من مناوشتها بخفي حنين ويتولد لها عن هذه المناوشات ضعف كبير جداً ومن حيث النتيجة تصبح المناهج التي تسير عليها الحكومات عرضة لتغيير وتبدل مستمرين

***

ان دراسة وجيزة لقضية غلاء المعيشة من شأنها أن تؤيد ماجاء في الجمل السالفة عن خطر الأفكار البسيطة

يتخيل جمهور الناس بل وبعض الذين نالوا قسطا من الثقافة أيضا أن غلاء المعيشة يرجع الى أسباب بسيطة كجشع « الوسطاء » مثلا ، وبلغ تمكن هذا الاعتقاد في الأذهان حينا من الدهر حداً

جعل جمعية تضامن العمال العامة تقرر القيام باضراب عام لكي تجبر الحكومة علي اتخاذ العقوبات الصارمة نحو التجار

في حين أن هذه القضية التى يبدو حلها للعقول القليلة التأمل والتبصر على غاية من البساطة هي بالعكس على غاية من التعقد والاشتباك وسيحكم القراء في هذه القضية عند مايطالعون أسبابها الرئيسية التى أتينا على تعديلها فيما يلي :

« تأثير مطالب المنتج وادعاآته » : — ان ارتفاع الأجور وازدياد الأرباح التجارية زمن الحرب قد زاد بوجه خاص في عدد وسائط الابتياع التي يتمكن بها المستهلكون من الحصول على مايريدون فجعلهم أكثر قدرة على الابتياع من ذي قبل بينما الانتاج يتناقص ويقل ، و بسبب قانون العرض والطلب الذي لايمكن أن يلحقه فناء أو تزعزع رأي التجار أن ينتفعوا من ازدياد سعة زبائنهم المالية فزادوا في أثمان البضائع وما اليها

ولكى نقرر الحقائق في الأذهان بمثال على غاية من الجلاء والوضوح لنفرض أن هناك جزيرة محمية من كل تدخل أجنبي بواسطة حواجز جمركية شديدة تقارب شدتها درجة المنع البات ، وفى هذه الجزيرة سوق من قبيل الأسواق الأسبوعية يرد اليه أسبوعيا مئة أرنب بينما عدد المشترين يبلغ المئتين

فبسبب قانون العرض والطلب الذى ألمعنا اليه فى الأسطر السالفة والذي هو قانون لا يقهر ولا يباد يزداد سعر الأرانب التى هى عبارة عن البضاعة المعروضة ارتفاعا الى أن يسقط من عدد الطالبين وهم (٢٠٠) مئة شخص لا تعود سعتهم المالية تساعدهم على الابتياع بالسعر الذي وصل اليه ثمن الأرانب

فيقوم هؤلاء المئة الدين أغضبهم اخفاقهم فى الحصول على الأرانب بأضراب لكي يحصلوا على زيادة في الأجور التى يتقاضونها تساعدهم هم أيضاً على ابتياع الأرانب

فلما يحصلون على مبتغاهم و يفوزون بالزيادة التى طلبوها يعودون الى السوق عندما تفتح فى الأسبوع التالى بأمل أن يحصلوا على الأرانب المبتغاة ، لكنه لما كان يجب دوماً أن يسقط من عدد المشترين مئة بالنظر لأن السوق لا تستورد في كل أسبوع سوى مئة أرنب فقط — فان السعر يصعد في هذه المرة أيضاً و يزداد صعوداً الى أن يصل الى حد لا يستطيع معه ابتياع الحيوان المبتغى سوى مئة شخص فقط ، فهذه النتيجة تظل في كل مرة علي ماهي فلا تتبدل ولا تتغير مهما ارتفعت أجور التواقين الى الحصول على أرنب

وعند مايصل ثمن الأرنب الى حد لا يقوى على احتماله أحد من

جراء المنافسة التى يقوم بها المشترون يغضب الجمهور ويطلب وساطة الحكومة

أما هذه فلما كانت لاتستأنس كثيراً بقوانين العرض والطلب ولم تتقور روابط الألفة بينها وبين تلك القوانين فانهاتضع (تعريفة) تحدد بها السعر لأقصى الذي يجب أن لا يتعداه باعة الأرانب

أما نتيجة هـذه الطريقة فان ظهورها آني اذ انها في الأصل مخالفة للغاية المبتغاة على خط مستقيم، وهكذا فلا تـكاد (التعريفة) تعلن رسمياً حتى ترى المئة أرنب التى تعرض أسبوعيا قد اختفت من السوق ونقلت الى « المخبأ » الـكائن فى مؤخر الحانوت وهناك تباع بأسعار باهظة تزيدعن الأسعار السالفة أيضا ويبرر هذه الزيادة الفاحشة مايتعرض له الباعة من أخطار المطاردة

ليس هذا المثل خياليا كما يمكن أن يظن بل هو أبعد مايكون من الخيال فهو يلخص الحوادث التي يتكرر وقوعها آلاف المرات منذ أوائل الحرب والتى لم تتقف مع ذلك أحداً ولم يعتبر بهافردمن الأفراد، ان القوانين الحامية الموضوعة بشأن التخمين التجاري المخالف للحق والنظام وبشأن أجور السكن وما اليها تدل على أن رجال التشريع عندما يواجهون بعض الحوادث الاقتصادية لا يدركون من كنهها شيئاً ويكاد عدم فهمهم لها أن يكون تاما

قانون الثماني ساعات : ـ لما كان الانتاج لم يعد كافياً في جميع الجهات وبما أنه أصبح من الضروري أن تبذل المساعي لتزييده وانمائه قام الاشتراكيون فحملوا الحكومات على قبول القانون الذى تحظر مواده تشغيل العمال أكثر من ثماني ساعات في اليوم. فكان من نتائج هذا القانون المباشرة أن زادت أسعار المعيشة ازدياداً فاحشاً وأثرى باعة الخمور فاصبحوا من ذوى الثروات الطائلة

ولقد كان لهذا القانون المخرب نتائج أخرى أيضاً فقد اضطرت السكك الحديدية والسفن التجارية أن تضاعف عدد مستخدميها وازدادت أجور النقل لهذا السبب ازدياداً جسيما وبلغ الازدياد حداً اضطر ولاة الامور لأن يستثنوا عمال الشحن البحري من التمتع بقانون الثماني ساعات عند ما رأوا أن تجارتنا البحرية قد فنيت على الكامل من جراء المنافسة الاجنبية

تقدم مبدأ الايتاتيزم وازدياد الفساد في الشؤون الادارية : ـ

ان تقدم مبدأ الايتاتيزم تحت ضغط الاشتراكيين وازدياد الارتباك الادارى الذي نجم عن تقدم ذلك المبدأ قد أوجبا انفاق مبالغ جسيمة فغدت الحكومة مجبرة على وضع ضرائب جديدة ونشأ عن ذلك من حيث النتيجة ازدياد أسعار المعيشة

ينتسب عندنا لبعض وزارات مستقلة عن بعضها عدد لا يحصيه

عد من الموظفين . لكن التفاهم بينهم لم يتم في يوم من الأيام . فبدون اتحاد هؤلاء الموظفين في العمل لا شك بأن اتخاذ أقل تدبير في بلادنا هذه غير ممكن . اذا كانت المراكب التي جعلت ملكا للحكومة تسافر من (بيزرت) الى فرنسة وهي خالية بينما تتفعن في جانبيها جبال وتلال من الحبوب كما ألمعنا الى ذلك بموجب تقرير قدم الى مجلس النواب فما ذلك الا لأن الموظفين الذين يعطون للمراكب الامر بالسفر لا يوجد بينهم و بين الموظفين الذين يستطيعون اعطاء الامر بتحميل تلك المراكب أي علاقة أو ارتباط

كتب المسيو (ج . بوردون) مرة يقول :

« لا توجد هناك وحدة في المناهج ولا أثر للانتظام في الوسائط الاجرائية . فالوزارات والمصالح أي الادارات يتطاول بعضها على بعض . أما الاختلاط والتشبك بينها فعلى أشده وبين كل آونة وأخرى تتصادم وتتلاطم وكل منها تشل حركة الأخرى وتعرقل أعمالها ومساعيها . ولئن كان الاشخاص الموجودون على رأس المصالح من ذوي الطوية السليمة والنية الخالصة فانهم قلدوا وظائف لا تلتئم مع اختصاصهم ولا تتطابق ، وهم في عراك و نضال مع مباراة المصالح المنافسة لهم ومزاحمتها كما أنهم ينالون أضرار وشايات الموظفين الذين ينقادون لآراء وأفكار تخالف الآراء والافكار التي

يسيرون عليها فيسعون بهم عند ولاة الامور، اضف الى هذا تشوه صورة الكفاءات في سلم المراتب والدرجات . والالغاء الذي أخذ يصيب الأوامر من جراء أوامر مخالفة لها ، وتعاكس هذه بدورها مع آراء بعض ذوى السلطات وغدوها عرضة لانتقاداتهم واعتراضاتهم وترا كم البلاغات والمناشير التى يناقض بعضها بعضا ، وامتناع الموظفين الذين تتعلق هذه البلاغات بهم حتى عن تكليف انفسهم عناء قراءتها والاطلاع على ما تحويه . ولهذا ترى أنه لا يزال علينا أن نفتش وننقب عن أسرار هذه الادارة . » اه

وبالرغم من أن الامور بالغة من الاتضاح والجلاء أقصى حد فاننا لا نزال نتمسك بالطرائق التى نتبعها . أن السير على طريقة جعل كل شيء بيد الحكومة لا بد من ان يقود جميع البلاد التى لا تعرف كيف تتملص من اتباع تلك الطريقة الى الدمار وخراب الديار .

واقد ألف المسيو (غستون جابى) وهو من أعضاء مجلس الشيوخ كتاباً جمع فيه عدداً كبيراً من الوثائق والمستندات، وتعرض في مؤلفه للبحث في شأن القضية التى نحن في صدد الكلام عليها فأتى بالارقام التالية فكانت من البينات التى لا تقبل المعارضة

قال المؤلف المذكور :

كانت خزينة السكك الحديدية التابعة للحكومة عام (١٩٢٢)

تحت عجز يبلغ (٤٣٠) مليوناً . أما استثمار الاسطول التجاري الذى جعل ملكا للحكومة فكان يأتي بما يعادل (٣٠٠) مليونا وأما حصر الدخان فيعود على خزينة الحكومة بمبلغ يقرب من ثلث مبلغ الرسوم التى تتقاضاها انكلترة عن الدخان بالرغم من ان الادارة في بلاد الانكليزلا تتعاطى صنع هذا الصنف .

اصدار عدد محدود من الاوراق المالية وارتفاع الاجور : —
لقد درسنا فى الاسطر السالفة منشأ طريقة تكثير عدد الاوراق المالية الجبرية التداول تكثيراً مفرطاً · فلهذه الطريقة نتائج مختلفة سنحت لي فرصة التدقيق فيها مراراً مختلفة في هذا الكتاب . أما هنا فانى لن أتكلم سوى عن تأثيرها في غلاء المعيشة

فمن النتائج الأولية لهذه الطريقة أي طريقة أصدار عدد غير محدود من الاوراق المالية كونها جاءت مساعدة على انهاض رواتب المستخدمين وموظفى السكك الحديدية (١) وجميع العمال

(١) كان العامل في السكك الحديدية يتناول قبل الحرب (١٨٠٠) فرنكا فاصبح الان يتقاضى (٦٠٠٠) فرنك ويستريح شهرين في العام ويشتغل ثماني ساعات فى اليوم ويحال على المعاش في الـ (٥٥) من سنى حياته أما النفقات التي تتكبدها الشركات سنويا على الموظفين فبعد أن كانت تعادل (٧٥٠) مليونا ارتفعت اليوم حتي غدت تساوى ثلاثة مليارات · فنتج عن ذلك أن الشركات غدت اليوم تحت عجز يبلغ أربعة مليارات ويظن أهل الخبرة أن مبلغ هذا العجز سيزيد مليارين تقريباً بعد برهة وجيزة · وفي هذا سير سريع نحو الافلاس

فنتج عن هذا أنه أصبح بامكانهم أن يزيدوا في نفقاتهم بينما الواجب يقضي عليهم بأن يخفضوها بالنظر لعدم كفاية المحاصيل في كل مكان

ان الاستمرار على إصدار عدد غير محدود من الأوراق المالية كان من شأنه أن قلل الثقة بأوراقنا المصرفية في الخارج بسرعة كلية ففي انكلترة وأميركا وسويسرا لا يقبل الفرنك أبداً الا بما يعادل ثلث قيمته الأصلية تقريبا

نتائج غلاء المعيشة : — ان نتائج غلاء المعيشة أكثر من أن يمكن تعديدها هنا ، فبعض هذه النتائج بعيد المدى، كتناقص عدد المواليد ، وبعضها آنى كتناقص صفات عدد كبير من الأشياء المصنوعة وغدوها أبسط مما كانت عليه

ولما كانت مراعاة الاتقان والجودة في صنع الأشياء غدت تكلف نفقات كبيرة وأصبحت سعة كثير من المشترين المالية محدودة إذ غدا يحيط بحديثي الغنى جيش من المفتقرين حديثا قام على إنقاض جماعة الطبقة الوسطى قديما ـ فقد أمسى من المتحتم على أصحاب المعامل أن يجعلوا مصنوعاتهم أبسط مما كانت عليه وأن يقللوا كثيراً من عنايتهم باتقانها واختيار الجيد من مواردها الأولية لكي

يتمكنوا من تخفيض أسعار المبيع ، أما فيما يتعلق بصنف الثياب وأدوات المفروشات (موبيليا) فان اتباع البساطة في صنعها وانقاص الصفات الكمالية منها قد بلغ حدا سيؤول بعد برهة وجيزة الى جعل اصدارها الى الخارج مستحيلا

قيمة الوسائط التى اقترحت لمعالجة قضية غلاء المعيشة ان الاخفاق الكامل الذى لقيته الوسائط التي جربت لمعالجة غلاء المعيشة تثبت اثباتاً كافياً الى أى حد وصل اغفال بعض القوانين الاقتصادية الاساسية. ويستطيع رجال التشريع عندنا أن يتحققوا في كل يوم أن القوانين التي تنقاد اليها الامور في سيرها وتقلباتها متسلطة على كامل نياتهم وأغراضهم

ان الوسائل القانونية التي جربت لمعالجة غلاء المعيشة هي الآتية (١) إنهاض مبالغ الأجور . (٢) وضع (تعريفات) تحدد أسعار البضائع (٣) اتخاذ العقوبات الصارمة ضد المضاربين والتجار . لكن جميع هذه الوسائل التى عولجت بها قضية غلاء المعيشة لم يكن من ورائها الا وقوع بعض الازدياد في الغلاء . أما تعليل حدوث هذه النتيجة المعكوسة فانه سهل ميسور .

أما فيما يتعلق بانهاض أجور العمل فقد أبنت قبل اسطر أن هذا الانهاض مهما كان مقداره لاياتى بنتيجة أخرى غير انهاض

أسعار البضائع أيضاً . ولقد بلغ من دعم التجربة لهذا الزعم وتأييدها لصحته ان غدا الاسهاب فى شأنه عديم الجدوى واللزوم .

أما (التسعير) الذي لايفتأ يلجأ اليه بعض المشترعين الذين هم فى الحقيقة ذوي أفكار لم تستنر كثيراً فانه يعود على غلاء المعيشة بالتأثير نفسه الذي ينجم عن إنهاض أجور العمال . فهو يرفع الأسعار ولا يخفضها أبداً .

ولو كانت التجربة ، لامطاليب ذلك الرأي العام الأعمى هي التى تقود رجال التشريع عندنا فى معارج الطرق إذن لتذكروا أن مجلس الثورة الفرنسية بعد أن جرب هو أيضاً طريقة تحديد الأسعار عاد فعدل عنها واعترف أمام الملأ بخطأه .

أما الواسطة الثالثة لمعالجة غلاء المعيشة أي اتخاذ العقوبات الصارمة نحو الباعة الذين يبيعون بأثمان فحشة ، فهي متمادية فى الخيال أكثر من الواسطتين السالفتين . فلقد تعسرت في الحقيقة (كما أبنت ذلك فيما سلف بمثال صريح محكم) بأذيال ذلك القانون الأبدي قانون العرض والطلب الذى يعين أثمان الأشياء بمعزل عن تدخل المتشرعين وتوسطهم .

أما فيما يختص بالقوانين التى فكر ولاة الأمور بتطبيقها على

عبدة الربح من التجار فانها جميعاً لا تستطيع أبداً تخفيض سنتيم واحد من أسعار سلعة من السلع لا في زمن الحرب ولا فيما بعد الحرب . وكان الباعة يعرضون للمبيع كمية قليلة من السلع (المسعرة) لكي يتظاهروا بالأذعان للأنظمة والقوانين . أما تلك الكمية فقد كانوا يقسمونها على الطالبين فيعطون كلا منهم نذراً يسيراً بعد انتظار كان يدوم ساعات طوال أمام دكاكين الباعة . أما الشطر الأوفر من السلع فقد كان يباع بعدئذ في طي الخفاء للزبائن الذين ترتضى نفوسهم الحصول عليها بسعر يزيد عن السعر المحدد .

وأما من خصوص القوانين الجديدة وبخاصة تلك التي تتعلق بتحديد أجور السكن فقد كان من نتائجها الآنية أن أصبح تشييد الأبنية وأعمار العقارات من الأمور النادرة بينما أزمة أجور السكن تزداد يوماً عن يوم . أما الذين اقترحوا تلك الأنظمة فقد برهنوا على أن العمى قد بلغ من بصيرتهم حداً لا يمكن تصوره وادراكه . أما الغاؤها فسوف لا يتوجب الا بعد تجارب تعود بالخراب والافلاس أى عندما يتحقق ولاة الأمر أنه لم يبق بين الناس من يقدم على تشييد الدور وبناء المساكن مثلا .

أما وقد انتهينا الى هنا من اظهار مبلغ الوهم الذى قامت على أركانه الوسائط المقترحة لمعالجة قضية الغلاء فقد بقي علينا أن

نفحص ماإذا كان لايوجد هناك وسائط تفوق الوسائط السالفة تأثيرا

ان الوسائط التي هي على هذه الشاكلة لايمكن أن نعدد منها سوى ثلاث (١) جمعيات المستهلكين المتعاونة. (٢) الغاء الرسوم الجمركية. (٣) تزييد الانتاج .

ان تأثير الواسطتين الأوليين آني ولكنه ضعيف . أما تأثير الواسطة الثالثة فهو بعيد الا أنه عظيم هام . بل ان هذه الواسطة الثالثة هي الوحيدة التى يمكن الاعتداد بها اعتداداً حقيقياً . ومن السهل إثبات أمرها بدون أن يكون هناك حاجة للشروح والايضاحات المطولة .

أما عن الجمعيات المتعاونة فلا يجدى الكلام الكثير نفعاً مادام نجاحها ضعيف دوماً فى فرنسة . وتستطيع هذه الجمعيات ولكن من الوجهة النظرية أن تعود على الجمهور بالربح من وراء الفرق الجسيم الكائن بين الثمن الذي يدفع المنتج و بين الثمن الذي يدفعه المستهلك والذي خفض بوجه عام بقدر النصف منذ أيام الحرب . ان فكرة التضامن والنظام اللذين يتطلبهما تحقيق المشاريع التى ترمى الى التعاون مفقودين مع الأسف في فرنسة .

اذا تحققت سهولة الاستيراد التى تنتج عن الغاء تلك الرسوم الجمركية التى تكاد فداحتها تحول دون مرور البضائع والسلع

وما اليها ، اذا تحققت هذه السهولة فانها تغدو واسطة تفضل الطريقة السالفة من حيث تخفيض أسعار المعيشة . ولكن سلطة كبار المنتجين في البرلمان عظيمة لدرجة حكم علينا معها أن نبقى لمدة طويلة خاضعين لنوع من أنواع (الحماية) دونه كل الأنواع .

ان حكامنا الذين يظهر عليهم أن الخوف من هجوم سيل المنتوجات الألمانية يكاد يفقدهم اطمئنان النفس و راحة البال قد ذهبوا فى خوفهم ضحية وهم اقتصادي . أما الانكليز والاميركيون والايطاليون فقد استطاعوا التملص من هذا الوهم . وهم (أي حكامنا) لو تمعنوا قليلا في هذا الأمر لتحققوا بدون شك أن الألمانيين اذا تمكنوا من صنع بضائع جيدة بأسعار تساعد على رواجها فان سيلها سيتدفق نحو اسواقنا مهما كانت الحواجز التى يخطر لنا أن نضعها في سبيلها ففي أول الأمر تبتاع انكلترة و بلجيكا وسويسرة واضرابها تلك البضائع بسعر دون قيمتها الحقيقية بمبلغ كلي وذلك بفضل أسعار « السحب » ثم تعود تلك البضائع الينا بعد أن تتراكم عليها الزيادات الهائلة وذلك من قبل البلاد التى لامفر لنا من الاتجار معها الا اذا أحطنا أنفسنا بجدار من (بلاد الصين) مع مايجره علينا هذا الجدار من الافلاس الأكيد .

ان الاستيراد الذي لايرافقه اصدار يعادله ويعوضه لايعد في الأصل كما سبق لي أن ألفت النظر الى ذلك،سوى عملية وقتية لايستمر أجلها طويلا . لأن البضائع لا يمكن أن تسدد قيمتها في النهاية سوى بضائع أخرى . لكن مما لاشك فيه هو أن المكانة أو النفوذ المالي يساعد على الاستعاضة عن البضائع بأوراق مالية وهذه عبارة عن وعود ليس إلا . لكن مثل هذه العملية الا يمكن أن تستمر كثيراً . إذ أن الاستيراد الذي لايقابله اصدار ليس سوى نوع من أنواع القروض والشعب لايستطيع أن يستمر على العيش على حساب القروض .

فلكي نرمم ماتخرب من ديارنا ونسدد ديوننا ونخفض أسعار المعيشة، لم يبق من الوسائط التي عددناها قبل أسطر سوى واسطة واحدة لم نتكلم عنها بعد وهي ان ننشط الانتاج في بلادنا وبخاصة الانتاج الزراعي تنشيطاً كبيراً وبأسعار تجعل الاصدار ممكناً .

ان التعبير عن الدستور من السهولة بمكان ، الا أنه يجب تكريس مجلد خاص لا لأجل إثبات اهميته وخطورته واظهارها إظهاراً كافياً ، فقط ـ بل لتبيين مافي تحقيقه من الصعوبات أيضاً .

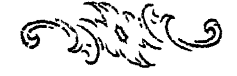
بالرغم من أن فرنسة تمتاز بكونها بلاد زراعية فان استثمار الزراعة فيها لايزال في حالة ردية جداً بلغ من رداءتها ماجعل فرنسة

مضطرة لاستيراد كميات من القمح والسكر والفواكه والبطاطا وما اليها بمبالغ جسيمة .

أما انتفاعنا من مستعمراتنا فلا يزيد على انتفاعنا من بلادنا ذاتها فلقد كانت هذه المستعمرات قبل الحرب في حوزة الأيدي الأجنبية من الوجهة التجارية . ولقد نشرت الجورنال دوجنيف مؤخراً مقالا فأسهبت في الكلام حول عظمة أمبراطوريتنا الاستعمارية وبوجه خاص حول عجزنا عن الاستفادة منها والانتفاع ، ذلك العجز الذي يبعث على الدهشة والعجب . ومما قالته : «ان الأجنبي هو الذي يجر مغنما من المستعمرات الفرنسية . ولقد تركت فرنسة لمزاحميها مايزيد على النصف من تجارة تلك المستعمرات كما هو الحال في الديار التونسية بل لقد كانت في أغلب الأحيان تترك لهم مايربو على الثلاثة أرباع . أما في الهند الصينية فلا يعود عليها سوى الثلث من الدخل والخمس مما صدر الى الخارج . » اه

ان جميع هذه الأشياء وأشياء أخرى كثيرة على شاكلتها يجب أن تذكر ويعاد الكلام عنها ويقرر بلا فتور ولا كلل. أما مستقبلنا فهو يتعلق بكد وجهد نقوم بهما باصرار سعياً وراء وجهة معينة لارائد لنا فيها سوى الذكاء والفطنة أن العمل اذا أدير ادارة حسنة فهو الضمانة التي تكفل المقدرات السعيدة والمستقبل المملوء

باليمن والفلاح . أما التقاعس والعجز ومماحكات الأحزاب والجماعات ومنازعاتها فكلها تؤدي الى الانحطاط الذي تطغى لجج بحره الطامى فتغرق جميع الشعوب التى لم تهتد الى التوفيق بين المناهج التى تتبعها وبين الضرورات الجديدة التى ولدتها الحوادث وأخرجتها لعالم الوجود .



الكتاب الرابع

اختلال التوازن الاقتصادى فى العالم

الفصل الأول

القوى الجديدة التى تدير العالم

لما كان التوصل الى عالم الامور الاولية غير ممكن فان جوهر القوى المادية أو طبيعتها الباطنة لا يزال مسدولا عليه ستار من الغموض فلتعريف هذه القوى أصبحنا مضطرين لأن نقول انها (بواعث للحركة وعلل لها)

ان الطبيعة الباطنة للقوة المحركة التى تدفع الاشخاص للحركة لا تزال كذلك مجهولة غامضة غموض طبيعة القوى المادية فيجب والحالة هذه أن نقلد العلماء باتخاذ الحيطة فنطلق على البواعث المختلفة لأفعالنا وأعمالنا اسم (القوى) ليس إلا

فهذه القوى يمكن أن تكون باطنة و بعبارة أوضح متولدة عن

ذاتنا : كالقوى الحيوية والقوى الحساسة والسرية أو التصوفية والفكرية كما أن تكون هذه القوى مستقلة عنا كالوسط والتأثيرات الاقتصادية

ففي امتداد الادوار التي سبقت التاريخ كانت القوى الحيوية سيما منها الجوع ، هي وحدها تقريباً المسيطرة على حياة البشر . فلم يكن للبشرية من مثل أعلى تستطيع الوصول اليه سوى الاقتيات والتناسل .

و بعد أن (تكدست) الأجيال أصبح أمر الحياة سهلا بعض السهولة عن ذي قبل ، وظهرت لحيز الوجود بعض علائم الجمعيات . فعقب زوال القبيلة الرحلة ظهور القرى ثم المدن الى أن ظهرت في النهاية الامبراطورية

ففي ذلك الحين فقط استطاعت المدنيات العظمى أن تبرز للعالم وتشييد أركانها فيه. ولقد كانت هذه الحضارات على صور مختلفة وذلك حسب الوجهة التي كانت القوى تدفعها نحوها

ولقد ولدت الحاجات الحيوية و بعض عناصر القوى الشعورية كالطمع بعض الحضارات في شكل عسكري تشابه المدنيات التي جاءت بها روما (السلطنات) الاسيوية العظمى

ولما رجحت كفة القوى الفكرية من حيث النفوذ والقوة ظهرت المدنية اليونانية مع ما جاءت به من آلات الفكر والفن الفريدة .

ولما ظهرت القوى الاعتقادية أو التصوفية لحيز الوجود دخل العالم فى عصر (القرون الوسطى) الذي جاء بالمعابد العظيمة والحياة الدينية الشديدة .

***

يتضح مما سبق أن الحضارات العظمى التى ظهرت على سطح الكرة الارضية كان لها بواعث وأسباب مختلفة . ولكننا اذا أمعنا النظر نجد أنها تشترك جميعاً بوصف واحد خاص وهو كونها تأثرت بانواع شتى من (الالوهية) التى هي حائزة على سلطة عظيمة سامية . ولقد ساد الاعتقاد زمناً طويلا بأن الآلهة عبارة عن محصلة لمشاعر الأشخاص وحاجاتهم وأحلامهم ومخاوفهم وآمالهم ، وفضلا عن ذلك فقد اعتقد الناس أيضاً انها وحدها خليقة بأن تقبض على زمام الامور فى العالم وإن من شأنها هي فقط ان تجيب على الـ (لماذا) التى لا يدخل عددها تحت حصر ، والتى ترددها المخلوقات المحاطة باشياء مريعة تبعث على الخوف والرعب ولا تفهم لها حقيقة ولا كنها .

ففي ذلك الزمن الذي كانت السيادة فيه للقوى التصوفيــة أو الاعتقادية لم تستطع اي جماعة من الجماعات كبيرة كانت أو صغيرة أن تتملص من تلك السيطرة بوجه من الوجوه . ولقد بلغ من شأن تلك القوى ان أعظم المدنيات شدة ومنها خصوصاً ما يطلق عليــه اسم

البوذية والنصرانية والاسلامية قد سميت باسم الآلهة التى أوجدتها

إن الشعور بالحاجة التصوفية أمام المعتقدات من العناصر الثابتة في الطبيعة البشرية التى يظهر انها من الثبات بدرجة لا يمكن لأي العوامل أن تقوى على زعزعتها . وعندما يزول اعتقاد الشخص بالآلهة التى يتمثلها فى باله يحل على الفور مكان يقينه بتلك الآلهة يقين آخر بالوهية غير شخصية إما بشكل عقائد أو دساتير . وترى اتباع هذه العقائد يعزون اليها نفس القوى التى كانوا يعزونها للآلهة القديمة . وفي الحقيقة أن هذه الذهنية الدينية اليوم من الشدة بما يعادل شدتها في أبسط الازمنة المنصرمة وأقربها الى الفطرة الساذجة ، وغاية ما هنالك أنه بالكاد طرأ على شكلها بعض التبدل ليس إلا

وهكذا فان المعتقدات الحديثة كالاشتراكية (والسبيريتيزم) والشيوعية وما اليها تستند علي ذات الاسس والدعائم النفسية التى استندت عليها العقيدة القديمة . وان لها كذلك رسلاً وحواريين كما أن لها أيضاً شهداء . هذا وقد سبق لي أن أسهبت الكلام كثيراً في مختلف المؤلفات التى وضعتها عن تأثير التصوف الاساسى فى التاريخ لدرجة لم يعد فى الرجوع اليها هنا من فائدة

***

لقد انضمت على القوى الحيوية والحساسة والتصوفية التي قادت الشعوب أثناء سيرها في طريق التكامل مدة من الزمن لوحدها تقريباً نقول انضمت الى تلك القوى بعد حين القوى الفكرية التي لم تمض برهة حتى كان لها شأن وأي شأن . فقد حولت هذه القوى جميع شروط حياة الشخص وبقاءه ولكن تأثيرها على العواطف والميول والمعتقدات لا يزال ضعيفاً لسوء الحظ . أما الذكاء الذي هو أبعد ما يكون عن أن يحصر الضغائن التي تفصل بين الشعوب وبين الصنوف المختلفة في الشعب الواحد فقد طفق يعمل لأغراض تلك الضغائن وما كان منه إلا أن زاد في تسعير نار الحروب التي لا تفتأ تفرق بين الافراد فغدا بلاؤها أعم وضررها أشمل وأصبحت ضحاياها تربو عن ذي قبل وتزيد

ان القوى التي عددناها فيما سبق تتصف جميعاً بوصف خاص وهو أنها موجودة فينا بالذات وانها قابلة للتغير والتبدل أن كثيراً أو قليلا حسب الأهواء المنبعثة عن أغراضنا ومعتقداتنا

ولكن بعض القوى الجديدة غدت تلد كما أشرت الى ذلك في بدء هذا الكتاب أمام أعين أبناء الازمنة الحديثة وتلك القوى هي القوى الاقتصادية التي لا تأثير للأهواء والمعتقدات عليها.

وهكذا فان البشرية بعد أن كانت أمورها أثناء تقلب الأزمنة

التاريخية عليها تدار من قبل مجموعة من الأوهام كالأوهام الدينية والسياسية والاجتماعية ، قد وصلت الى دور جديد غدت فيه القوى الاقتصادية مسيطرة على جميع الخيالات والأوهام

ولقد أصبحت هذه القوى التى كانت فيما سبق ضعيفة التأثير لما كانت الشعوب منفصلة عن بعضها بمسافات غير ممكن اجتيازها ، نقول لقد أصبحت هـذه القوى من النفوذ والسلطة بحيث غدت تتحكم كما تشاء بمقدرات الشعوب وتضطرها على الخروج من عزلتها وانفرادها وخلقت بينها أيضاً نوعاً من الارتباط يزداد تكوناً ونمواً يوماً بعد يوم ، وسيؤول أمره أخيراً الى القضاء على الضغائن والاحقاد التى تكننها الصدور .

ان الخراب الاقتصادي الذي ألم باوربة عقيب انكسار الألمان هو مثال محسوس يبرهن على (الارتباط) الذي أخذ يستحكم بين الشعوب .

كما أن انكلترة التى رأت هبوط صادراتها الى درجة النصف منذ ما أضاعت زبنها الجرمانيين تراها الآن تطلب مخرجا من المأذق الحرج الذي وقعت فيه والحالة السيئة التى ألقت بعدة ملايين من عمالها في هاوية سحيقة من (البطالة) والبؤس

***

واذا كنا نعود بكثرة في هذا الكتاب الى الكلام عن الدور الذي تلعبه القوى الاقتصادية فى العالم فذلك لأن تأثيرها يزداد تعاظما في كل يوم . فهي الآن في عراك مع القوى التى تقود العالم فيما سبق . هذا ولا شك في أن فاقدي التبصر من المتشرعين وجماعة المستسلمين للأوهام سيحدثون بلبلة وتقلقلا في حياة الشعوب ولكن تأثيرهم لن يبقى مستمراً . وستكون سيادة العالم في المستقبل بيد قوى اقتصادية جديدة منبعثة هي ذاتها عن قوى مادية . على أن هذه القوى الاقتصادية لم تكن تخطر على البال فيما مضى لكنها غيرت حياة الشعوب و بدلتها وسنبين فيما يلي عمل هذه القوى وتأثيرها



الفصل الثاني

الفحم الحجري وزيت البترول

القوى الجديدة المنبعثة عنهما ومكانتها الاجتماعية

ان عمل القوى المحركة الجديدة التي بقيت مجهولة حتى زمن قريب جداً من يومنا ـ نقول قريباً جداً لأنها ليست أعرق في القدم من زمن نابليون ؛ ان عمل تلك القوى غدا من الاهمية بدرجة أصبح المرء معها لا يستطيع أن يتصور تمدناً خلوا من تلك القوى

بل ان الحكومات الجديدة أصبح قياس سلطتها يقتصر شيئاً فشيئا على مقدار غناها بالفحم الحجري أو بزيت البترول . واذا كانت الحكومات محرومة من مولدات القوى هذه فلا محالة من خضوعها يوما للحماية الاقتصادية : حماية الحكومة التي تملك مثل تلك المولدات . ويقتصر الأمر على الحماية الاقتصادية أولا ثم لا تلبث بعدئذ أن ترى نفسها مضطرة للتظلل بالحماية السياسية لتلك الحكومة .

ان مكانة القوى المحركة العظمى التى لا يزال العالم حديث العهد بها تظهر بشكل أوقع في النفس عندما نعبر بالارقام عما تولده من القوى الآلية (الميكانيكية) ثم عندما نقايس الناتج بالقوة التى كان الانسان والحيوان يستطيعان توليدها فيما سبق

ولقد ثبت لي بعد عدة حسابات أجريتها يطول بي المقام اذا عمدت هنا الى بيانها أن الـ ١٩٠ مليون طن من الفحم التى كانت تستخرجها المانيا سنوياً من مناجمها في الايام التي تقدمت نشوب الحرب يمكنها أن تحدث عملا آليا يعادل العمل الآلى الذى يتمكن من احداثه (٩٥٠) مليون عامل : وزيادة عن هذا أن ذلك العامل المسمى بالفحم الحجري حائز على مزية عظمى يتفوق بها على غيره وهي أنه يأتي مقابل (٣) فرنكات بعمل لا يطالب العامل البشرى لقاء القيام به أقل من (١٥٠٠) فرنكا (١)

(١) لقد أثبتت القواعد التي استندت عليها في حساباتي هذه في كتابي الذى دعيته (الدروس النفسية المستخلصة من الحرب) . ولقد اختار المسيو (لوكورنو) ذكرها في كتابه المسمى (علم الميكانيكا) والمسيو لوكورنو عضو من أفاضل الاعضاء في اكادمية العلوم ، لكن النتائج التي حصل عليها حضرته تختلف قليلا عن النتائج التى استخلصتها أنا ، وماذلك الالآن ألارقام التى حصل عليها من سعر الفحم الحجرى في المانيا قبل الحرب كانت أعظم من الارقام التى استندت عليها هذا ، ولا بد بطبيعة الحال من تعديل الارقام التى استخلصتها حسب اسعار الفحم الحجرى في الوقت الحاضر

ولنضف على ذلك ايضاً أن (٥٠٠٠) عامل من عمال التعدين اذا اشتغلوا مدة سنة واحدة فانهم يتمكنون من استخراج مليون طن من الفحم الحجرى ، وهذا الطن يكفى القيام بالعمل الذى يقوم به خمسة ملايين عامل.

أن تزييد ثروة البلاد من الفحم الحجري يزيد في الحقيقة زيادة جسيمة فى عدد سكانها . ان مقداراً كبيراً من الفحم الحجرى مع عدد قليل من السكان أفضل من مقدار جزئى من الفحم الحجري مع عدد كبير من السكان .

بل من الواجب علينا في الأصل أن نلاحظ أن الفحم الحجري هو ايضاً من العوامل الحقيقية في ايجاد السكان ولقد أبان العلامة الاستاذ « لونا » أن المدن الانكليزية العظمى قد شاهدت ازدياداً هائلا في عدد جمهور السكان ، وكان هذا الازدياد مضطرداً مع ازدياد محصول الفحم الحجرى في جوار تلك المدن فمدينة غلاسقو مثلا التى كانت تعد (٨٠٠٠٠) نسمة من السكان عام (١٨٠١) اصبح اليوم فيها (٨٠٠٠٠٠) نسمة ، كما أن شفيلد التى لم تكن اذ ذاك سوى بلدة اقطاعية صغيرة تعد الآن (٣٨٠٠٠٠) نسمة أما (ليفر بول) فبعد أن كان عدد سكانها عام (١٧٠٠) يساوى (٥٠٠٠) صعد اليوم الى

٧٥٠٠٠٠ فجماهير السكان الجديدة هذه دليل على ازدياد السكان بازدياد الفحم الحجرى. كما أن هذه الجماهير تصبح محكومة بالموت جوعا اذا طرأ على الفحم الذي كان السبب في ولادتها والذي يقوم بأودها الآن كارثة أرضية (جيولوجيك) أفنته وأزالته من عالم الوجود

***

ان أبسط نظرة من بصرنا اذا ألقيناها على ما يحيط بنا يمكن أن تبين لنا الى أى درجة بلغ استعمال الفحم الحجري أو المحصولات المشابهة له نظير زيت البترول من المكانة فى المدنية الحديثة ومبلغ استنادها على استعماله . وكل منا يعلم جيدا أن هذه المحصولات اذا تلاشت واضمحلت تقف قطارات السكك الحديدية عن المسير. لكنه يجب علينا أن نورد هنا بعض التقاويم (ستاتيستيك) لكي نظهر أن قطارات السكك الحديدية ليست هي التى تستنفد الشطر الاكبر من الفحم . اذ أن القطارات تنفق (١٨) في المائة فقط من مجموع مقدار الفحم الحجرى . في حين أن الصناعات وتدخل فيها صناعة اخراج المعادن وتنقيتها تطلب ٤٧ في المائة. كما أن الاستعمالات البيتية تستنفد ١٩ في المائة ومعامل « الهاب » المشتعل تنفق ما يعادل ٧ في المائة

ولقد كانت مكانة الفحم الحجرى وزيت البترول جد عظيمة أثناء الحرب ولولاها لما كانت لنا مدافع ومهمات حربية وأقوات، ولما استطاعت أميركا أن تجتاز المحيط لكي تشترك في الحرب

ان الفحم هو فى الجيل الحاضر ضرورى لجميع الشعوب حتى أن الشعوب التى لا يوجد عندها فحم حجرى بدرجة كافية كايطاليا مثلا يظهر أنه قدر لها أن تصبح خاضعة للبلاد التي تملك كمية عظيمة من الفحم كانكلترة خضوع العبد لسيده

ومعلوم لدى الناس جميعاً أي واسطة هائلة من وسائط الضغط هي تلك الواسطة التي جعلت غناء بلاد الانكليز بالفحم في يد انكلترة تضغط به الشعوب التي يضطرها القدر لان تبتاع منها ما تقيل به صناعتها

وهكذا فان بريطانيا العظمى قد أجبرت فرنسة أثناء انعقاد مؤتمر (سبا) على أن تدفع لها ١٠٠ شيلين ثمن الطن من الفحم الذى كانت تبيعه لمواطنيها بـ ٤٠ شيلين فقط ويرجع السبب في ذلك لبعض الضرائب والمكوس الفادحة التي كانت تضعها على البضائع الصادرة . هذا وان منافسة الفحم الاميركي وحدها هي التي قطعت دابر هذا الاحتكار الذى أظهر بوجه خص ما أضعف تأثير المحالفات أمام المصالح الاقتصادية

ان المكانة التي بصيبها الشعب المتغلب على الشعوب المتسلط عليها قد تبلغها بعض الشعوب بفضل ثروتها من الفحم الحجرى ،

ويستطيع المرء أن يرى ذلك بجلاء اذا ما ألقى نظرة على تاريخ المانيا الصناعي والتجارى فان نهضة المانيا العظمى التي لم تبدأ قبل عام ١٨٨٩ قد كانت بوجه خاص نتيجة ازدياد عظيم في محصولات مناجمها

فلما أصبحت تنتج محصولات اكثر غزارة من الفحم الحجري غدت مصنوعات فباركها ومعاملها أوفر مادة مما كانت بدرجة قصوى، ولما غدت مصنوعات فباركها أعظم وأوفر مما كانت أمست مضطرة لان تزيد فى اصداراتها و بالتالي لان توجد لنفسها منافذ جديدة : وهكذا ففي عام (١٩١٣) بلغت صادراتها رقما جسيما يساوي (١٣) ملياراً .

وعلى ذلك فقد قضت عليها الضروة أن تصطدم بالمنافسة الانكليزية في كل مكان . وأملت المانيا أن تقضي على تلك المنافسة وتقطع دابرها فأوجدت عمارة بحرية وعسكرية قوية جداً واستمرت تهيء أسباب الحرب الى أن انفجرت تلك القنبلة . فيتضح من هذا أن ثروة ألمانيا من الفحم الحجري كانت اذن سبباً من الاسباب غير المباشرة فى نشوب تلك الحرب التى زعزعت أركان العالم .

***

لكى نبحث كيف يكون المستقبل الاقتصادي لاحدى

الأمم بصورة قريبة للصواب ما أمكن يكفي أن نعلم مقدار ماتنتجه تلك الأمة من مادة الفحم الحجرى . ان الولايات المتحدة تنتج من هذه المادة مايقرب من الـ (٦٠٠) مليون طن سنوياً ، وبريطانيا العظمى تنتج (٣٠٠) مليونا [وهو رقم يعادل ما كانت تخرجه ألمانيا قبل الحرب] أما فرنسا فانها تنتج من أصل (٦٠) مليونا التى تحتاج اليهامقدار (٤٠) مليوناً فقط : أما اسبانيا التىهى فى الدرجات السفلى تقريباً من سلم الصناعة في العالم فانها تنتج أربعة ملايين ونصف المليون فقط لاغير .

ان جميع هـذه الحوادث التى ذكرت القارىء بها تبين أن الثروة من الفحم التى تحدد قوة الشعوب من الوجهة الصناعية هي التى ستعين كذلك موقف تلك الشعوب السياسى فالبلاد التى تضطر لابتياع الفحم الحجرى التى هي بحاجة اليه من الخارج وتتكبد النفقات الطائلة فى سبيل نقله لى بلادها لاتتمكن فباركها اقتصادياً من صنع شيء من الاشياء وبالتالى لا يصبح لديها ما تصدره الى الخارج . وعلى ذلك فتصبح مضطرة لان تقصر جهودها على صنع الاشياء التى تتطلب قوة محركة عظيمة : كصناعة الساعات والاوائل الفنية وأوائل التزيين و (المودة) وما الى ذلك ، وأن

تنصب وتعكف على اكمال واصلاح الزراعة التي هي القاعدة الضرورية لدوام بقائها .

وعلى ذلك فستكون منفعة الشعوب اللاتينية التى هي من الكفاءة الصناعية بدرجة وسطى في حصر جهودها بالاعمال الزراعية و بصنع أدوات التزيين وأوائله . فهذه الضرورات هي نتائج تلك القوانين الاقتصادية التى أظهرت للقاريء مبلغ قوتها .

ان الاكتشافات العلمية الحديثة ستساعد يوماً على الاستعاضة عن الفحم الحجري بصفته منبعاً للقوة المحركة بغيره من المنابع . ولقد قادتني الاختبارات والتنقيبات المتعددة التي قمت بها في مخبرى (لابوراتوار) مدة عشر سنوات لان أثبت أن أى مادة من المواد كقطعة صغيرة جداً من النحاس مثلا هي عبارة عن حفظة أو خزانة عظيمة الاتساع تكنز ضمنها قوة لم تكن تخطر على البال فيما مضى ، ولقد أطلقت على هذه القوة اسم (القوة الكامنة في الجزء الفرد[1]) على أننا لا نتمكن فى الوقت الحاضر من الحصول الا على مبلغ دقيق

(١) لقد أبنت وشرحت هذه التنقيبات والاستقصاءات في كتابى الذى دعيته (تطور المادة) وقد أعيد طبع هذا الكتاب (٣٧) مرة وهو يتضمن (٦٨) رسما قد صورت في مخبر المؤلف

جداً من تلك القوة ولكن إذا نجح البشر في المستقبل في تجزئة المادة وتفريق جواهرها الفردة عن بعضها بسهولة فان وجه الارض يتبدل ويصبح غير ما كان . اذ أنه عندما يصبح تحت أمرة الانسان منبع لانهاية له من القوة المحركة وبالتالى منبع لا نهاية له من الثروة فان القضايا السياسية والاجتماعية الحالية لن يبقى اذ ذاك مايدعو لطرحها على بساط البحث

***

وفي انتظار تحقق هذه الامور التي قد يكون موعد تحققها بعيداً بعد ، يجب علينا أن ننظم برنامج حياتنا حسب الساعة التي نحن فيها فنسعى جهدنا لان نستعمل القسم الضئيل الذى نملكه من الفحم الحجرى في أحسن الطرق وأن نفتش عن واسطة من شأنها أن تسد النقص فى محصولنا من الفحم الحجرى

أما فيما يتعلق بأمر الانتفاع من الفحم الحجرى نقول أن الانتفاع منه لايزال ناقصا يعوزه الاتمام اذ أن (٩٠) في المئة من الحرارة الناتجة عن احراق الفحم تضيع على الكامل

ان الوسائط التى يمكن الاستعاضة بها عن الفحم الحجري لا تزال في الوقت الحاضر قليلة العدد . اذ أن العالم لا يملك

بعد من القوى التى تعادل الفحم الحجري سوى زيت البترول وشلالات المياه

أما زيت البترول فهو اليوم يقوم أحسن قيام مقام الفحم الحجرى اذ أن كيلو غراماً من البترول يحصل (١١٦٠٠) حريرة (كالورى) في حين أن الكيلوغرام من الفحم الحجرى لا يحصل بوجه من الوجوه سوى (١٠٠٠٠) حريرة . وانك لترى البواخر الانكليزية الجديدة غدت لاتستعمل سوى زيت البترول في موضع الوقود

ان زيت البترول الذى يمتاز كثيراً عن الفحم الحجرى بسبب سهولة نقله واستعماله غدا استعماله كل يوم في ذيوع مستمر . أما في أثناء الحرب فقد كان لاستعمال زيت البترول الشأن الأهم والفضل الأعم . ولقد أكد الكثيرون من القواد أن الفضل في السرعة الكافية التى أمكن بها نقل الاعتاد الحربية والجيوش التى أنقذت (فردون) يعود لزيت البترول ليس الا

ان ماسبق بيانه يوضح لنا لماذا لعب البترول ذلك الدور الهام على مسرح السياسة الانكليزية : كما أن الانكليز انما أقدموا على القيام بتلك الحروب في الشرق لكي يستولوا على منابع بترولية جديدة ليس الا

ان انكلترة تملك فى الوقت الحاضر على القسم الاكبر من امتيازات البترول في أوربة وآسيا وافريقيا وفي قسم من المكسيك لكن منابع البترول تنضب بسرعة ويتكهن العارفون بأن منابع البترول ستجف على الكامل بعد أجل قصير .

ولقد أجرى القوم في أميركا بعض حسابات تبين لهم منها أن البترول الذي ينبع في الاراضى الاميريكية سينضب بعد (١٨) عاماً هذا ولما كانت اميركا تفتش على البترول في كل مكان ولا تجد في طريقها دوماً سوى انكلترة فقد استنتجت من ذلك بان الامبراطورية البريطانية تريد أن توقف سير النهضة البحرية القائمة فى الولايات المتحدة وهذا الامر يهددنا بحرب قادمة

***

يمكننا أن نذكر فى عداد المواد التي يمكن الاستعاضة بها عن الفحم وزيت البترول الفحم الابيض ونعنى به القوة المحركة التي يمكن أن تحدثها مياه البحيرات والسيول و (الجمودات) وذلك عند ماتسقط من (مساواة) عالية الى مساواة منخفضة بتأثير ثقلها

ويؤكد فريق من الاخصائيين ان استثمار قوى جميع شلالات بلادنا يأتي بقوة تعادل قوة (٢٠) مليون طن من الفحم الحجرى ،

وهو رقم يوازى مقدار النقص السنوي الذى كان يحدث قبل الحرب على أننا لا ننتفع اليوم الا بما يعادل مليونين اثنين فقط ولأجل أن نحصل على الـ (١٨) مليوناً الباقية يتطلب ذلك نفقات هي من الجسامة بحيث أن رأس المال مع (فائدته) المضافة عليه ربما ألفا مبلغاً يربو على المبلغ الذى يتطلبه ابتياع الفحم من الخارج .

وانلاحظ بهذه المناسبة أن الفحم الحجرى الابيض يلعب منذ الآن دوراً اجتماعياً هاماً فى بعض الأيالات . ولما كان نقل هذا الفحم غير ممكن فيجب أن يستعمل بشكل كهربائية ضمن دائرة غير بعيدة كثيراً عن مكان استحصال الكهربائية . ان هذه الكهربائية التي تجرى في أسلاك دقيقة تحرك الموتورات الصغيرة ، وهذه (الموتورات) تشغل مكاناً اقل سعة من المكان الذى تشغله المكنات الكبيرة التي تدار بواسطة الفحم . فنتج عن ذلك أن أهل البلاد ذات الفحم الحجرى الابيض نظير (هوت لوار) و (جورا) و (البيرهنه) وغيرها على وشك العودة الى العمل في المساكن وترك المعامل بالنظر لسهولة استعمال الموتور الكهربائى الصغير فى المأوي الشخصى . وهو تطور اجتماعي بكل معنى الكلمة هذا الانقلاب الذى أخذت طلائعه تظهر على هذه الصورة

الفصل الثالث

موقف المانيا الاقتصادى

في ذلك السن السعيد سن الصغر حيث لا يمكن تمييز الامور الغريبة العجيبة عن الحقيقية الصحيحة ولا الامور الممكنة عن غير الممكنة وضعت الاعراض (الصدف) في يدى كتابا وقع نظرى فيه على قصة الخطوب والكوارث التى لاقاها أحد الطماعين الحديثى السن الذى باع ظله أو خياله من أحد الشياطين لقاء جملة منافع اختبأت قائمتها فى ضباب خواطرى

ولما فكرت بامعان بعد مضى زمن في هذه القصة ظهر لى أنها تتضمن معنى عميقا لا يستبعد أن يكون خفي عن مؤلف القصة . أليس من الجلى فى الحقيقة أن لكل من الحوادث والشخصيات البارزة والقوانين والسلطنات ظل يجعلها مضاعفة وأن قوة كل منها كامنة في هذا الظل ؟

ان هذه الظلال هي التي كانت لها السيادة والسيطرة في التاريخ . فان أفراد الجيوش الرومانية لم تكن هي التى حكمت العالم مدة تلك القرون . ولقد استمر يحكم العالم حتى اليوم الذى تقهقر فيه ذلك الظل الحاكم أمام ظلال أخرى أقوى منه بأساً وأشد ساعداً . وكذلك الحضارات العظمى فقد كانت جميعها محكومة من قبل بعض الظلال .

أما في أيامنا هذه فان الظلال غدت تصطدم بجدار فلزى [النحاس الاحمر] من الضرورات الاقتصادية . ومع ذلك فان قوة تلك الظلال لاتزال عظيمة جدا . ويستطيع المرء أن يلم بصحة هذا الامر اذا ماألقى نظرة سريعة على موقف ألمانيا الاقتصادى .

***

ان في عداد نتائج الحرب التى لم يسبق لأحد التكهن عنها فيما مضى ضياع النقود الذى أصاب مختلف الشعوب الاوروبية سيما منها المانيا

إننى لم أطالع أصلا تلك المجلدات الضخمة التي كرسها بعض الاساتذة الاجلاء للكلام عن علم الاقتصاد . ومع ذلك فانى اشك فى أنهم تكلموا في تلك المجلدات عن حوادث العملة المشابهة للحوادث

التى نعانيها في الوقت الحاضر

لقد اشتدت أزمة الدراهم مرات عديدة فيما مضى من الازمان وتعددت حوادث الافلاس الذى لحق بالحكومات . ولكن تلك الحوادث كانت (وقتية) سريعة الانقضاء لاتلبث حتى تزول . اذ أنه عند ما كانت العملة التى هبطت قيمتها تفقد كامل قوة الابتياع — كما حدث للأوراق المالية المسماة (آسينيا) في أواخر أيام الثورة الفرنسية كانت ترفع من التعامل وتستبدل بغيرها . أما ذوو الايراد فقد كان نصيبهم من جراء ذلك الافلاس ولا شك . ولكن شكاوى أولئك (الايراديين) الذين غدوا فقراء لم تكن لتعنى أحداً من الناس أبداً ؛ كما أن عويلهم ونحيبهم كان يبقى عديم الصدى . وكل ماهنالك أن طبقات اجتماعية جديدة كانت تحل مكان أولئك ، وكان العالم يستمر فى سيره

***

إن الامور قد غدت اليوم مشتبكة متعقدة على غير ما كانت بالامس تماماً . فان بعض الشعوب التي تجردت عن دراهمها العادية كألمانيا مثلا لاتزال مستمرة على العيش بدون معاناة أى ضيق أو عسرة بل وبرفه ورغد ايضاً . أما البلاد الأخرى نظير الولايات

المتحدة مثلا فان العراقيل غدت قائمة في سبيل تجارتها بالرغم من وفرة عملتها المعدنية حتى أن طبقات بكاملها من ابناء البلاد أمست تلامس البؤس ملامسة

فهذه الحوادث التى تبدو فريدة في بابها فى الظاهر يتضح أمرها وينجلى تماماً عنـد ما ينقطع الناس عن الخلط بين الثروة الحقيقية وبين ظل الثروة. اذ أنهم يتحققون عندئذ كما سبق لى أن أعدت ذلك اكثر من مرة — ان العملة الذهبية أو الفضية هى عبارة عن بضائع يمكن استبدالها ببضائع أخرى بكل سهولة

لمـا كان كل من الذهب والفضـة والحديد والصوف والقطن يستطيع أن يقوم مقام الآخر وكما رأينا ذلك عند ما درسنا المنابع الحقيقية للثروة ، فان البلاد التى تفقد عملتها المعدنية اذا استطاعت أن تستعيض عن عملتها المفقودة بعملة معنوية غيرها تصلح للمبادلة كالقمح أو الفحم الحجري مثلا فان أمر فقدها للعملة المعدنية لا يغدو من الأهمية بمكان عظيم .

والأمر الوحيد الذى تمتاز به العملة الذهبية أو الفضية عن غيرها هي كون أمر مبادلتها ميسور في كل البلاد بينما البضائع غير المعدنية مقبولة في البلاد التى هي بحاجة لمثل هذه البضائع فقط .

***

إن هناك بعض أسباب معروفة جداً لدي العموم لدرجة لاحاجة معها لاعادة الكلام بشأنها هنا حملت جملة شعوب منذ نشوء الحرب على ايجاد عملة صنعية ليست الا من قبيل سندات البيوتات المالية أما هذه (الاوراق) فلما كانت تأدية قيمتها غير ميسورة عند الارادة فقد كانت لاتفرق بشيء عن صكوك القروض التي لا يوجد عليها تاريخ يحدد تأدية القيمة فبظل العملة هذا يقدم لنا ظلا عن (الضمانة) ليس إلا ، فهو عبارة عن ثقة الدائن تجاه المستدين . فمثل هذه الثقة تتحول وتتبدل بطبيعة الحال بمرور الاعوام وتتقرب بالتدريج نحو الصفر، كما يري اليوم في ألمانيا ، واذا كانت درجة الصفر لم تلحق بها بعد فلأن قيمة أوراقها مهما هبطت لا تزال ظلا منعكساً عن أمل

***

ان جميع هذه الابحاث التي تكلمنا فيها عن طبيعة العملة الحقيقية لايمكن أن تؤثر على العقل الا بشرط أن تؤيدها الوقائع التي جري تطبيقها عليها :

أما هذه الوقائع فانها صحيحة محكمة للدرجة القصوى اذ أنها يتبين — كما ذكرنا القارىء بذلك فيما سبق — ان بلاداً غاطسة

حتى الاعناق فى بحر من الذهب لايبعد أن تقع في ضيق ، بينما بلاد أخرى لا تملك شيئا من الذهب بالكلية في حالة سعيدة تتنعم في رغد من العيش وترفل في حلل من البحبوحة والرخاء

أما فيما يتعلق بالحالة الاولي أي حالة توفر ثروة احتياطية من الذهب لدى أمة من الأمم فن الولايات المتحدة يصح أن تعتبر مثالا يثبت جيداً أن الذهب ليس ثروة حقيقية أو هو على الأقل ليس عبارة عن ثروة يمكن أن (تروج) وأن تصبح بذلك بضاعة من البضائع التى يمكن مبادلتها .

ولكن بسبب الفاقه التى غدت عامة في جميع الجهات فان كثيراً من المواد لم يعد يوجد لها من مشتر . وهنالك مواد غداء عدد مبتاعيها في نقص مستمر بمقدار ذلك الصعود الذى حدث في اسعار « السحب » فزاد في ثمن البضائع الواردة من انكلترة وامبركا ثلاثة أضعاف بدون أن يحصل باعتها على أى نفع من هذا الارتفاع الذى حدث فى الأسعار .

ومما لا شك فيه أن باستطاعة الامريكيين أن يضحوا بجميع ذهبهم فى سبيل ابتياع البضائع من الخارج . ولكن مؤونتهم من هذا المعدن سرعان مايصيبها النفاد حينئذ ولما كان لايتيسر

للامريكيين ان يعوضوا الذهب الذي أنفقوه بسبب النقص المستمر الذى يحدث في عدد الذين يبتاعون من عندهم فسيصبحون هم ذاتهم خالى الوفاض من العملة المعدنية

***

من الجلى انواضح أن المـانيا بدأبها على تزييد اوراقها المالية تزييداً لا حدود له ، قد حرمت نفسها من واسطة ثمينة من وسائط المبادلة ، ولكنها لما كانت تملك غير تلك الواسطة ، فان حالتها العامة استمرت جيدة ، وفي الحقيقة لم تصنع المانيا يوماً كمية من السفن ولم تشيد عدداً من المعامل يضاهي ماصنعته وشيدته في الزمن الراهن أما معاملها التى لم تضر الحرب بواحد منها . فانها لم تكن يوماً زاهرة عامرة مثل ماهى اليوم . ثم ان محصولاتها المصنوعة بسعر منخفض تكاد تطغى على العالم . اما البحرية الالمانية فهي تعود الى التأسس من جديد بسرعة كلية ، ولن يمضى عليها زمن حتى تراها قد سبقت بحريتنا وتقدمتها . ولقد زادت الاعمال التجارية وشؤون البيع والشراء في مرفأ همبورغ عام (١٩٢٢) عما كانت قبل الحرب .

ان جزءاً من هذ الفلاح الحقيقى قد نتج عن النظريت المالية

التي هي بدون شك مناقضة لدروس جماعة الاقتصاديين القديمة ، ولكن هاك النتائج التي ترمى اليها تلك النظريات : (١) تمويل الصناعة الالمانية وجعلها أغنى مما كانت . (٢) أن يباح لألمانيا التملص من دفع الشطر الاكبر مما يخصها من ديون الحرب

ان جميع الاقتصاديين يعرفون منذ أمد بعيد أن زيادة اصدار الاوراق المالية يفضى بسرعة الى زوال قيمة تلك الاوراق الكامل . ولكن الأمر الذى لم يتكهنوا عنه ولم يروه ، والذي استطاع الالمانيون أن يشاهدوه بنظرهم الثاقب ، هو أنه اذا كانت تلك الزيادة تجر الى الخراب و لافلاس فانها اذا حدثت عند شعب صناعي واستمرت زمناً كافياً يغدو بامكانها أن تؤسس ثروة وأن تكن بدون شك ثروة وهمية فرضيه الا أنه يمكن تحويلها وقلبها الى قيم حقيقية ليست خيالية ابداً

فبفضل هذه الثروة الخيالية التى أوجدت عن طريق طبع عدد غير محدود من الاوراق المالية نجحت المانيا اثناء أربع سنوات في ايجاد عدد كبير من قطارات السكك الحديدية والمعامل والبواخر واستطاعت ابتياع المواد الاولية الضرورية لصناعتها . ان جميع البضائع التى تصدرها والتى دفعت قيمة صنعها للعمال نقوداً ورقية

قد سلمتها للخارج مقابل دولارات أميريكية أو جنيهات انكليزية .

فالأمر الذي عادت به هذه العملية على المـانيا هو أنها مكنتها من استبدال الاوراق النقدية التي لم تكن لها قيمة حقيقية سوى نفقات الطبع الضئيلة بعملة ذهبية أو فضية

ان عمليات صنعية مثل هذه لايمكن ان يستمر اجلهامدةطويلة بطبيعة الحال ، ولكن المـانيا استطاعت اثناء دوام استمرار تلك الاعمال ان تنهض بشؤون الملاحة وبمعاملها وبتجارتها نهوضاً عظيما لايستهان بشأنه .

لا فائدة هنا من اطالة الكلام على ما نعتقد في صدد ذلك الموقف الاقتصادي الذى افسح المجال لعدة مجادلات ومناحثات ونتج عنه كثيرمن الاخذ والرد . بل سأكتفي بالفات النظر الى ان الآراء التي ابناها فيما سبق هي نفس الآراء التي يبديها جميع الدين زاروا المانيا حديثاً وتنطبق بوجه خص على آراء الاستاذ (بلوندل) الذي درس هذه القضية دراسة خصة . وقد أراك الاستاذ كيف قام ببناء المـانية اقتصادية خرج بناء المانيا الرسمية المفلسة .

ويبين مؤلف في كتابه ان المحلات الكبيرة التي تصنع المواد الكيماوية والسكرية والكهربائية وما اليها تدفع عن المواد التي تصنعها

رسوماً قد تزيد احياناً عن (٥٠) بالمئة ثم اضاف المؤلف على ذلك ما يلي :

كيف يعمل الالمانيون اذن وعملتهم على ماهي عليه من الرداءة وسقوط القيمة في الظاهر للحصول على المواد الاولية التى تنقصهم؟ لما كانت نفقات المواد المصنوعة مرتفعة ارتفاعاً ضئيلا فهم يبيعون ما يصنعونه ضمن شروط تساعدهم على القيام بمنافسة ناجحة في البلاد التي تكون اسعار العملة فيها مرتفعة ، ولكنهم يجتنبون كثيراً جلب الدراهم التي يربحونها الى المانيا ، بل هم يدعونها فى الخارج لأمر (الوكالات) لاجنبية في الظاهر والتي هى في الحقيقة المانية بحتة ويرجحون من تلك (الوكالات) الوكالات التى تستطيع ان تساعدهم على نوال المواد الاولية التى هم بحاجة اليها فهذه الطريقة تساعدهم على التملص من القوانين الجديدة التى وضعتها المانيا فيما يتعلق بالرسوم والضرائب . وهكذا فان الاموال التى يجب تقاضى رسوم عنها موجودة في الخارج اذيوجد في الولايات المتحدة (١٤) مليوناً من الالمانيين و بمساعدة هؤلاء الالمانيين تمكن المانيو المانيا من وضع شطر من ثروتهم في العالم الجديد . كما انه يوجد فى اعظم بقاع العالم شأناً الوف الالمانيين وهم في حالة جيدة للغاية . بل ان الحكومة ذاتها تعترف بأنها غدت لا تتمكن من مراقبة الثروات

التي يملكها ابناء البلاد بعد ان وضعوها في امكنة آمنة . ان من الغلطات الرئيسية التي ارتكبناها عام (١٩١٨) هو اننا لم ندرك وقتئذ بأنه يجب استيفاء الضمانات على الفور وانه يقتضي حلا وضع نظام يكفل مراقبة مصنوعات المعامل ومراقبة الوارد والصادر . يرينا الالمانيون اليوم خزائن وصناديق فارغة فقد حولوا عملة المرك التي كانوا يملكونها الى دولارات وجنيهات (سترلينغ) انكليزية و (فلورينات) هولندية . » اهـ

يمكننا ان نضيف على ماسبق بأن من الاسباب التي جعلت الموقف الاقتصادي في المانيا على شكله الحالي هو التخريب والتدمير الذي قامت به جيوشها (المانيا) ضمن نظام معين في كامل المؤسسات الصنعية الكائنة في شمالي فرنسة . فلقد أفنى الالمانيون معامل اخراج المعادن وتنقيتها وأبادوا المعامل الكهربائية والآلية (الميكانيكية) والمناجم وما اشبه ذلك بعد ان استولوا على عددها ويستطيع المرء ان يقدر مبلغ جسامة تلك التخريبات عندما يلاحظ ان فرنسة قد انفقت حتى الآن (٨٠) ملياراً في سبيل تجديد بناء قسم من الأبنية التي تخربت .

***

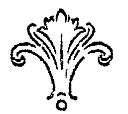
الفيلسوف (بورترو) من فلاسفة هذا العصر المشهورين ،

وقد ألف كتاباً قيما نشر من قبل مكتبة الفلسفة العلمية التى أسستها ولما عبت عليه ذات يوم تردده فى الاستنتاج أجابنى بقوله :

— ان أكثر الاشياء لاتتضمن نتائج

ولا شك بأنه كان يعنى بهذا القول ان النتيجة عبارة عن خاتمة وان المرء لا يتمكن غالباً من الحصول على نتائج معينة مادام سير الحوادث مستمراً لم يقف عند حد .

وهكذا فان جرس الساعة التى تؤذن بحلول موعد استخلاص النتائج من الصفحات السابقة لم يدق بعد أما الشعوب فلا تزال تقودها بعض الظلال . لكنها تتملص الآن شيئاً فشيئاً من سلطة تلك الظلال تحت تأثير بعض القوى الجديدة وهي تلك النواظم العظمى التى غدت تدبر نظام هذا العالم



الفصل الرابع

الاركان النفسية للضرائب الاميرية

كان علم النفس يتألف حتى سنوات معدودات من يومنا من أبحاث نظرية مجردة عن النفع العملي . فكان رجال الحكومات يتخذون بعض الحقائق التجريبية التي انتقلت عن السلف عن طريق الرواية و (التقليد) والتى كان عجزها وعدم كفايتها يبدوان كما تبدو الشمس فى رابعة النهار — كدليل يستنيرون به في اعمالهم

اما الحرب وجميع الحوادث التى تبعتها فقد جعلت علم النفس فى المنزلة الاولى من العلوم المفيدة النافعة اذ كيف يتاح للحاكم أن يحكم شعبه وللقائد ان يقود جيشه ولرئيس المعمل ان يدير امور معمله مهما كان بسيطا ، اذا كان كل من هؤلاء يجهل ذلك الفن الذى يتاح للعارف به ان يتصرف بمشاعر الاشخاص اوميولهم واهوائهم ويعلم كيف يكون قيد تلك العواطف والميول وكيف يدبر امرها

لقد سبق لى ان ذكرت قرأيي ماراً بأن الالمانيين قد خسروا الحرب لأنهم انكروا بعض القواعد الاساسية في علم النفس ولم يراعوا احكامها ، كما ان ذلك المرشال المشهور الذي استأصل شأفة الحركة الثوروية التى هبت ريحها فى فرنسة عام (١٩١٧) وتسربت الى بعض قطعات الجيش فكادت أن تؤول بالحرب الى عقبى مخربة متلفة بتلك القواعد النفسية

بل ان الامريكيين لم يكادوا يخوضون غمار الحرب حتى رأيتهم ليقينهم التام بجلال فائدة علم النفس وتطبيقاته يسارعون الى الانتفاع منه فيضعون بين أيدى الضباط مجلداً ضخما عالجوا فيه جميع الحوادث والاحوال التى يحتمل أن تعترض سبيل الضباط أثناء قيادة الجيوش وادارتها و بينوا لهم فيه كيف يكون اخماد الفتن والثورات وكيف يحرك نشاط المحاربين وهمتهم اذا طرأ عليهما الفتور والضعف وكيف تكون أثارة عوامل المحبة والحماسة في نفوسهم الى غير ذلك من الأمور .

أما الاساتذة عندنا فانهم لا يشهدون بهذه المكانة لعلم النفس . ولقد سبق لى أن ذكرت قرأيي في غير هذا المكان بأنه لا يوجد بين الدروس العديدة التى تدرس في (مدرسة العلوم السياسية)

درس واحد كرس لتدريس علم النفس

***

لما كانت الكتب التى تبحث في علم النفس العملى أو التطبيقى من الندرة بدرجة عظيمة فان الكتب القليلة المصنفة في هذا العلم لم تعدم مترجمين وناقلين الى اللغات الاخرى كما أنها لم تعدم قراء كثيرين . ولهذا السبب ولا شك قد ترجم كتابى الذى دعيته (سر تطور الأمم) والذي نشر منذ (٢٥) سنة — الى لغات كثيرة ولقد كان فى عداد مترجميه كثيرون من رجال الحكومات ذوي المنزلة الرفيعة بين أبناء قومهم (١)

واذا كنت آني على ذكر هذا الكتاب برغم قدمه فذلك لأنه يتضمن بياناً عن بعض مباديء علم النفس يمكن تطبيقها دوماً إذ لا ينتفع بها عند حكم الاشخاص وتأويل حوادث التاريخ وتعاليلها فحسب بل هي كما سنبين ذلك بعد قليل ذات نفع في القضايا

(١) لقد نقل هذا الكتاب الى العربية من قبل فتحي بشا زغلول وهو يومئذ وزير العدلية في القاهرة ، وترجمه الى اللغة اليابانية البارون (موتونو) وزير الامور الخارجية في الحكومة اليابانية ونقله الدكتور عبد الله جودت بك مدير المصالح الصحية في تركيا الى اللغة التركية كما أن المسيو روزفلت رئيس الولايات المتحدة سابقا كثيراً ما أعاد على الاسماع بأن هذا المؤلف الصغير لم يكن يفارقه أبدا

اليومية على اختلاف أنواعها كوضع ضريبة من الضرائب مثلا .

ولما كان نقل جميع المباديء التي عرضتها فى ذلك الكتاب الى هنا غير مستطاع فسأقتصر هنا على تذكير القاريء ببعض تلك المبادىء فقط .

***

ان الأمم ذات الماضى التاريخي الطويل تكون ذات طبائع نفسية ثابتة ثبوت سماتها التشريحية أى الخلقية (بالفتح) تقريبا . وتنشأ عن هذه الطبائع أنظمتها وأفكارها وآدابها وفنونها .

ان الطبائع النفسية التي تتألف من مجموعها روح الشعب تختلف كثيراً في بلاد عن أخرى كما أن الأمم على اختلافها تشعر وتعقل وتعارض بصورة متباينة في ظروف وأحوال واحدة

ان الأنظمة والمعتقدات واللغات والفنون لا تستطيع التحول من شعب الى شعب بدون أن تكابد تحولات عميقة بالرغم من جميع المظاهر التي تؤيد العكس .

ان جميع الافراد الذين ينتسبون لعنصر منحط يوجد فيهم تشابه عظيم جدا . أما في العناصر الرفيعة فالأمر بالعكس اذ يختلف الافراد عن بعضهم اختلافاً مضطرداً مع مبلغ تقدم تلك العناصر في

الحضارة . فلا يسير الاشخاص المتمدنون اذن نحو التساوى بل هم يتقدمون نحو تفاوت وعدم تساو مستمر النمو . فالمساواة هى (شيوعية) الاجيال الاولى أما التفاوت فهو التقدم

ان الدرجة التى بلغ اليها الشعب في سلم المدنية تبدو خصوصاً عند ماينظر لعدد الادمغة الراقية التى يملكها ذلك االشعب

***

ان هذه القوانين الاساسية يمكن تطبيقها ، وأكرر القول هنا أيضاً ، وعلى جميع عناصر الحياة السياسية والاجتماعيةولكي نضرب على هذا مثلا محسوساً لنفحص حالة من الحالات الثابتة المحدودة ونعنى بها فرض ضريبة على الدخل تكون موافقة يمكن القبول بها

من الجلي الواضح أن ضريبة مهما كانت هي دوماً من الامور المكروهةولكن تنفيذها يغدو مستحيلا عندما تصطدم بعقلية الشعب المنوى فرضها عليه

أما عند الشعوب التى بلغت نصيباً وافراً من التهذيب والتي هي عظيمة الاحترام للقوانين والانظمة كالشعب الانكليزى أو الالماني مثلا يمكن أن يجبر كل مواطن على تقديم بيان عما عنده كما أن صاحب البيان يقبل بكل خضوع أن يقوم جباة الضرائب الاميرية باجراء

تحقيق وتفتيش عن صحة ما جاء في بيانه

ولكن الامر خلاف ذلك تماماً عنـد الشعوب القائلة بمبـدأ « التفرد » والتى لا تريد أن تتحمل أى فحص أو تفتيش فى الحياة الخاصة . فالضريبة لا تصبح عندهم من الامور التى يمكن احتمالهـا الا اذا كانت مؤسسة على علائم ودلائل ظاهرة بارزة (كأجور الاطيان وعدد الخدم وما الى ذلك) أي التى لا تستلزم أي بحث أو استقصاء يتعلق بالحياة الشخصية

وسنرى فيما يلي أن هذه المبادىء الاساسية منبوذة اليوم ظهريا لا يعتد بها أحد

***

ان ديون فرنسة التى كانت تبلغ عام (١٩١٤) : (٢٨) ملياراً قد صعدت في عام (٩٢٢) حتى بلغت (٣٢٨) ملياراً فى حين أن (المقبوضات) السنوية من مجموع الضرائب تتعادل مع مبلغ يساوى (٢٣) ملياراً بكل صعوبة ، وهو مبلغ سيكفى عما قريب لتسديد (فوائد) ديوننا بجهد كلي . فكيف العمل للخروج من هذا الموقف؟ ان الذين جميع تقلبوا في منصب وزارة المالية عندنا قد بذلوا كل ما في وسعهم لايجاد حل لهذه القضية المستعصية على الحل ولما كانوا

لا يستطيعون زيادة الضرائب عما هي عليه بوجه من الوجوه فقد كانوا يبذلون جهودهم بغية تزييد ما يجبى من تلك الضرائب

فتوخياً لهذه الغاية عرض وزير المالية السابق عندنا المسيو (دولستري) بناء على هذه النصائح التي أسداها اليه رؤساء الدوائر التابعة لوزارته أمام أعضاء البرلمان جملة طرائق ووسائل جائرة من شأنها أن تحمل جميع رؤوس الاموال على المهاجرة في الحال الى البلاد الاخرى

فأردت أن أعرض على هذا الوزير الرفيع الشأن مشافهة الاعتراضات التي هي ذات علاقة بعلم النفس والتي من شأنها أن تبين للوزير أن الوسائل التي تصورها ذات خطر وغير ناجعة ولهذا فقد دعوته الى تناول طعام الغداء الاسبوعي التي جرت عادتنا أنا والاستاذ « دلستر » أن ندعو اليه ذوى المقام الرفيع من الاشخاص على اختلاف المهن والوظائف التي يمارسونها فكان هؤلاء يتباحثون و يتحاورون بشأن المسائل الهامة و يعرضون نظريات أفكارهم

أما الوزير فقد تلطف بقبول هذه الدعوة . ولكن صحتي انحرفت يومئذ فعاقتني عن حضور الطعام فعرضت على الوزير اعتراضاتي في كتاب خاص أرسلته اليه هاك بعض العبارات التي جاءت فيه .

« أنتم تودون طبعاً أن تزيدوا في واردات الضرائب المفروضة على الدخل والايراد . ولكنكم لأجل زيادة مبهمة ضعيفة جداً تعرضون مشروع استقصاء مالى من الجور والتعقد بحيث انه سيهيج ولا مشاحة غيظ المكلفين بدفع الجزية وسيخلق للنظام الادارى عدداً كبيراً من الاعداء

« اذا وضعتم ضريبة على الدخل استناداً على العلائم الظاهرة البارزة ، ولو كان مبلغ هذه الضريبة أعظم مما هو عليه اليوم ، فان الناس يرضون دوماً عن ضريبة موضوعة على هذا الشكل أكثر بكثير مما يرضون عن ضريبة مبنية علي أساس من البيانات التى تستلزم التحقيق من قبل الموظفين الاداريين ذوى الاختصاص

« انه لمن السهل على المرء ان لم نقل فى جميع الحالات ففي اكثرها على الاقل أن يعرف أي شأن يجب أن يجعل لعلائم الثروة الخارجية كاجور الاطيان وأجور الخدم وما الى ذلك عند وضع الضرائب وذلك لكي تصبح معادلة لما هي عليه في الوقت الحاضر بل واعظم مما هي بدون الالتجاء للطرائق الجائرة .

« فأنا أعرض عليكم اذن أن تقوموا بالتحقيقات الآتية :

« أن تأخذوا بلا قصد بل اتفاقا : عدداً من الاوراق التى تبين مبلغ ما يدفعه مئة شخص من المكلفين بدفع الضرائب يقيمون في

أحياء مختلفة وأن تقدروا بعد ذلك المبلغ الذى يجب أن يفرض عليهم دفعه بالنسبة لأجور الاطيان وغيرها من العلائم الخارجية للثروة لكى يصل مبلغ ما يدفعونه الى رقم يعادل المبلغ الذى يدفعونه اليوم بالضبط أو ينيف عليه أيضاً .

« فهذه الاركان بعد أن تحدد لا يبقى أسهل على المرء من وضع ضريبة علي الدخل لاتشوبها شائبة التفتيش المالى بل يرضى عنها جميع الناس بدون أن ينبسوا بكلمة معارضة أواحتجاج . » اه

ولقد تكرم جناب الوزير فأجابنى (بأنه سيفحص الآراء التى عرضتها عليه باعتناء ماعليه مزيد) ؛ ولكنه أمام معارضة الاشتراكيين فى المجلس لم يستطع فى آخر الأمر أن يفوز بموافقة الا على قسم من تلك الاقتراحات .

***

لما كان « طعامنا » موضع مناقشات بوجه خاص فقد وضعت الآراء السالفة على بساط البحث لكى ينتقدها الخضرون . أما صحة تلك الآراء من وجهة علم النفس فلم يمار فيها أحد . بيد أنهم أبانوا بكل سهولة أن ما تخيلته غير حاصل على أي حظ يجعل قبوله بحذافيره ممكناً وذلك لسببين فاسدين من وجهة علم

النفس ولكنهما قويين جداً من الوجهة السياسية

أما السبب الأول فهو الوقع السيء الذى ستقع فيه اقتراحاتى من نفوس الاشتراكيين .

والسبب الثانى أشد من الاول ولو أنه أقل جودة أيضاً وهوأن الضريبة التى تأسست من ذاتها استناداً على العلائم الخارجية التى لا جدال فيها ستحرم الجمعيات (كوميته) والحكام أي الولاة الذين يحكمون فرنسة في الحقيقة بالنظر لأنهم يقومون بالانتخابات من واسطة اجرائية ذات قوة عظيمة جداً . ان التفتيش المالى على النحو الذى يريد الاشتراكيون ن يمارس بحسبه يشابه لولباً من لوالب الضغط الذي لا تمكن مقاومته . اذ ان هذا البرغى يحل كثيراً لأجل الاصدقاء ويشدد غاية التشديد نحو الاعداء

إن القيمة السياسية لهذه الأدلة لاخلاف فيها ومع ذلك يجب أن لاننسى في كل مرة أن الانظمة السياسية تضمحل غالباً من جراء تطبيق القوانين التى تكون مخالفة كثيراً لعقلية الشعب . إن هذه العقلية هى جزء من القوى التى تدير أمور العالم ، كما أن الانظمة والقوانين لايتاح لها أياً كانت ادخل أي تحوير أو تبديل على تلك العقلية

الفصل الخامس

مبادئ علم الاقتصاد (١) الاساسية

ان التأثيرات النفسية والضرورات الاقتصادية هما اللتان تعينان مقدرات الشعوب ويحددانها . فالأولى تولد الافكار والمعتقدات وعنهما ينشأ المنهج الذى تسير عليه الشعوب . أما الأخرى فنها تعين شروط الحياة المادية

ولما كانت هذه القوانين الاقتصادية والنفسية العظيمة ثابتة لا يعتريها التغيير أو التبديل فان خرقها وتجوزها لا يفتقر فى حال

(١) معلوم أن الاقتصاد عدة أسماء اذ يدعى بالاقتصاد السياسى أو علم النقد أو علم المقايضة أو علم الارزاق . وفي الاصل الفرنسى اختار المؤلف التسمية الاولى التى هى أكثر شيوعاً من غيره . أما نحن فقد وضعنا نعته بعلم الاقتصاد فقط اذ هي التسمية التى تفقت كافة الاسماء على تسمية الاقتصاد بها على ما نعم بالنظر لعدم انطباق الاسماء السابقة على المعنى المقصود من هذا العلم .

من الاحوال ولا بد من أن ينال عقوبة

ان علم الاقتصاد يشتمل على جملة من مسائل كرأس المال والعمل والملكية والادخار وما الى ذلك من المسائل التي يتألف من شرحها عادة مجلدات ضخمة

إن مؤلفي تلك المجلدات قد تسلطت عليهم بعض نظريات يظهر أنه لايمكن أن يتم بينها التجانس أو المطابقة . فان مناصري مبدأ « المبادلة الحرة » والقائلين بمبدأ الحماية والمتشيعين لمبدأ الوساطة أو المداخلة وأضراب هؤلاء من ذوى المبادىء المختلفة في شجار وتعالج متمادٍ مستمر من زمن بعيد وهم حتى الآن لم ينجحوا في اقناع بعضهم بعضاً

فاذا نظرنا الى معلوماتنا على الحال التى هي عليه في الوقت الحاضر وحسبنا حساباً للدروس التى ألقتها الحرب على العالم اعتقد أن مبادىء علم الاقتصاد الاساسية يمكن تلخيصها بالجمل الآتية :

***

١) ان ثروة الشعب تختلف بصفة خاصة حسب جسامة المحاصيل التى تخرجها وحسب سرعة رواج ونفاد هذه المحاصيل .

٢) ان أى محصول كان لايمكن أن يكون اصداره الى الخارج

نافعاً الا اذ كان السعر المنوي بيعه بموجبه لا يربو على السعر الذى يبيع بحسبه المنافسون الاجانب . فيستنتج من هذا ان طرائق الصنع وتقسيم العمل ووفرة رأس مال الاصدار تلعب دوراً هاماً في قضية الاصدار .

٣) النشاط في النقل براً وبحراً يمكن أن يصبح لوحده فقط منبعاً من منابع الثروة فان بعض البلاد الصغيرة التي لا تأتي بمحصول ما كهولندة مثلا قد أتيح لها فيما مضى أن تثرى عن طريق نقل البضائع التي هي ليست من مصنوعاتها فقط .

٤) لما كان مقابل البضائع لا يمكن أن يدفع الا بصفة بضائع أخرى فان البلاد التي تستورد من الخارج أكثر بكثير مما تصدر اليه مضطرة ان تستدين . واذا استمر استيرادها أعظم من اصدارها فان ذلك يعود عليها بالافلاس الا اذا كانت البلاد تملك — كما كان الحال في فرنسة قبل الحرب — ذخراً جسيما من الصكوك والسندات والحوالات وغيرها ذات الدخل والايراد

٥) أن تتولى الحكومة زمام الانتاج أي العمل بمبدأ جعل كل شيء مشتركا بين الخلق وتولى الحكومة زمام الاعمال عوضاً عن أن يترك السعي والقيام بالمشاريع للافراد تنتج عنه نتيجة ثابتة

لا تتغير ولا تتقلب وهي أنه تزول الكثافة والغزارة في المحصولات وتحصل زيادة جسيمة في نفقات العمل . ان علم النفس يكفى لأن يخبرنا عن هذه النتيجة التى أظهرتها التجربة اظهاراً يربو على القدر الكافي

٦) ان العملة المعدنية عدا أنها (وحدة) النقود فهي أيضاً عبارة عن بضاعة ذا ثقل محدود ميسورة المبادلة مع البضائع الاخرى التي يمكن أن تقوم هى أيضاً مقام العملة عند الحاجة فيستخلص من هذا أن باستطاعة الشعب أن يكون في حالة حسنة من اليمن والفلاح ولو لم يكن يملك شيئاً من العملة المعدنية

٧) إن العملة الورقية المؤلفة من أوراق نقدية لا تحفظ قيمتها لا اذا كانت مبادلتها بالعملة المعدنية أو البضائع على اختلافها ميسورة ضمن أجل غاية فى القصر . اذا ازدادت وطأة الارغام على تداول الاوراق النقدية فان ذلك يقلل بسرعة من قوة « ابتياع » تلك الاوراق .

٨) لما كان ثمن مبيع البضاعة يتعين من نفسه حسب النسبة الكائنة بين العرض والطلب فان أي قانون من القوانين لأقصر باعاً من أن يحدد قيمة تلك البضاعة . ان النتيجة الوحيدة التي

يمكن أن تحصل عن طريقة تحديد الثمن (التسعير) هي زوال غزارة البضاعة (المسعرة) ووفرة كميتها في أول الامر ثم تحصل في طي اخفاء زيادة الاسعار القديمة للبضاعة التي كانت السبب في الالتجاء لطريقة تحديد الثمن

٩) ان طريقة الحماية وطريقة المبادلة الحرة تتطابقان مع الادوار المختلفة التي تمر على صناعة احدى البلاد عند ماتكون تلك البضاعة في ابان قوة الحياة . فعند ما تكون تلك الحياة الصناعية ضعيفة تأتي طريقة الحماية بالنفع والفائدة ولو انها غالية الثمن وتفوق تقدم الصناعات المحمية أمام المنافسة الخارجية

١٠) ان رفاهة العامل لاتختلف حسب ازدياد أجرته بل هي تختلف حسب قوة ابتياع هذه الاجرة ففي البلاد التي يظل المحصول الذي تنتجه دون الكمية التي تستهلكها فان كل ترفع في الاجور ينتج عنه ترفع في ثمن الاشياء المستهلكة يفوق الزيادة التي أضيفت على الاجور . أما الشعوب التي تنتج محصولات غير كافية فإن رفاهة العامل تنقص كلما ازدادت أجرته

١١) ان انقاص عدد ساعات العمل فى البلاد المفتقرة حيث المحصول دون الحاجات معناه زيادة فقر تلك البلاد وجعل المعيشة

فيها اكثر غلاء عن ذى قبل

١٢) عند ماتضعف المعتقدات السياسية والدينية والاجتماعية التى تتألف منها العدد المجهزة بها عقلية أحد الشعوب تحت تأثير المصائب الكبرى والنكبات العظمى التي تطرأ على ذلك الشعب يقوم مقامها حالا أهواء ومطاليب جديدة تعدى تحققها كل امكان

١٣) ان الشعوب التي تنكر شأن الضرورات الاقتصاديه تترك زمام أمورها عندئذ في يد أوهام تصوفية أو حسية صادرة عن الشعور الباطنى . وهذه الأوهام غريبة جداً عن الحقائق ، ومن شأنها أن تولد انقلابا وتقلقلا عميقين .

ان هذه الحقائق الموجزة يحتمل أن لاتثقف فكر شخص من الاشخاص . ومع ذلك فليس من الامور العادمة النفع أن تجعل هذه الحقائق في قالب دساتير عامة . ان الافكار مشابهة لتلك الحبات التي ينتهي أمرها بالانتعاش والنبت فوق أقسى الصخور التي يحملها الريح اليها

الكتاب الخامس

القوى الجماعية الجديدة

الفصل الأول

الاوهام الاعتقادية

فيما يتعلق بقوة الجماعات

يقول (ده كارت) في فاتحة مؤلفه المشهور الذى دعاه (حديث عن « الطريقة »[1]) : « ان العقل السليم هوالشيء الذي أحكمت الطبيعة توزيعه وتقسيمه في العالم أكثر من أي شيء آخر لأن : كل فرد يخال أنه قد نال من العقل السليم قسطاً هو من الوفرة بحيث أن الذين هم أعسر الأنام قناعة واكتفاء بأى شيء من الاشياء

(١) يقصد بالطريقة في اصطلاح علم الفلسفة الطريقة العقلية التي يسعى المدهون بها للوصول الى (العرفان) أو لاستجلاء (الحقيقة) والوقوف على كنهها — المترجم

لاخرى لا يخطر ببالهم قط أن يرغبوا في زيدة من العقل السليم عما عندهم

وسيكرس في هذه الكتب القادمة فصل هام للكلام عن ثبات وبقاء الاوهام المتعلقة بالتفوق المعزو الى الاحكام والآراء الجماعية (كو للكتيف)

ان جميع رجال السياسة وبخاصة في انكلترا لا يزالون في الحقيقة على اعتقادهم بفاعلية المباحثات الجماعية في صدد حل القضايا التى لا يتمكن الافراد المفترقون عن بعضهم من حلها . مع أن تلك المباحثات الجماعية كادت تفقدنا الغلبة في الحرب . فقد انعقد أثناء أربع سني الحرب عدد من المؤتمرات والمجالس الحربية لا يحصيه عدد ولم ينتج عنها سوى حروب لا طائل تحتها . أما المؤتمرون فلم يكفوا عن أوهامهم المتعلقة بقوة ذكاء الجماعات وما له من التأثير اللهم الا عند ما رأوا أنفسهم على حواف الهاوية فقط . ومع ذلك فقد كان تنزلهم عن أوهامهم وقتياً قصير الأجل . وإذ ذاك حلت القيادة الفردية مكان القيادة الجماعية وبدل الظفر معسكره

وهناك تجارب تماثل هذه تتعاقب في الروسيا منذ عدة سنوات ولقد كان النظريون الذين قادوا روسيا الى الخراب الذي صارت اليه

قانعين هم أيضاً بأن الجماعات التى تعرف (بالسوفييت) ستحول بلادهم الى جنة لكن هذه الجماعات قد حولتها الى جهنم

***

ان من أول أوصاف المباحثات الجماعية هو أن الاشخاص الذين يخطبون في تلك الجماعات يتحاشون الكلام في القضايا الخطيرة بوجه عام. أن هذه الواقعة التى شوهدت في أغلب مؤتمرات الصلح قد تجلت بأجلى مظاهرها فى مؤتمري (وشنطن و لوزان)

ففي موءتمر (وشنطن) كانت تشغل أذهان المؤتمرين فى مدة انعقاد المؤتمر قضية حق السكن في الولايات المتحدة الذي كانت تطالب به اليابان لمواطنيها لكنه لم يجر في المؤتمر حول تلك القضية شيء يصح أن يسمى بحثاً وكذلك في مؤتمر لوزان فانه ما من خطيب من الخطباء الذين كانوا حاضرين اثناء انعقاده سيما خطباء تركيا وانكلترة تفوه بكلمة واحدة في صدد المشاغل الحقيقية التى كانت تملىء أذهانهم وأدمغتهم

بالرغم من جلاء هذه الامور ووضوحها فان الجيل الحالي غدا اليوم مداراً من قبل ارادات جماعية ادارة هي في كل يوم بتوسع وازدياد . فمذ تظهر لحيز الوجود قضية عويصة ترى الحكام يؤلفون

لأجل حلها بعض اللحان ولا تكاد هذه اللجان تجتمع حتى تنقسم الى لجان فرعية فهذه اللجان الفرعية تستعمل الموسى في القضية ولا تزال بها تقطيعاً وتجزئة حتى تفصلها الى قطع دقيقةفتكون طرائق الحل التي وجدتها لها بذلك متوسطة ولكنها تفسح المجال أكثر من كل الطرائق التي توجد على غير هذه الصورة — للتأويل والتفاسير المتناقضة

ان رجال الحكومات باستسلامهم على هذه الصورة لما تقرره الجماعات وتبت فيه قد خدموا غرضاً من أعظم الاغراض التي تسلمت زمام أمور العالم في الزمن الراهن ليس إلا

ان الادارة الجماعية والادارة الفردية هما عبارة عن مبدأين قد شهرا اليوم حساه اخرب في وجه بعضهما وأصبحا يتعاركان لكنه لن تقدر الغلبة لأحدهما البقاء بدون بقاء الآخر

من الجلى ان النهضة أو التكامل الحديث غدا يقود البشر في كل يوم بازدياد نحو العمل المشترك (كوللكتيف)

فالمعمل والمنجم والسكه الحديدية و لجيش حتى والسياسة كلها اعمال من نوع الاعمال الجماعية ولكنها لا يمكن أن تغدو على جانب كبير من الفلاح الا بشرط أن تكون ادراتها منوطة بشخصيات

تلعب شوطاً كافياً في مضمار الحذق والمهارة

فهذه الضرورة التي تقضي بأن تكون الادارة في يد الفرد ناتجة عن مبادىء نفسية لا يمكن أن تتحول أو أن تتبدل سبق لي أن عرضتها في غير هذا المكان و يطول بي المقام كثيراً اذا عدت هنا الى تكرارها فهذه المبادىء توضح ايضاحاً كافياً السبب في عدم نجاح المؤتمرات والمشاريع التي ترمى الى جعل كل شيء ملكاً للحكومة وتبين أيضاً الداعي لعدم تكامل اعمال جيوشنا بالنجاح مدة بقائها تابعة لسلطة الجماعات

ان الاشتراكية والمذهب المسمى (كوللكتيفيزم) (١) والمذهب المعروف بالراديكاليزم والقسم الاعظم من الاحزاب السياسية الاخرى كلها لا تريد أن تعتقد بهذه المعلومات الاساسية في علم النفس . فالمستقبل فقط هو الذي سيظهر لأتباعها أن طبيعة الشخص ميراث عن ماض طويل وانها لا يمكن أن تتبدل نحو ما نريد ونرغب

---

(١) هو مذهب القائلين بحل (المشكلة الاجتماعية) عن طريق جعل وسائط الانتاج باجمعها مشاعة بين الناس في سبيل منفعة الجماعات ومؤسس هذا المذهب كارل ماركس — المترجم

الفصل الثاني

مؤتمر جنوى لمثال عن النتائج

التى يمكن أن تحصل عليها جماعة من الجماعات

قد انتهينا قبل قليل من بيان كون المؤتمرات أو أي جماعة من الجماعات التى هى من قبيلها — عاجزة عن حل القضايا التى تعرض عليها . وسنرى هنا بأنها قد تصل أحياناً الى نتائج تختلف اختلافاً كاملا عن النتائج المنتظرة التى كان القوم يؤملون الحصول عليها .

وقد شوهدت هذه الحادثة مرات كثيرة أثناء انعقاد المؤتمرات العديدة التى التئمت منذ أوائل أيام الصلح . أما الذى حض الدول على عقد اكثر هذه المؤتمرات سيما منها مؤتمر جنوى فهو المستر لويد جورج ذلك الوزير الداهية الذي كان وقتئذ يتصرف بمقدرات انكلترة .

ولقد كان الغرض من مؤتمر جنوى في الظاهر السعي لترميم

الصرح الاقتصادى في أوربة وأعادته الى حاله السابق ثم تشييد أركان صلح دائم مستمر .

أما الدول التى دعيت الى المؤتمر فلم تبد فى الاصل ارتياحاً كبيراً لعقده . فلقد كانت جميعاً واقفة على مصلحة انكلترة التى لاتعيش الا من تجارة الاصدار ، عالمة بأنها تبغي ايجاد منافذ جديدة لتجارتها تقيل هذه التجارة من عثرتها وتأخذ بيدها في سبيل النهوض ولكن الأمر الذى لم يتح لحكومة من تلك الحكومات أن تدركه هو كيف ستتمكن جماعة بين أفرادها من الاختلاف فى الجنس والطبع ما كان بين أفراد الجماعة التى شيدت (برج بابل) — من ستنباط طرائق للترميم والاصلاح لم تصل اليها أيدى أمهر الاخصائيين وأقدرهم ولم تبلغ اليهم فطنتهم ولباقتهم

والواقع أن أسباب الفوضى الاقتصدية في أوربة التى كان على المندوبين المجتمعين في جنوى أن يوضحوها — كانت على جانب من الوضوح والجلاء لاحاجة معه في الحقيقة لانور جديدة لكى تصبح تلك الاسباب بارزة للعيان . أما الاسباب التى نتكلم عنها فيمكن تلخيصها كما يلى :

ان تقدم الفن الصنعى وسهولة وسائط النقل في الزمن الذى

تقدم نشوب الحرب حملا كل شعب من الشعوب على التخصص في صنع بعض المنتوجات فكانت هذه الشعوب تعيش من وراء تبادل تلك المنتوجات . وهكذا فقد كانت الأمم مكونة لكتلة اقتصادية هي من جودة التوازن بمكان .

أما اليوم فلم يختل ذلك التوازن فحسب بل أن جو الحقد واساءة الظن الذى أخذ العالم يرزح تحت عبئه الثقيل قد حمل الشعوب على احاطة نفسها بحواجز جمركية بحجة أنها تريد حماية صناعاتها الوطنية . بل لقد بلغ من احكام صيانة تلك المصنوعات أن المرء غدا يشاهد في كثير من البلاد زيادة في المحصولات يكاد الأمل بامكان بيعها أن يكون مفقوداً كما هو أمر محصولات الحديد في فرنسة مثلا

لما كانت جميع هذه الامور معلومة فان البعثات على اختلافها لم تستطع الأتيان بشيء اللهم الا تكرار ما يعرفه كل فرد من الناس منذ أمد بعيد . فهل في استطاعة مؤتمر من المؤتمرات أن يجد علاجاً للأمر بل لماذا نذهب بعيداً اذ هل يتمكن المؤتمر من ادخال التبديل على اسعار « السحب » في بلد من البلاد ولو بمبلغ سنتيم واحد ؟

***

لم يكتب مؤتمر جنوى النجاح في ايجاد حل للقضايا العامة الكبرى . ولقد أظهر هذا العجز نفسه فى معالجة القضايا الخاصة سيما منها قضية ينابيع البترول الروسية التي استولى عليها البلاشفة

ويؤكد العارفون أن قضية زيت البترول التى هى أساسية فى نظر انكلترة هي التى كانت سبباً في الدعوة لعقد مؤتمر جنوى ومع ذلك فقد غالت انكلترة قليلا في تقدير مبلغ القوة الكامنة في الروسيا من مادة زيت البترول . اذ بينما كان محصول الولايات المتحدة من زيت البترول قبل الحرب يعدل (٣٩) مليون طنا كان في روسيا لا يكاد يزيد عن تسعة ملايين طن . أما محصول غيرها من البلاد المتاخمة لها كبولونيا ورومانيا وغيرهما فهو من حيث النسبة زهيد لا يستحق الذكر .

بينما أصبح مايستخرجه العالم سنويا من الفحم يبلغ (١٣٠٠) مليون طن فان مبلغ ما يستخرج من زيت البترول في العالم يكاد لايزيد عن مئة مليون طن .

ان قيمة هذا السائل فى جهة استعمالات على جانب من الاهمية يدركه المرء عند مايرى الجهود التى تبذلها انكلترة لتضع يدها على

منابع البترول الرئيسية في العالم . فلقد نجحت بمدة (٢٠) عاماً في توطيد أركان سيادتها في البلاد ذات الاحواض البترولية الهامة في العالم عدا أحواض الولايات المتحدة . ان انكلترة غدت تستطيع اليوم مزاحمة تلك الشركة الاميريكية العظيمة المعروفة بشركة (ستندرد اويل) والتي تزيد ميزانيتها عن ميزانية حكومات بكاملها . هذا وان الشركات الكبيرة الأخرى كلها شركات انكليزية هولندية ، وهي تؤلف اليوم باتحادها مع بعضها نقابة كبيرة من نوع النقابات المعروفة باسم « تروست(١) » وينضم تحت لواء هذه النقابة عدد من الشركات الكبيرة نخص بالذكر منها شركة (رويال دوتش —) و (مكسيكن ائغل) و (شل) واضرابها . بل أن هذه الشركة النقابية أخذت فى الأصل تدخل فى دائرة السلطان البريطانى يوماً بعد يوم .

ان هذه الحوادث بالرغم من أنها تكاد تبتعد بنا عن موضوع هذا الفصل يجب مع ذلك أن تذكر ويلمع اليها لكى يظهر للقارىء

---

(١) هى نقابات مؤلفة من مضاربين (سبه كولاتور) بقصد انهاض قيمة شيء من الاشياء أو سعر بضاعة من البضائع وذلك عن طريق الاحتكار . واكبر هذه النقابات تألفت لاول مرة في اميركا — المترجم

مبلغ ما يمكن أن يكون في المؤتمرات من الاختلاف بين الاغراض المصرح بها .

في مدة لم تتجاوز بضعة أيام أي في برهة وجيزة للغاية كان رئيس الوزراء الانكليز وقتئذ سيد المؤتمر وصاحب الأمر والنهي فيه . ولكن الاحقاد الكامنة وتضارب المصالح المعاكسة بعضها مع بعض لم تلبث أن جعلت جهوده عقيمة . وفي آخر الأمر انتقلت إدارة المؤتمر من الأيدى الانكليزية الى أيدى جماعة المتطرفين من الروس وفقاً لقانون ثابت لا تستطيع الجماعات السياسية الحيد عنه قيد شبر .

ولقد كتبت (الجورنال دو جنيف) وقتئذ مقالا في هذا الصدد جاء فيه:

« إن الحقيقة التي لا مراء فيها هي أن مندوبي الدول المستقلة لم يكونوا يأملون النجاح بهذا القدر عند مجيئهم وربما ترتعد منهم الفرائص خشية مقابلة ضحية من ضحاياهم وتقلق بالهم قلاقاً عظيماً الملاقاة التي تنتظرهم والمقابلة التي سيقومون بها . » اهـ

واذا كان مؤتمر جنوى قد لقي من الفشل والاخفاق أكثر مما لاقت المؤتمرات التي سبقته فذلك لأن عجز الجماعات الذي هو من

الامور المعتادة قد انضم اليه في هذه المرة فعل القوى التصوفية أو الاعتقادية الذي هو عظيم التأثير على الجماعات والذى لم يصل اليه أبداً ادراك المستر لويد جورج المنادي بعقد المؤتمر . ولقد سبق لي أن ذكرت القاريء في غير هذا المكان كيف أضاعت الامبراطورية بمدة لاتتجاوز بضعة أشهر كلا من مصر والعجم و بلاد مابين النهرين (العراق) وكيف غدت اليوم تري امبراطوريتها الهندية يدب اليها التزعزع مبيناً أن كل ذلك نشأ عن تهجمها على الاسلامية التى هى قوة اعتقادية هائلة ، ومحاولة النيل منها .

وفى جنوى اصطدام أيضاً ذلك الوزير ذاته (أي المسترلويد جورج) بقوة اعتقادية أخرى وهي الشيوعية تلك المباديء التى أصبحت ديناً جديداً له سلطة على نفوس المتدينين فوق كل السلطات .

ان مندوبي روسيا لكي يحصلوا على رؤوس الاموال هم بحاجة قصوى اليها يتنازلون بطيبة خاطر عن استثمار منابع زيت البترول التى لاينتفعون منها بأقل فائدة ، و يوقعون جميع العهود والعقود مادامت الوعود التى تعطى « للكفرة » ليس لها أن تقيد المؤمنين بالانجاز أما العدول علانية عن المبادىء الاساسية في عقيدتهم بالموافقة على

التماسكات الشخصية فهو من رابع المستحيلات . لان مثل هــذا العدول يلاقى اللوم بسرعة من قبل اخوانهم في الدين والمذهب .

ـ ولو فـكر الانكليز بأن اعظم منح البلاشفة وهباتهم لاتستطيع كثيرا أن تأتى بتغيير فى الازمة الاقتصادية التي يكابدون اضرارها — اذن لاستطاعوا أن يعزوا أنفسهم بسهولة عن رفض البلاشفة . لان تجارة انكلترة الخارجية لم يكن يجرى منها مع روسيا في السنوات التى تقدمت نشوب الحرب اكثر من (٣) فى المئة . »

***

لما كان المستر لويد جورج واثقاً دوما من قوة الجمعيات الوهمية فقد اقترح أن يوقع مندوبو الحكومات في جنوى على « ميثاق ضمان عدم الاعتداء » يكفل كل حكومة من مبادأة غيرها بالتعرض ومما لاشك فيه انه كان يعتبر هذا الميثاق نوعاً من نوع النقد الذي يتبادله الناس يمكنه من خوء حقوقه وخدعهم . حتى اننى لا نزال نتساءل بعد عما يمكن ان يفكر به صاحب مثل هذه الفكرة ؟ فهل استطاع حقيقة ان يفترض وجود رجل واحد في العالم من رجال الحكومات تبلغ منه السذاجة حداً يجعله يؤمن بفاعلية مثل ذلك الميثاق ؛ لا جرم ان مثل هذا العهد لن يحول ابداً دون

تعد فجائي مادام باستطاعة المعتدي دوما ان يبرر فعلته اذا ما اكد للملأ بان اراضيه قد دمرت من قبل الطيارات كما كان من امر المانيا التى اتخذت طيارات (نورمبرغ) حجة لاعلان الحرب علينا عام (١٩١٤)

ولقد كان من الجلي في الاصل أن الروسيين سيمتنعون عن توقيع الميثاق المقترح . أما ذلك اليهودي الذي كان يدير ما يقوم به الجيش الاحمر من الملاحم وأعمال السلب والنهب والذي كانت دلائل الغضب بادية على وجهه العابس المظلم فقد كان يعلن في حنوى بصوت مرتفع والسيف في يده الواحدة والانجيل اليهودي الشيوعى في يده الأخرى — عن الغارة التى ستقوم بها كتائب جيشه على أوربة مؤملا بذلك ادخال الرعب والفزع على قلوب أعضاء المؤتمر وبالنظر لوثوق المندوبين الروسيين من تأثير الخوف والتهديد على روح الجماعات فقد جعلوا خطاباتهم تدور باشكال غامضة بعض الغموض حول نقطة ذات وجهين . إما الدراهم وإما الغارة والاستيلاء

ان ما أظهرته العصبة البلشفية من التعجرف والغباوة قد خلص رجال الحكومة الانكليزية من معاناة الخجل اذ ظهر أن مثل تلك الأقوال قد أثرت عليهم وعملت عملها في قلوبهم . أما المستر لويد

حورج ذاته فقد رجع القهقرى وهكذا انتهت جلسات المؤتمر على نحو
جميع المؤتمرات التي انعقدت قبله بظهور عجز الجماعات الكامل عن
حل قضية من القضايا خصوصاً عند ما يكون كل من أعضاء هذه
الجماعة ممثلاً لأغراض ومصالح تباين الاغراض التي يمثلها الاخرون
وتناقضها .



الفصل الثالث

الجماعات البرلمانية الكبرى

على رأس جميع الحكومات الحديثة يوجد جماعات تعرف تحت اسم (البرلمانات) على انه لا شك في أن هذه البرلمانات ليست أفضل أشكال الحكومة التي يتيسر ايجادها بل هي الشكل الوحيد الذي يكاد يكون مقبولا لدى الناس اذ أن الديمقراطيين الظافرين مازالوا في تردد دائم بين النظام المطلق و بين طريقة حكم العدد أي الاغلبية .

ان البرلمانات متصفة باوصاف الجماعات فاما عدم قرار الجماعات وترددها وشدتها كما أنها تخضع أيضاً لتلك القوانين الاعتقادية التي لها من التأثير الكبير على الخلق

ان من الأوصاف التي تمتاز بها البرلمانات الحالية نمو الاحزاب المتطرفة فيها كالحزب الاشتراكي والحزب الشيوعي وما اليهما . . .

أما برلماننا فانه لا يفرق من هذه الوجهة عن غيره من البرلمانات الاوربية الأخرى فرقاً محسوساً بل فيه أيضاً عدد من المحافظين هو وأقلية من المتطرفين كالاشتراكيين الثورويين والقائلين بمبدأ المدواية التي ترمى الى جعل أمم الأرض عائلة واحدة واضراب الفريقين وما ينحو نحوهما

ولقد كان من أمر هذه الاحزاب المتطرفة كما يحدث دوماً أن غدت تلحق بنفسها شيئاً فشيئاً تلك الاحزاب القديمة التي كانت تعتبر فيما سبق من الاحزاب المتطرفة ونخص بالذكر منها حزب الراديكاليين

أما نزعتها فتزداد في كل يوم تعلقاً باهداب الثورة واثارة القلاقل وقد جعلها أحد أعضاء هذه الفئة في قالب دستور ولخصها تلخيصاً موجزاً في العبارات الآتية (سحق الاموال ولا ملاك عن الفرد وحرمانه من وسائط الانتاج التي يتمسك بها لكي تجعل مشتركة بين الناس)

أما من خصوص ضريبة الايراد فقد أفصح عنها هذا « المبعوث » ذاته أيضاً على الوجه الآتي : (بقدر ما تكون الضريبة جائرة ومدعاة للأذى بنسبة للضرر يزداد نفعها في خدمة أغراض الكولكتيفيزم)

تنبعث عن هذه الاعترافات صراحة واضحةوضوح الشمس في رابعة النهار . فان الاشتراكيين يعلمون جيداً أن في القضاء على الصنوف الصناعية والتجارية قضاء على الصنوف الأخرى فى نهاية الامر . ولكن هذا فى الحقيقة هو الغرض الذي يلاحقونه للتوصل الى الثورة التى يحسبون أنها ستعود عليهم بالنفع

إن هؤلاء الحواريين الذين يبشرون بعقيدة جديدة ينزعون الى الثورة في أحاديثهم وأقوالهم لكنهم قليلو النزوع اليها فى خواطرهم وأفكارهم . فهم دوماً لا يعرفون كيف يتصرفون باقوالهم ولكن أساتذة لهم يخيفون و يرعبون يجبرونهم على ادارة أفعالهم والتصرف بها حق التصرف . ولما كانوا كثيرى الاتباع لنظام الدرجات في الرتب والمناصب فهم يخضعون بخوف مشفوع بالاحترام للبرامج التى يضعها الرؤساء الفرنسيون أو المسكوبيون أو الجمعيات الفرنسية أو المسكوبية ذلك لأن كلا من الفريقين : الرؤساء أو الجمعيت ذو خبرة تامة بتلك الصنعة التى يتاح للعارف بها أن يحمل الناس على اطاعته و لأذعان لمشيئته

ان مذبت هؤلاء الحواريين الجدد مختلفة عن بعضها بعضاً فالبعض منهم قد دعوا على اعتناق الاشتراكية الثورية لأنها بدت اليهم

كحرفة ذات مستقبل مجيد ، ويوجد بينهم من جهة أخرى اناس اغتروا بقيمة العقيدة الجديدة وهم بوجه عام ذوو عقول تصوفية تأخذ عقائدهم دوماً شكل عقيدة دينية فالكلمات والدساتير في نظرهم قوة سحرية ، وهم يعلمون من مصادر وثقية أن في الامكان تتويج السعادة ملكة في هذه الدنيا وتقليدها صولجان الحكم بواسطة بضعة قرارات موضوعة بقالب الامر والقضاء

يؤلف هؤلاء القوم باعتبار المجموع كتلة ثورية في الظاهر ولكنها في الحقيقة كتلة مطيعة فارواحهم التابعة للمجموع اتباع الشدة للقطيع سهلة القيد على المحرضين وأهل الزعامة. كما أن شخصيتهم الضعيفة تغشاها التأثيرات الجماعية (كولكتيف) التى هي على غاية من القوة والشدة

ان الاشتراكيين الثورويين ذوي خطر بسبب الخوف الذى يبعثونه في النفوس بوجه خاص. ذلك لأن الذين تنطوى نفوسهم على مزيج من الخوف والحياء يتوارون عن الابصار أمام أهل العسف والعنف ولقد أيد تاريخ مجالس الثورية الكبيرة عندنا هذا القانون فى جميع الأدوار فقد ارهبت احدى فرق ثورتنا الكبرى التى كانت تعرف وقتئذ بعصبة الجبل العصبة المعروفة بعصبة السهل زمناً طويلا بالرغم

من أن عدد إفراد الأخيرة كان يفوق عددهم في الاولى ثلاثة أضعاف بل لقد كان رفاق (روبسبيير) في عشية اليوم الذي سقط فيه يكبرون له ويهللون ويشيدون بذكره ويتغنون ، ولم تمض بضع ساعات حتى أصبح على هؤلاء الرفاق أن يبعثوا برفيقهم الى ساحة الاعدام

فلهذه الاسباب النفسية التى هي على غاية من البساطة غدا الاشتراكيون يبتلعون الحزب الراديكالي القديم شيئاً فشيئاً . أما ضعف هذا الاخير فهو عظيم ذلك لأن عقائده غير ثابتة . ولقد غدا يسير وراء الاشتراكيين كما كانت (عصبة السهل) تسير وراء روبسبيير بعامل الخوف من الموسى التى قدر لعصبة السهل بعد ذلك أن لاتجد الى التملص منها سبيلا

وانه لما يشجي النفس أن يحقق المرء مبلغ تعاظم شأن الخوف في مجالسنا البرلمانية . فلقد غدا الوزراء لا يسيرون طبقاً لرغائبهم وإراداتهم بل تبعاً للخطط الفاسدة التى يدفعون نحوها أما آراؤهم الشخصية فقد تخلوا عنها وتقاعسوا بوجه خاص عن المدافعة عنها منذ زمن بعيد

ان ما ينقص رجال الحكم الجدد في أغلب الاحيان ليس هو الذكاء بل السجية فعوضاً عن أن يسعوا لانارة الرأى العام وأحكام

سياسته واداراته تراهم يسيرون وراءه ويتبعون خطواته. والرأى العام في نظرهم هو رأى نفر من الساسة المتعصبين أو أفراد بعض الجمعيات العائشة في الظلام الدامس الذين يستمدون قوتهم الظاهرية من الشدة والصولة

من المؤكد أن سجايا الاشتراكيين لا تزيد على سجايا خصومهم ولكن عادة الأذعان والاطاعة للمحرضين الظالمين تمنحهم تلك القوة التي يملكها دوماً الجيش الذى يتبع الانظمة اتباعاً تاماً ، ولا يحيد عنها قيد شبر

***

ليست المجالس بوجه عام من مصطلحات الناس الجديرة بكثير من الاستحسان او بكثير من عكسه. فهي تتكيف بحسب ما يكيفها زعماؤها . ولهذا فان الارادة القوية والمستمرة تساعد على ترؤس الجماعات بسهولة

والمشكل في أمر كل مجلس جديد هو معرفة ما اذا كان سيظهر بين الجمع الحافل المؤلف من أعضائه بضعة أشخاص ذوي ارادة متينة وعزم ثابت لا يتزعزع قادرين على الاستمرار في الجهد والكد ولهم من سعة المحاكمة ودقة البصيرة ما يساعدهم على تمييز الامور الممكنة من الامور الخيالية

لحول مثل هؤلاء القادة تلتف الآراء المترددة المتحيرة بسرعة فان الاشخاص منذ بزوغ فجر البشرية وفي أثناء جميع الأدوار التي تعاقبت على التاريخ لم يتمردوا برهة طويلة قط فقد كانت الرغبة الخفية التي تكنها صدورهم هي دوماً أن يكون على رأسهم حكومة أو ما يماثلها تسوس أمورهم وتدير شؤونهم

ان الحكام الذين يفصحون عما يريدون بجلاء وصراحة بدون مواربة ولا مخاتلة يحصلون بسرعة على السلطة والنفوذ اللذين هما قعدتين ضروريتين للسلطة المستمرة . واذ ذاك يجمعون حولهم بسهولة أغلبية من شأنها أن تنقاد لبضعة افكار رئيسية أساسية عوضاً عن اتباع جميع التيارات الوقتية التي تحرك الأشخاص الذين لم تتعين لعقليتهم وجهة خاصة بعد . المجالس روح غير ثابتة كروح جموع الناس وهي تصطف وراء الزعماء الذين يهدونها الى سواء السبيل بوضوح وجلاء فتسير وراءهم مدفوعة الى ذلك بعامل الفطرة او الميل الغريزي

* * *

ان القضايا الكبرى التي تعرض على بساط البحث في البرلمانات لا يمكن ان تحل الا بواسطة اغلبية ملتفة التفافاً صادقاً حول احد رجال الحكومة تكون له القدرة على قيادتها لا بواسطة تلك الاغلبيات

التى تجمعها الصدفة والتى تظهر لحيز الوجود وتضمحل منه في خلال أسبوع واحد

أما جميع الوسائط الأخرى التى تورد في هذا الصدد بما فيها وسائط وضع القوانين الاساسية الجديدة فهى أقوال فارغة . لم يغير الانكليز قانونهم الاساسى منذ أيام الملكة « أنا » لكن الحق الذي لا مرية فيه هو أنه لم يكن لهم يوماً قانون مدون تدويناً باتاً

والذي جعل الشعوب اللاتينية تتناول قوانينها في أحايين كثيرة جداً بالتبديل والتحوير هو تلك العقيدة التصوفية التى لا تتغير المتمكنة من عقول تلك الشعوب في قدرة الدساتير التى لا تحدها الطبيعة أما تلك التبدلات فقد ظلت في الاصل عديمة المفعول على مدى الايام .

ليس للقوانين والأوضاع أي فضيلة اذ ليست هي التى تجدد الأرواح بتاتاً . ان الشعب لا يمكن أن يحصل على حكومة أفضل من ذاته . كما أن الارواح غير الثابتة تكون دوماً ذات حكومات غير ثابتة أيضاً .

ان أعظم الاخطاء اللاتينية من حيث الخطورة وأعصاها على التقويم والتحوير هي في حقيقة الاعتقاد بأن الجمعيات يمكن أن يرد اليها كيانها بواسطة القوانين . والذي منح الاشتراكية قوتها الاولية هو تعمم هذا الخطأ

أي كانت أطماع الساسة وأحلامهم فان العالم أصبح يسـير فى معزل عنهم بل غدا يسير بدونهم يوماً بعد يوم. فالعلماء و رجال الفن والصناعة والزراعة أي الاشخاص الذين يولدون للشعب قوته وثروته أمسوا لا يطلبون من السياسة ألا ان لا تعترض سبيلهم وتعوق أعمالهم. ان النظر بين الثور و بين لا يتمكنون من ايجاد شيء ولـكن باستطاعتهم التخريب والافساد ولقد سقط العالم في كثير من الاحيان ضحية زيغهم وضلالهم و بواسطة تأثيرهم النحس المشؤوم رسفت بلاد عديدة منذ أيام اليونان القديمة في اغلال الرق ، وطغى على كثير غيرها بحر الخراب والدمار



الفصل الرابع

تطور الجماعات نحو اشكال مختلفة

من الاستبداد

ان أعتصاب عمال السكك الحديدية البلجيكية الاخير والحركات المماثلة له التي حدثت في فرنسا وانكلترا وفي غيرها من مختلف البلاد كلها علامات تدل على الاهواء الجديدة التي غدت تختلج بها نفوس الخلق

وحقيقة الأمر ان كثيراً من هذه الاعتصابات لم تنتج عن احدى المفاوضات أو المباحثات التي تجرى في صدد الأجور بل نتجت عن دعايات سياسية غدت تدعيها طبقة العمال . فدساتير الحديدة القائلة بأن استخدام المعدنين والسكك الحديدية لعمال السكك الحديدية ودستور استئثار طبقة العمال بالحكم ، وما الى ذلك من الدساتير كلها

تترجم بأفصح لسان عن الافكار الجديدة التى أصبحت تتمخض بها عقول طبقة العمال

ولقد أصبح من الجلي في يومنا هذا أن الشعوب وحكومات هذه الشعوب أيضاً غدت تتطور نحو أشكال جديدة من الاستبداد والاستئثار بالحكم. فهذه الاشكال مشتركة أو جماعية في الظاهر لكنها في الحقيقة فردية وذاتية في كل حين بل يجب أن نلمع الى أن الحكومة الجماعية حتى عند أعظم الاشتراكيين تطرفاً كالشيوعيين والروسيين تمثل استئثار بضعة محرضين بالسلطة ليس إلا

إن اشكال الاستبداد هذه ترضى بها الجماهير دوماً بكل ارتياح لأنها [أي الجماهير] لم تفقه في الحقيقة أشكالا للحكومة غير هذه في يوم من الايام فرؤساء نقابات تلك الجماهير مثلا هم عبارة عن ملوك صغار تطاع أوامرهم بالسهولة التى كانت تطاع بها أوامر الطغاة الاسيويين في الزمن القديم أما خدم هؤلاء الطغاة الجدد فيتوهمون بأنهم من السادة الحكام ومثل هذا الوهم يكفيهم

***

وعلى ذلك فان العامل اليوم غدا لا يطمع بزيادة مستمرة في الأجور فحسب بل هو يتوق بوجه خاص الى زعزعة أركان الجمعية

التي تدعى عنده الرأسمالية وقلبها رأساً على عقب لكي تحل ديكتاتورية تخدم مصلحة خصة

ان صنوف العمال تعتقد بنفسها أيضاً القدرة على تشييد دعائم سلام عام بالتقريب بين عمال جميع البلاد وضم شملهم ولكنهم بينما يحمون بهذا الحلم سهى عن بالهم أن الحكومات الشعبية بحسب الحقائق التي قررها علم التاريخ هي دوماً محاربة (محبة للحرب) أكثر من حكومات السلاطين والملوك

بل ان (دولية) صنوف العمال السطحية تصطدم في الأصل بفكرة القوميات التي أخذت تنمو حديثاً في جميع البلاد فلقد غدت الشعوب التي فصلتها عن بعضها ضغائن كل منهم ومصالحه تحيط نفسها بحواجز جمركية وعسكرية وهي في كل يوم تزيد في تحصين هذه الحواجز ودعمها. إن كلمة (الاخاء) لا تزال مائلة في الشعار الجمهوري المرسوم دوماً على جدران لكن أثرها قد زال من القلوب منذ زمن بعيد !

***

ان الأهواء التي غدا يتوق اليها جمهور الخلق ترجع لأسباب مختلفة، ولما كان درسها جميعاً لا يتيسر لي هنا فسأقتصر على الالماع الى أن تلك الاسباب قد ازدادت قوة بسبب ما أظهره الحكام من

العجز الكامل أولا عن منع نشوب حرب مهلكة متلفة ثم عن الحصول على صلح يضمن عدم نشوب حروب جديدة

ان أى حكومة من الحكومات لا تبقى على حالها إلا بواسطة النفوذ الذى يولده النجاح ، فهي تضعف ثم تضمحل عندما يزول نفوذها و يتلاشى

يضمحل النفوذ تحت تأثيرات مختلفة نخص بالذكر منها الهزيمة العسكرية فان سقوط الحكومة يمكن أن يحصل عندئذ آنيا ، وهذا في الحقيقة نفس ما حدث للامبراطورية في فرنسة بعد الحادثة التى وقعت فى « سيدان » وللعهد « القيصرى » فى الروسيا بعد فشل حكم القياصرة وهزيمته ولجميع السلطنات الالمانية بعد نكبة جرمانيا وسقوطها من قمة مجدها

إن وقوع مثل هذه الحادثة طبيعي جداً ومن المعلوم أن المصائب والنكبات تحمل الشعب الذى يقع ضحيتها على التمرد ضد الحكام الذين لم يعرفوا كيف يمنعون حدوث تلك المصائب والبلايا

أما الحكومة الظافرة فانها على العكس من ذلك ترى أن نفوذها قد ازداد اذا كان ظفرها حقيقيا بكل معنى الكلمة

هذا ومع أن النصر الذى عقدت راياته فوق رؤوسنا كان جد

حقيقي فن النتائج التى حصلنا عليها من ورائه لا تبدو باهرة ولا تبعث على الارتياح الكثير يدلك على صحة هذا أن فرنسة الظافرة قد أصابها من الفقر نصيب أوفر مما أصاب المانيا التى لم يلحق ببلادها أى تخريب أو تدمير ، وفضلا عن أنها (أى فرنسة) لم تحصل على شيء من التعويض فقد غدت مجبرة على أن تقوم هي ذاتها بالتعميرات التى بلغ ما يقتضى لها من النفقات (٨٠) مليارا

ان المتنورين الالمانيين يعرفون هم ذاتهم أن حالتهم من الوجهة المالية أفضل من حالة فرنسة

ولقد كتب الالمانى المسمى (بارفوس) مرة مقالا في هذا الصدد قال فيه

« إن حالتنا من الوجهة المالية ليست من الردءة بمكان عظيم بل هى أفضل من حالة الحكومات الظافرة . فلقد فرضت علينا هذه الحكومات غرامات جسيمة لكنه مهما يكن من أمر هذه الغرامات فان مبلغها محدود . في حين أن التأهبات والتسليحات لا تعرف لنفسها حداً كما انها تميل الى الزيادة في التوسع دوما . وعدا ذلك فاننا نقتصد في العام مايعد : (٥٠٠٠٠٠) من الاشخاص . فهؤلاء الاشخاص عوضاً عن أن يلبثوا فى الثكنات فانهم يستخدمون

في الاعمال الصناعية حيث ينتجون سنوياً من المصنوعات الجديدة ما لاتقل قيمته عن المليارين من المركات الذهبية . » اه

ان فرنسة التي تخلت عنها اميركة في أول الأمر ثم تخلت عنها بعدئذ انكلترة غدت في كل يوم تزداد شعوراً بعزلتهاوانفرادها وبالاخطار التي تنتج عن هذه العزلة سيما منها خطر اكتساح بلادها من قبل العدو .

أما موقفها ازاء حلفائها القدماء فلا يدعو الارتياح ولا يبعث على الرضى والسرور . ولقد تكلم المستر(كينس) وهو كاتب انكليزي لايعد من أصدقائنا عن هذا الموقف فقرره في العبارات الآتية ، قال :

« ان على فرنسة بالرغم من انها خرجت من الحرب متوجة باكاليل الظفر أن تدفع لحليفاتها مبلغاً يعادل اربعة أضعاف مبلغ التعويضات التي دفعتها لالمانيا عند ما انكسرت عام (١٨٧٠)

« ولقد كانت يد « بسمرك » خفيفة الوطأعليها ازاءيد حليفاتها الآن . » اه

***

ولهذا فان الكدر العام لم يبد على الناس اعتباطاً بل هم محقون

في كدرهم لدرجة ما . أما هذا الكدر العام الشامل فقد جاء مساعداً لأماني صنف العمال المنعقدة على الاستئثار بالحكم ويلاحظ مع ذلك أن هذا الصنف الذي هو كثير الصياح والجلبة عنده ، يعلن عن مطاليبه لا يتضرر مالياً بأي ضرر من جراء الحرب بل على العكس من ذلك فقد تحسنت حالته كثيراً بينما أفراد الطبقة الوسطى قديماً قد وصلوا الى حالة يرثى لها من الفقر والضيق . ان بعض أرقام تكفي لاثبات هذا الأمر :

ان العامل والموظف غدا اليوم يربح أربعة أو خمسة أضعاف ما كان يربحه قبل الحرب في حين أن دخل ذوي مهن الحرة لم يصعد الى أكثر من مقدار الثلث عما كان . واذا نظرنا في بعض عمال معينين كجماعة المصححين في المطابع نرى أنه غدا باستطاعة كل منهم أن يحصل على أكثر من (٤٠) فرنكاً في اليوم .

أما الذين يحصلون على دخلهم من قبل الحكومة أو من وراء التجارة أو الصناعة فقد تربت خسارة معهم كثيراً ولكيلا نتكلم إلا عن أسعد ذوي الدخل وأكثرهم حظاً نفرض أن أحد ذوي الدخل الذين هم على عتبة التكملة بعد أن قضى حياته منكباً بكل نشاط على أحد الأعمال اليدوية أو الذهنية عاد للعمل حوالي

الستين من عمره ، وفى صندوقه من الدخل مبلغ ستة آلاف فرنك . ولكى يستوثق من أمر غده ابتاع برأسماله عدداً من أسهم الحكومة أو من صكوك السكك الحديدية وما اليها

ولبث الرجل يقبض من وراء هذه القيم التى تسمى عند جمهور الماليين « بالقيم المضمونة تماماً » الايرادات ذاتها . ولكن لما كان النقد الاعتبارى أى الاوراق المالية التى تدفع للرجل فقد فقدت من (قوة ابتياعها) الثلثين فقد نقص من مبلغ دخل الرجل فكأنما حجز من مبلغ دخل الرجل ثلثاه . وعلى ذلك فقد هبط مبلغ الدخل الذي هو معادل لستة آلاف من الفرنكات الي الفين فقط .

أما العامل فلم يعهد مثل هذا النقص . فان أجرته ترتفع من ذاتها تقريبا حالما تهبط قوة ابتياع النقد الذى يدفع اليه .

***

لقد ابتعدت بنا هذه الملاحظات عن موضوع هذا الفصل الاساسى وهو تطور السلطات السياسية نحو اشكال مختلفة من الاستئثار بالحكم

فبعد أن أبنا هذا التطور عند صنوف عامة الخلق بقى علينا أن نحققه لدى الصنوف السياسية التى قلدت اليها سياسة الشعوب وادارتهم .

فنقول أنه سبق حدوث هذا التطور انحلال كامل في روابط الاحزاب السياسية القديمة . فلقد بدأت عليها جميعا هيئة « تقادم العهد » التي تؤذن بانتهاء أجل الاشياء .

فالراديكاليون و لاشتراكيون المتحدون وأنصار الملكية وكثير غيرهم غدوا يتكلمون بالفاظ مبتذلة لم يعد يتجاوب له أي صدى في النفوس ولم تعد تؤثر فيها في شئ

ان القضايا التي كانت بالأمس تستهوي النفوس والتي يريد القوم اليوم أن يبعثوها من أجداثها لاتدعو سوى استنكار حقائق الساعة الراهنة وخلو البال عن الميل اليها . ليت شعري من غدا يهتم الآن للبحث في موضوعات نظير موضوع محاربة الاكليريكية أو انقاذ المستشفيات والمدارس من نفوذ جماعة الاكليروس أو طرد جمعيات الرهبنات من البلاد واخراجهم منها او فصل الكنيسة عن الحكومة أو ما الى ذلك من الموضوعات ؟

ان الاحزاب السياسية القديمة في البلاد الأخرى تعاني هذا الانحطاط ذاته . فالسياسة الانكليزية القديمة مثلا غدا يظهر للناس اليوم شيئا فشيئا انها غير ممكنة . اذ ما الذي آلت اليه حال تلك المذاهب « العزلة الفخيمة » وتلك الادعاءات المتعلقة ببسط السيادة

على البحار والاستيلاء على الشرق ؟ وعلى هذا فقس .

الا أن الافكار والآلهة لا تضمحل خلال يوم واحد . ذلك لانها قبل أن ترقد فى اللحود وتصبح أثراً بعد عين تدور بينها رحى الحرب مدة طويلة .

وهذا هو السبب فيما نراه من محاولة الاحزاب القديمة فى جميع البلاد وسعيها فى سبيل الحصول على النفوذ عن طريق اضافة بعض الافكار الجديدة سيما اكثر هذه الافكار تطرفا — على مبادئها القديمة التى تتمشى عليها

***

عند ما تتناقش الاحزاب السياسية تضطر الحكومات الى المضى فى أعمالها . ولهذ فان جميع رؤساء الوزارات في مختلف البلاد أصبحوا شيئاً فشيئاً بمثابة ملوك حقيقيين امام بطوء الجماعات وعجزها . أما الوزراء الآخرون الذين كانوا فيما مضى معادلين لهؤلاء في المنصب فلم يعودوا سوى مرؤوسين عليهم أن ينفذوا الاوامر التى يصدرها سيدهم الحالى ليس الا .

ان هذه السلطة المطلقة التى ولدت أثناء الحرب لا تفترق من حيث الجوهر عن السلطات الاوتقراطية القديمة الافي موضع واحد.

وهو أن الاوتقراطي في الزمن القديم لم يكن يسقط عن عرشه الا بواسطة ثورة بينما الاوتقراطي الحديث يمكن أن يسقط بواسطة التصويت ضده في البرلمان . وهكذا فن المستر لويد جورج بعد أن حكم انكلترة وقسما من أوربة حكما مطلقاً مدة سنوات عديدة سقط عن عرشه بواسطة تصويت بسيط جرى ضده في البرلمان عقيب ركوبه متن الشطط في سياسة الشرق .

ولقد كان رؤساء الوزارات حتى الآن ينحنون أمام التصويت الذي يجرى ضدهم في البرلمانات فيسقطهم عن منصة الحكم : الا أنه قد حدث أخيراً تطور جديد في العالم ابتدأ أولا في ايطاليا . وان ما أظهره رئيس الوزراء الايطاليين الذى أبلغه الى هذا المنصب ظفر المذهب الفاشيستي من الاستخفاف بالتصويت البرلماني يكاد يدلنا على أن سقوط الوزراء من منصة الحكم لن يتم دوماً بعد الآن بالسهولة التي يجري بها الآن .

*

قد اشتبكت مصالح الشعوب وأغراضها اشتباكاً أصبحت معه (السلطة المطلقة) التي تعاظمت في داخلية البلاد تتناقص على العكس من ذلك تناقصاً مستمراً في الخارج . فأصبحت الضرورة

تقضي بالسعي وراء بعض الاشكال الاولية للحكومات الجماعية كالمؤتمرات والمجالس والبعثات وجمعية الأمم وما الى ذلك . أما هذه الوسائط فانها تزداد تنوعا وتعدداً في كل يوم ، ومع ذلك فان النتائج المستحصلة من ورائها لم تقترن حتى الآن بالفاعلية المطلوبة

ان أشهر هذه السلطات الجماعية هي جمعية الأمم التي سنفرد للكلام عنها فصلا خاصا بعد قليل . ان تأثير هذه الجمعية في الزمن الراهن يكاد يكون والعدم سواء ، ولكن من الجلي تماما أنه فى اليوم الذى تصبح فيه الجمعية ذات سلطة حقيقية أي عند ما يتيسر لها الواسطة التي تجعل قراراتها محترمة سيغدو العالم مسوساً من قبل حكومة مطلقة فوق الحكومات تتصرف بأمره كما تشاء .

ولهذا فان الولايات المتحدة لما رفضت الاشتراك بجمعية الأمم رفضا باتا — كما سبق لى أن ألمعت في غير هذا المكان — لان بصيرتها نفذت الى هذا الأمر الجلي نفوذا صحيحا فوقفت على حقيقته التي غابت عن نظر رجال الحكومات الاوربية فلم يبصروها ولم تدركها بصائرهم ولقد استنكرت الولايات المتحدة أن يكون شعب عظيم مجبراً على الخضوع لقرارات جماعة أجنبية ، وبدا لها أن هذا الامر من الامور التي لايمكن القبول بها

***

لا شك بأنه لن يتعاصى على الاحتمال شكل من أشكال الاستبداد التي غدا العالم مهدداً بها تعصى الاشتراكية الظافرة ، اذ أنه ستحمل الشعوب التي تقع تحت سلطة قوانينها عبئاً من البؤس لا أمل بالنجاة منه .

بعد أن قضت الاشتراكية على الروسيا وأعملت في البلاد الالمانية والهنغارية معول التخريب والتدمير مدة بضعة اشهر ، قامت تهدد الحياة الاجتماعية في ايطاليا ، لكن هذه قد تملصت منها بواسطة حركة رد الفعل الشديدة التي جاءت بها (الفاشيستية) :

ومما يدعو للسرور أن فرنسة من البلاد التي تقل عن غيرها استهدافاً لتحقق المبادىء الاشتراكية وذلك بفضل طبقة الزراع التي تؤلف جزءاً ثابتاً في كتلة سكانها

ان القروي الفرنسي قد أصبح في طليعة القابضين على زمام الثروة الحقيقية ، ولا يهمه كثيراً أن يفقد الفرنك الثلثين وما يزيد عليهما من « قوة ابتياعه » فن محصولاته الزراعية كالقمح والسكر والماشية وما اليها عبارة عن نقد ميسور لمبادلة والمعاوضة لا يعتري قيمته النقص ولا يتأثر بهبوط سعر الاوراق المالية .

ان صنف القرويين قد اثرى اثراء عظيماً أثناء الحرب ولم يكن

له من أمنية سوى الاحتفاظ بالارض التي يحصل عليها • وفضلا عن ذلك فهو لم يكن يوما بحاجة الى احد بينما الناس بأجمعهم محتاجون اليه .

ولقد كان هذا الصنف خلال أيام الصلح كما كان أثناء نشوب الحرب حصنا حقيقيا في وجه تلك الجمعيات التى تحركها الاطماع الجشعة والاوهام الفارغة . وهو يؤلف اليوم نواة من نوى المقاومة الواقفة في وجه الديكتاتوريات الشعبية التى أحدثت في أوربة ما أحدثت من الاضرار



الفصل الخامس

جمعية الامم واوهام الناس بشأنها

لو كتب تاريخ الاوهام التي ذهبت الشعوب المنقرضة ضحيتها لملأ مجلداً ثقيلا . اما الاوهام المتسلطة على الازمنة الحديثة فانها لو احصيت في كتاب لتألف من ذلك مجلداً اكثر ضخامة ايضا .

وفي الحقيقة ان العالم لم يكن يوما — حتى ولا في عهد الحروب الصليبية حيث كان الايمان صحيحا نقيا لا تشوبه شائبة — نقول لم يكن العالم يوما تحت سلطة الاوهام الاعتقادية او السرية والقوانين المتفرعة عنها — قدر ما هو اليوم .

وانه ليصعب على المرء ان ينكر مثلا انه يوجد في عداد الاسباب الرئيسية لنشوب الحرب العظمي اوهام اعتقادية في دماغ شعب يعتقد ان الارادة السماوية وتفوقه من حيث العنصرية قد اختصتاه لان يحكم العالم ويتولى ادارة اموره .

على انه لم يكد يحدث الصلح الذى جاء خاتمة لهذه القصة الاعتقادية حتى أخرجت الايام للعالم أوهاما جديدة لاتقل عن تلك شؤماً ونحساً . فهي تقلب أوربة اليوم رأساً على عقب وتهددها بحروب ستفوق من حيث الضرر والتخريب المعارك التى لم يخرج منها العالم الا بكل جهد وعناء .

ان العلم الحديث قد استطاع فصل اجزاء اليابسة عن بعضها وجعل الفكر يستطيع الانتقال الى المدى البعيد بسرعة البرق ولكنه ليس من القدرة بعد بحيث يستطيع تبديد الاوهام التى تعمي أبصار الخلق و بصائرهم

بين هذه الاوهام يوجد أوهام كانت السبب في وجود جمعية الأمم والقاعدة التى قام عليها صرح بناء هذه الجمعية فلو كانت ارادة الشخص وقبول الشعوب ورضائها تكفي لتأسيس الانظمة الدائمة اذن لكانت جمعية الأمم قد أحدثته بصورة باتة نهائية .

لقد كان الموجد لهذه الجمعية في الحقيقة رئيس حكومة حبته الظروف بقدرة مطلقة . وقد قوبلت نيته التى رمى اليها والتى جاءت مجددة لنيات قديمة تماثلها بكل شغف وهيام من قبل الشعوب التى جعلها ترجو الصلح الأبدى على يد مشروعه .

أما اميركا فقد تفردت خلافاً لجميع بلاد العالم برفض الهدية التي قدمها أحد ابنائها للعالم فكانت الدهشة التي اعترت أوربة من هذا الرفض عظيمة . ولكن الايمان أو الاعتقاد بقي ثابتاً راسخاً غير متزعزع حتى اليوم الذي اصطدم فيه بجدار التجربة

***

لم تمض الا سنون قليلة جداً على الزمن الذي قام فيه بناء جمعية لأمم على أسس لها هيئة الأسس الثابتة التي لا تقوى الايام على ابادتها وتخريبها . ولقد زال اليوم اغترار الناس بها وتبددت أوهامهم بشأنها تبدداً بلغ من العظم حداً يضاهي جسامة الآمال التي كانت معقودة عليها عند ما خرجت لحيز الوجود . فان عجزها قد ظهر في الحقيقة كاملا في جميع القضايا التي عالجتها

أما الآراء التي أبدتها فلم يبق رأي منها نافذاً صاغية عدا القرار المختص بتقسيم (سيليزيا العليا) .

لقد كانت هذه الحالة جد استثنائية لان طريقة الحل التي بدتها الجمعية جاءت مطابقة للحل الذي تم الاتفاق عليه سلفاً من قبل الذين يهمهم شأن تلك القضية بدون أي جدال أو خصام . أما فيما عدا ذلك فان جميع القرارات الاخرى التي أصدرتها جمعية الأمم

كانت تلاقى الرفض من قبل ذوي العلاقة بما قررته .

ان اول خلاف عرض عليها حسمه هو الخلاف الذى عرض أمام محكمتها من قبل (بوليفيا) و (شيلى)

أما مندوب (شيلى) فقد رفض الاعتراف باختصاص جمعية الأمم وأضاف الى ذلك هازئاً متهكما بأنها اذا كانت تدعى المقدرة على رسم خارطة العالم من جديد (فان هذه « الواسطة » التى خلقت لتثبيت دعائم الصلح في العالم سيؤول الأمر بها الى اثارة الحرب) العالمية كما أن هذا المندوب ذاته قد أنكر على جمعية الامم أيضاً حقها في التدخل والتوسط في شؤون اميركا

أما المجلس (أى مجلس جمعية الامم) فقد قبل بهذا الدرس بكل تواضع واحتشام ، ثم لكي تحفظ الجمعية مكانتها قليلا ولو في الظاهر قررت تعيين لجنة مهمتها تحديد صلاحية الجمعية

أما البولونيون فلم يكونوا أقل شأناً من غيرهم فى هذا الباب فقد أفصح الوفد البولونى أمام الملأ بكلام خرج فيه عن المألوف خروجاً مشفوعاً بالازدراء والاستخفاف عما يخالج ضميره متعلقاً بقضية أراضى (فيلنا) التى عرض على جمعية الأمم أن تبت في أى الفريقين المتنازعين يجب أن يختص بها دون الآخر ، وأعلن عن ذلك

بقوله (ان بولونيا لن ترضى عن الحل الذيستقترحه جمعية الأمم)

***

ولقد ارتأت جمعية الأمم لكي تمنح قراراتها التي لم يحترمها أحد من الناس شيئاً من القوة أن تحصل على الحق الذي يخولها محاصرة الحكومات التى ترفض الخضوع لها بحصار اقتصادي .

أما تهديد الحكومات بمثل هذا الحصار فيذهب عبثا اذ أنه لكى يصبح مشروع حصار كهذا نافذا يتطلب الامر فى الحقيقة مصادقة الاربعين دولة التي يتألف من ممثليها مجلس الجمعيةوهيهات أن تتم مصادقة هذه الدول . بل من المعلوم أن نابليون برغمالسلطة المطلقة التيكانت في يده لم ينجح في الاستمرار على محاصرة انكلترة بمثل هذا الحصار .

ولقد لاحظ مندوب الحكومة الايطالية وبحق لاحظ أن طريقة الحصار لايمكن تطبيقها بسبب الضرورة التى تقضى (باحترام استقلال مختلف الحكومات) فمن الواضح والحالة هذه أن أى حكومة من الحكومات لن تنحنى أمام مقررات يصدرها نوع حكومة خارجية فوق الحكومات وهي تميل الى عدم التنازل عن استقلالها .

***

اذا كان عجز جمعية الامم تاما فما ذلك الا لأنه لا يوجد لديها أي واسطة تستطيع ان تحمل الناس فيها على احترام قراراتها. فان القوانين سواء كانت دينية او اجتماعية تستند جميعا بدون استثناء الى عناصر اساسية ، وهذه العناصر هي المعاقبة والمكافأة أو الجنة وجهنم .

ولما كانت قرارات جمعية الامم عبارة عن قانون تعوزه عقوبة معينة فقد بقيت لا حول لها ولا طول ، فهل يمكن أن نفكر بمنحها جيشا يستطيع ان يحمل الناس على احترام الاحكام التى تصدرها ؟ ان هناك شرطا ، لا يمكن أن يكون مثل هذا الجيش ذا نفوذ و (فاعلية) بدونه ، وهذا الشرط هو ان يكون عدد الجيش عظيما وبالتالى باهظ النفقات ، ولما كانت جميع الامم ستشترك فى تجنيد هذا الجيش فلن يكون عليه ان يشتبك في ملحمة ما ، فتضعف هيبته لذلك في نظر الناس ولا يرجى منهم ان يخشوا بأسه كثيراً

اننا اذا ما اكدنا بأن القانون الذى تعوزه العقوبة اي الذى يعوزه الضغط لن يصبح في يوم من الايام محترم الجانب فاءما نؤكد

بأن القوة هي عماد الحق الضروري وعدته التي لاغنى له عنها . وانه لما كان هذا شأن القوة فلا يوجد في العالم هذا السبب حق بدون قوة

ان هذه الحقيقة التى عبثاً تحاول الجمل الصبيانية التى يؤلفها الاخلاقيون طمسها وحجبها وراء ستار اسود قد تم معترف بها من قبل جميع المتشرعين الذي تغلغلوا قليلا في اعماق العلم الذى يدرسونه .

ولقد أخ المتشرع البلجيكي الكبير (دمون بيكار) في مؤلفه الحديث « الشؤون الثابتة في الحقوق » وسهب في الكلام حول هذه النقطة وهي « ان عنصر الضغط هو من العناصر الاساسية في الحقوق » واضاف على ذلك ما يلي :

« ان الدستور القائل ان القوة لايمكنها ان تخمق لحق وتوحده ليس الا عبارة عن صيحة ساذجة منبعثة عن جهل حريء في الشؤون الحقوقية والقانونية »

ان أي قوة سواء كانت معنوية او مادية تؤول الى نتيجة واحدة لاتختلف منذ الزمن الذي تفور فيه باجبار الناس على التعرف عليها ، واذا كان البابا (غريغور السابع) قد استطاع فيما مضى من

الازمان أن يجبر امبراطوراً من امبراطرة ألمانيا الذين اشتهروا بالحول والطول والشوكة والقدرة على المجيء الى اعتاب كاتدرائيته في (كانوسا) ويطلب منه المغفرة وهو راكع على ركبتيه — فما ذلك الا لأن هذا البابا كان فى نظر الامبراطور يستطيع التصرف بجميع القوى السماوية والجهنمية كما يشاء ، ولهذا فقد كان يبدو أن الحبر الاعظم المنعم عليه بمثل هذه القوة لا يمكن أن يغلب أو أن يقهر .

وعلى ذلك فان النفوذ يمكن أن يتحول الى قوة معنوية تفوق القوي المادية . فاذا آل الامر بجمعية الامم في زمن من الازمان التى هى بعد مجهولة لا يعرف موعد حلولها الى الحصول على نفوذ كاف فان تأثيرها يصبح حقيقياً ، أما فى الوقت الحاضر فانها والعدم سواء .

***

ان الكلام عن الدور الذى ستلعبه جمعية الأمم في المستقبل عديم الجدوى . ولقد بلغ من استعار نار الضغائن الموجودة اليوم بين الشعوب وتعاظم هوة التناقض بين المصالح التي تفرق بينها ان أى محكمة دولية غدت لا تستطيع الفصل في أى خلاف أو نزاع .

ومن المؤكد انه لن تكون قراراتها التى ستقف حائلا أمام مصر وتركيا والهند لتمنع هذه الشعوب من أن تلح في طلب استقلالها بحد السيف عند ما تصبح من القوة بحيث تتمكن من ايصال أصواتها الى الاسماع . كما انه لم يقدر لمحكمة مثل هذه أن تتمكن من منع اليابان عند ما يكثر عدد أفرادها لدرجة عظيمة عن المطالبة بحرية الدخول الى اراضى الولايات المتحدة الاميريكية لمواطنيها .

انه ما من احد يستطيع اليوم حقيقة ان يوقن بأن جمعية أمم ستستطيع (تصفية) المشاكل التى نرى بأم العين انها تزداد تعاظما بين الحكومات يوماً بعد يوم ، وانها ستتمكن من ازالة جميع اسباب الخلاف والنزاع القائمين بينها

***

ان قدماء المدافعين عن جمعية الأمم انفسهم قد أضاعوا ثقتهم بها بسرعة . وانني مورد كبرهان على صحة ما اقول النبذ الآتية التى اقتبستها عن جريدة (الطان) تلك جريدة التى مر حين من الدهر كانت فيه تفوق جميع انصار تلك الجمعية تعصباً لها وتحزباً .

« ان جمعية الأمم هل هى من القدرة بحيث تستطيع منع نشوب الحرب او إيقافها ؟

« في عام (١٩٢٠) اصبح بلاشفة روسيا على وشك احتلال (فرسوفيا) فما كان من جمعية الأمم الا ان اجتنبت التدخل فى هذا الشـأن .

« وفي عام (١٩٢١) شهر اليونانيون حسـام الحرب في وجه الاتراك . أما جمعية الأمم فقد انسحبت بانتظام من معالجة هذه القضية والاهتمام بها .

« على انه لا يسعنا ونحن نريد ان لا نبخسـها حقها الا ان نقول انها رغبت فى الفصل فى قضية (فيلنا) ولـكن حكومة (ليتوانيا) رفضت « ببرودة » شـكل المصالحة الذى استصوبه مجلس جمعية الأمم .

« هذا هو نوع السلطة التى تملكها جمعية الأمم عند مايطلب منها ان تمنع سفك الدماء او ان توقف هـذا الامر عند حد لا يتعداه . » اهـ

***

لمـا كان اعضاء جمعية الامم يتوقون لجعل نفوذهم النحيل

أقوى مما هو عليه ويعتقدون كذلك أن المهمة الملقاة على عاتقهم كبيرة النفع ، فقد خصصوا لأنفسهم كما خصصوا لجماعة (محسوبيهم) و (مقربيهم) الكثيري العدد رواتب باهظة لا تقل عن رواتب الأمراء والملوك . وبحسب ماجاء في تقرير المسيو « نوبلمر » نرى أن السكرتارين يتقاضون راتباً سنوياً قدره (٢٥٠) الف فرنك ، ومعاونيهم يكتفون بمئتي الف فرنك . أما رؤساء الدوائر الذين يوجد بينهم أفراد من الاشتراكيين المعروفين فيتناولون ثلاثمائة الف فرنك كما أن المتوسطين من الموظفين يتقاضون مبلغاً يضاهي راتب مرشال في فرنسة

ان هولاء الموظفين المنعم عليهم برواتب ملوكية قد انتخبوا من جميع الانحاء تقريباً ، على أن أمر انتخابهم كان حسب (عيار « التواصي ») التي كانوا يحمونها من ذوى الكلمة المسموعة . ولهذا فقد كنت ترى بينهم أستاذ صغيراً من أساتذة المدارس العادية أو مراسلا بسيطا من مراسلي الصحف وهلم جرا .

على ان اعضاء جمعية الأمم لم يتفردوا وحدهم في أمر تخصيص أنفسهم باجور لا يسلم بصحتها عقل فان فرنسة وأوربة صبحة اليوم غاطستين حتى الاعناق في بحر زاخر من (الوكلات) أو

(البعثات) الطفيلية التي لا يدخل عددها تحت حصر، والتي سنرى بين عشية وضحاياها ان افرادها أصبحوا من أصغر موظف مكلف (بتصفية) حسابات الرزم المتكدسة حتى المكافين (بمناظرة) أعمال التعميرات من ذوى الثروات وما ذلك الا بفضل الرواتب الملوكية التي يتقاضونها . ففي (فينا) مثلا يسكن اعضاء لجنة التعميرات في قصور فخمة يكتنفها سياج من الزينة الاسيوية البديعة

وفى ألمانيا ذات الشيء أيضاً فان رواتب موظفي لجنة التعميرات هناك بحسب المعلومات التي نشرتها جريدة (الماتان) تتراوح بين ثلاثين الفا من الفرنكات حتى الاربعمئة الف فرنك

ولقد أتينا على بيان هذه الارقام لانها تساعدنا على أن نرى الى أي درجة سيصل نحس الطالع طالع الامة التي يصيبها الفشل في الحروب المقبلة . كما ان أرباب النظريات الذين يعولون على جمعية الأمم فقط لأجل تثبيت دعائم الصلح ومنع شن الغارات يجدون في التبصر بهذه الارقام درسا فلسفيا ينتفعون به

ان وراء تلك الستارة الخطرة التي نسجها النظريون من أوهامهم مراجل تغلى فيها الضغينة التي يحفظها في صدره شعب يعد ستين مليون نسمة لا يرى لزوما لان يكتم الناس بأنه تواق جداً

الى الانتقام عند مايشعر بأن فرنسه قد اضعفها اختلاف بنيهاوأنهك قواها تنازعهم وشقاقهم . أن الحروب القادمة سوف تنكر الشفقة اكثر من كل مرة وستستصوب تلك الحكمة التى لفظها (برنوس) الذى ينتسب لبلاد (غاليا) قبل ألفي سنة وهى: «الويل للمغلوبين» وهكذا فقد حول (برنوس) الي شكل دستور عام احدى تلك الحقائق الابدية التى سيستمر تحكمها برقاب المخلوقات الي أن يبرد جرم كرتنا الارضية على الكامل وتفقد الحياة علي سطحها

ان جمعية الأمم بالرغم من عجزها الكامل في الوقت الحاضر فهى جديرة مع ذلك بان يحتفظ بها وذلك لكى تسعى في اخماد نار المنازعات والمخاصمات الصغيرة التى تذكى نارها الانانية والاثرة قبل أن يندلع لهيبها فيكون سببا فى التهام معارك كبيرة .

ان التهدد والتقلقل يكتنفان أوروبة من كل جهة في الوقت الحاضر، ففي مثل هذا الجو المحيط بأوربة ليس من الامور العادمة للنفع أن توجد محكمة حائزة على قسم مهما كان ضئيلا من آثار السلطة والنفوذ اللذين غدت تفقدهما في كل يوم الآلهة ، والانظمة والملوك

الفصل السادس

النفوذ

والدور الذى يلعبه على مرسح السياسة

لقد سبق لى أن ألححت في الكلام والحفت حول عمل النفوذ في حياة الشعوب ومبلغ ماله من التأثير فيها . على ان الرجوع الى الكلام في هذا الصدد هنا ايضا لن يخل من فائدة

يؤكد الاقتصاديون بأن الحروب ستصبح عديمة الفائدة مادامت تعود على الغالب بالخراب والدمار والافلاس بقدر ما تعود على المغلوب . على انه يجب ان لا ننسى مع دلك بأن النصر كان ولا يزال ولما يزال اعظم مولد للنفوذ الذي تتطلبه سعادة الشعوب ورفلها في حلل البحبوحة والرفاه

ان النفوذ هو الذى يحكم الناس اليوم كما حكمهم في جميع الاجيال التى تعاقبت على التاريخ . والدي رفع اليابان الى مصاف الحكومات الكبرى انما هو حربها مع روسية ، كما ان الحرب ايضا

هي التي نقلت صولجان التفوق الدولي في اوربة الى يد انكلترة بعد ان كان فيما مضى بيد المانيا

ان مؤتمر لوزان واحتلال الرور من البراهين الناصعة على التأثر الذي يعود به النفوذ على الشعب . فان هاتين الحادثتين تفوقان من حيث الخطورة والاهمية جميع الحوادث التي رآها الناس منذ أيام عهدة الصلح على وجه التقريب وذلك من الوجهتين السياسية والنفسية.

أما فيما يتعلق بفرنسة فان دخولها الى الرور بالرغم من المعارضة البريطانية البالغة منتهى الشدة دل على تحررها من نير الرق الانكليزي الذي تزداد حلقاته يوماً بعد يوم . كما انه أشار الى ان نفوذها بدأ بالعودة الى الارتفاع والتسامي .

وأما من خصوص تركيا فقد كانت الحكومات في أمس اليوم الذى أحرز فيه مصطفى كمال النصر على اليونان بسرعة الصاعقة تدرس الوسائل التى تضمن اخراج الاتراك من أوربة اخراجاً باتاً ، بل لم تكن حتى أمس ذلك اليوم تتنزل لقبول رسل الاتراك وسفرائهم .

أما في اليوم الذى تلي النصر التركى فقد تبدلت الاحوال تبدلا جوهرياً آنياً . اذ أن ذلك الوزير المتعاظم المتغطرس ونعني به وزير الأمور الخارجية البريطانية وقتئذ قد ذهب بنفسه الى مفاوضة المندوبين

الترك في لوزان ، ولبث مدة ثلاثة أشهر يفاوض أولئك المندوبين (الذين جعلهم النفوذ الذى حصلوا عليه من وراء النصر يتصلبون في مطاليبهم بقدر ما جعلهم أيضاً يسخرون من كل مايعرض عليهم) في شروط صلح أجبر بريطانيا على التنازل عن جميع ما تدعيه .

ولما كانت فرانسة مشتركة في تلك المفاوضات فلم يكن لها مناص الخضوع لنتائج تلك الاختلافات الواضحة وضوح الشمس في رابعة النهار التى فرقت كلمة الحلفاء . ولقد استفاد الترك من ذلك فعرضوا مطاليب لم يكونوا أبداً ليجرأوا على عرضها امام خصوم أكثر اتحادا واتفاقاً

***

ان احتلال الرور قد قلب رأسا على عقب جميع افكار الحكومة الانكليزية التى كانت على يقين تام بأن فرنسة ستبقى مقيدة بما تريده بريطانيا وتبغيه .

وعند ما كانت انكلترة تساند المانيا وتدعمها ضدنا كانت في ذلك تسير بحسب ما تمليه بعض المصالح والاغراض السياسية التى لايجب أن نتجاهل ما لها من قوة وسلطان .

أن الخطة التى يسير عليها الخصم لايمكن أن يدرك كنهها الا

بعد تكبد الجهد الذى يتطلبه اثبات الامر بحسب افكار ذلك الخصم .

وعليه يجب أن نحاول استبدال عقليتنا بعقلية الساسة الانكليز منذ أوائل أيام الصلح ولنفكر بعدئذ لنعلم ماهي البواعث الرئيسية التى تجعل سياستهم تسير في الوجهة التى نراها تسير فيها .

بعد ان ستولت انكاترة على ما يمكنها الحصول عليه من المانيا من مستعمرات وسفن حربية وتجارية وبضائع وغيرها كانت لها مصلحة واضحة في اقالة المانيا من كبوتها الاقتصادية لتتمكن من بيع بضائعها فيها كما في السابق . وعلى ذلك فقد أصبح واجباً أن يحال بين فرنسة وبين قبض النقد الالماني الذى يمكنها من ترميم ايالتها المخروبة لئلا يمتنع تسربه الى خزائن التجار البريطانيين .

وفيما عدا الفوائد التجارية التى تجنيها بريطانيا العظمى من وراء معاونتها للالمانيين فقد كانت في خطتها تتبع قاعدة من القواعد التقليدية في سياستها وهي منع فرنسه من أن تصبح قوية جداً امام دولة المانية ضعيفة جداً .

ان هذه الخلاصة الموجزة لسياسة الانكليزية التى أفضنا في ايضاح كنهها في امكنة أخرى من هذا الكتاب أكثر مما أفضنا

هنا — يساعد على ادراك السر في معارضتها كما انهـا تبين لماذا يضعف نفوذ فرنسة في اوربة على الكامل لولم تحصل عليه هذه ثانية نقيامها بعمل استقلالي محض . ولا مشاحة بأن فرنسة لولم تقم بما قامت به لحل في اوربة التفوق الدولي الانكليزي مكان التفوق الدولي الجرماني بصورة نهائية .

يعترف الآن الكثيرون من متنوري الانكليز بما تنطوي عليه سياستهم من الغفل . واعترف (الدوق دونرتمبرلند) في خطاب له بأن غاية جميع جهود الحكومة الانكليزية تنحصر في مساعدة المانيا على التملص من النتائج التي جرها عليها انكسارها » و« انه وصل الامر بالمستر لويد جورج الى حد التهديد بقطع العلاقات مع فرنسة وعقد محالفة مع المانيا » .

كما ان هذا الخطيب ذاته قد أتم خطابه بقوله « ان الاستمرار على اتباع مثل هذه السياسة لاشك بأنه سيفضي بنا الى خوض غمار حرب جديدة في اوربة قبل مضي برهة جديدة كما لاشك في طلوع الشمس غداً » .

* * *

كثيراً ما اسى رجال حكومتنا ما للنفوذ من المكانة الاساسية

ولقد نسوه تماماً عند احتلال اثرور فقد دخلت قطعات جيوشنا الى اثرور وهي تقدم رجلا وتؤخر أخرى بينما كان يجب الدخول اليه بكل أبهة وعظمة بأن يصطحب الجيش معه عدداً من المدافع الرشاشات ويضرب على الطبول وينشر الألوية والاعلام .

لكن مما يؤسف له أن الذين كانوا على رأس القوات القائمة بهذا الاحتلال قد غابت عن ذهنهم تماما عدة عناصر أساسية في توطيد النفوذ سيما منها هذا العنصر القائل : « بأن النفوذ الذي يفوت القائمين بالأعمال أن يظهروه للناس وان يحيطوهم به علماً عند البدء في الاعمال والمستمرة بالحركات لا يمكن الحصول عليه بعد ذلك الا بصعوبة كبيرة »

وهكذا كان من نتيجة التغاضي [illegible] هذا [illegible]

دخلت الجيوش العراقية [illegible] اثرور وهي [illegible] وبصورة [illegible] عوضاً عن [illegible] بصورة [illegible]

أما [illegible] في [illegible]

[illegible] كثير من [illegible] الاحتلال [illegible]

يحاكموهم أي على سبيل الاقتصاد في الوقت والعمل وهكذا فقد كان يكفي عدد قليل من الامثلة للعبرة والزجر

ولقد كان من نتائج جهلنا بعلم النفس ان حدث عصيان عام فقد لاحظ « هرمان مولر » أحد رؤساء وزارة المانية السابقين وبحق لاحظ : « ان ضبط الحالة الذهنية السائدة في الرور وجعلها في قبضة اليد لا يكون ممكنا الا اذا شعرت كتلات السكان بان المقاومة غير ممكنة ولمست عدم امكانها لمساً . »

فكيف استطاع القابضون على زمام الحكم عندنا اغفال عناصر اساسية في نفسيات الشعوب نظير هذه وكيف أمكنهم أن يذهلوا عن أن بذل شيء من الشدة كان من شأنه أن يسهل عليهم افهام جماهير السكان بان المقاومة غير ممكنة بوجه من الوجوه ؟

***

ان الذين حكموا الشعوب لم يحكموها دوماً في الحقيقة بواسطة القوة بل بواسطة النفوذ فان سلطتهم كانت تضمحل عند تقلص نفوذهم . فهذه القاعدة الاساسية في صناعة حكم الشعوب قلما عانت استثناءا

ان النفوذ سيبقى دوماً اكبر العناصر المسيطرة على جماهير العامة

التي هي عاجزة عن الشعور بحوادث المستقبل عجزها عن ادراك الحقائق الراهنة. اذا منت الأيام على رجل من رجال الحكومة بالنفوذ يمكنه عندئذ أن يعلم كيف يسير الآراء العامة طبق رغباته وبذلك يمنح قراراته الشخصية قوة لا كبيرة حتى أن صناعة حكم الشعوب غدت اليوم تستند على هذه العملية في جل الاوقات

والواقع انه يسود أوربة منذ أوائل أيام الحرب عدد قليل من الزعماء المطلقي التصرف الذين منت عليهم الايام بالنفوذ والذين يستعملوا الجماعات الالكي يمنحوا احكامهم الشخصية أي الفردية القوة اللازمة

هكذا كان بوجه خاص دور الرئيس ولسن الذي اعتبر كممثل الشعب المستعد في أثناء الحرب. وقد ساعده نفوذه الذي لاحد له على قلب جميع ما خلفته يد التاريخ رأساً على عقب وعلى تحويل قدم السلطنات الأوربية الى حكومات صغيرة ليس لها أي كيان اقتصادي يمكن أن يقوم بوجوده

كما أن المستر لويد جورج وزير بريطانيا الأول قديماً لما استند على النفوذ عينه صنع في أوربة ديكتاتورية حقيقية

مدة بضع سنوات ولقد استطاع بفضل هذا النفوذ أن يمنع فرنسة أثناء توقيع معاهدة الصلح من استعادة حدود الرين القديمة التى هي بحاجة ماسة اليها لـكي تضمن سلامتها ولقد استند ايضا على النفوذ شأنه فى كل مرة ، فساعد المانيا بعد مضي برهة من الزمن على رفض دفع ما عليها لفرنسة من مال التعويض المتعلق بالتعميرات

بل أن هذه السلطة التى ليس عليها من رقيب (نقول لا رقيب عليها لأن البرلمان المضمون الجانب لا يعد رقيبا) يمكن فى الاصل أن تصبح مبعث مصائب وأحن فأما النكبات والبلايا التى ولدتها أعمال الرئيس ولسن فلن تمكن رؤيتها الا بعد أن يمضى عليها ردح من الزمن وأما التي نتجت عن أعمال رئيس الوزراء الانكايز فقد سبق للناس أن رؤها عندما أفضى عدم اعترافه ببعض القوي النفسية الى انسلاخ ايرلندة والعجم ومصر و بلاد ما بين النهرين عن جسم امبراطورية بلاده الاستعمارية وضياع سيادتها فى الشرق ولا شك بان سلسلة الاسباب التى تنبعث عنها الافعال تحوى كثيرا من النواحي الغامضة : ولكن معارفنا قد بلغت مع ذلك من الاتساع حدا يمكن أن نظفر منه بطائل فيجب على رجال الحكومة أن لا ينسوا انه اذا كانت القوانين الاقتصادية تقود حياة الشعوب من الوجهة المادية فان القوانين النفسية لها سلطان على آراء تلك الشعوب والمناهج التى تسير عليها

الكتاب السادس

كيف تتكون عقلية الامة

الفصل الأول

أراء الاميركيين فى التربية والتهذيب

عندما أبيد فى السابع والعشرين من شهر مايو عام (١٩٠٥) أسطول الامبراطورية الروسية الكبير على الكامل خلال بضع ساعات من قبل الاسطول اليابانى فى « تسوشيما » كان دهش العالم كبيرا وانتباهه عظيما : فقد تجلى بعين بصورة فجائية آية فى الحقيقة خارقة لكل ما كان مستقرا فى أذهان الناس من الافكار حتى ذلك الحين أن اليابان الحقيرة التى لم يعرفها العالم إلا منذ نصف قرن فقط قد غدت حكومة من الحكومات القوية التى لا يستهان بشأنها : بل قد تجلى ذلك بصورة أوضح عندما رأى الناس أن الفشل كان حليف الروس دوما فى جميع الحروب التى خاضوا غمارها

ضد اليابان بالرغم من أنهم كانوا فى كل مرة يفوقون اليابانيين عددا

ولقد سألت وقتئذ سفير اليابان فى باريز المسيو (موتونو) عن اسباب هذا النجاح الذي حالف اليابانيين فأجابني هذا الموظف القدير هكذا:

ان نمو اليابان ونهوضها الحالى يرجع السبب فيه بوجه خاص الى (طرائق التربية والتهذيب) التى اختارتها عند ماقامت بثورة خرجت على اثرها من نظام الحكم الاقطاعي : فطرائق التربية هذه التى تم انتخابها بفطنة وفهم جعلناها تتجه فى وجهة من شأنها ان تجلو الطبع او الغريزة التى اورثنا اياها اجدادنا ونأخذ بيد هذه السجية في طريق الكمال » اه

ولقد كان من امر المانيا اثناء هذا الدور نفسه ايضا في برهة لا تزيد عن نصف قرن ان نجحت بجعل نفسها في مقدمة جميع الامم طرا من الوجهة العلمية والصناعية : ولقد حصلت على هذا التفوق بطبيعة الحال بفضل بعض الطرائق التى تتمشى عليها فى التدريس والتعليم وهي مختلفة كثيرا عن طرائقنا ، كما ان الفضل بذلك يعود ايضا على ماجاء في بيان لاحد الوزراء الألمانيين لنوع النظام والحدود المدنية اللذين تلقنهما الشعب الألمانى على يد طريقة

الادارة العسكرية التي تسير المانيا عليها

***

أن الفصول السابقة قد اظهرت للقاريء الى أي أحد بلغ خلال الحرب بتوازن حياة الشعوب

فاختلال التوازن هذا غدونا نصادفه في كل جبة : فمن عدم توازن سياسي الى عدم توازن اقتصادي . الى عدم توزن مالي . الى عدم توازن في الأفكار

ولقد اصبح من واجب الناس ان يهبوا لترميم البناء الذي تقوضت دعائمه فتخرب وتهدم . لكن الوسائل التي من شأنها ان تساعد على اعادة بناء الصرح العلي ليست عديدة ذلك لأن الاعتداد بالاوضاع السياسية يكون من قبيل الاستسلام الأوهام تماما اذ انه مذ كانت الاوضاع السياسية من العلل و ليست من الاسباب فهي تتبع حالة الشعب العقلية و لكنها لاتنقسم به

ان التأثيرات التي من شأنها ان تعدل روح الامة وتكيفها سيما منها روح الاجيال التي هي بعد على جانب من الفتوة لا يتح لافكارها معه ان تدخل في قالب خاص نهائي : ان هذه التأثيرات في خلال المدينات لا تكون ذات تأثير الا في عصور التدين

فقط — تنحصر في هاتين الوسيلتين لا غير وهما التربية والنظام العسكري

لقد مرت سنون عديدة على تدويني في احدى مؤلفاتي هذه الجملة التي تنص على (ان انتخاب طرائق التربية يستوجب اهتمام الشعب أكثر بكثير مما يستوجبه انتخاب شكل الحكومة)

بل لقد أصبحت الاخطاء التي ترتكب في شؤون التربية والتهذيب ذات خطر كبير جدا في الايام الاخيرة

أما عمل التربية وخطورتها فقد كان تاليا تقريبا عندما لم تكن الصناعة قد ولدت ولا القوى الاقتصادية قد ظهرت وعندما كان الاشخاص يجدون الخطة التي تضمن لهم العيش والبقاء مرتسمة أتم ارتسام حال خروجهم للنور من ظلام الارحام وعندما كانت التربية ليست سوى ضرب من ضروب الزينة والتبرج على جانب ضئيل من الاهمية

في حين أن قيمة الشخص غدت اليوم تختلف اكثر مايكون بحسب ما اغترفه من معين التربية والتهذيب . ولهذا يجب أن لا يعجب القارىء اذا رآني أعود هنا الى البحث في هذا الموضوع بعد أن سبق لي الكلام عنه في كثير من مؤلفاتي

***

لقد أسفت كثيراً على موت (تيودور روزفلت) الذى كان من أعظم رؤساء الولايات المتحدة

على إنى لم آسف لموته لأنه كان دوماً صديقاً كبيراً لفرنسة فحسب بل لأننى كنت أعلق على معاونته ومساعدته آمالا جساماً فى سبيل إيفاء خدمة جلى لبلادى — أيضاً

ولقد كنت معروفاً منذ زمن طويل من ذلك الرئيس المشهور بواسطة الكتب التى صنفتها وألفتها . على أن الصدف لم تسمح لي بالالتقاء به إلا قبل نشوب الحرب بشهرين . وذلك عندما دعاه صديقى القدير (هانوتو) وزير الخارجية قديماً لتناول طعام الغداء على مائدته . إذ ان المسيو (روزفلت) قد عين وقتئذ بنفسه الأشخاص الذين يرغب فى رؤيتهم على مائدة الطعام

ففى أثناء تناول الطعام بدا الرئيس قديماً على أنه قد ضرب بسهم وافر من الذكاء وعمق التفكير فى آن واحد فهو كان منطلق الذات ذكياً يستطيع على حل ما يتقدم من كل قضية من القضايا بسرعة تامة .

وبعد أن تكلم (روزفلت) معه [illegible] الأفكار من [illegible] عن الوجهة التى يتجه نحوها قادة الشعوب العظام وجه نظره [illegible] نحوى وقال

لي بصوت يتبين منه الجد والحصافة :

ـ هنا كتاب صغير لم يفارقنى أبداً فى جميع الاسفار التى قمت بها كما أنه ظل دوماً فوق منضدتى فى أيام رئاستى وهذا الكتاب هو مؤلفكم المسمى : (أسرار تطور الأمم) .

ثم أفاض الرئيس فى إيضاح الدروس والمعلومات التى تضمنها ذلك الكتاب فى رأيه .

فانحنيت له شكراً وأنا بدون شك على غاية من السرور الا أنه أدهشنى قليلا فى الوقت نفسه كيف استطاعت الاشعة المنبعثة من أفكار فيلسوف من بسطاء الفلاسفة أن تصل الى هذا البعد القصى من الذيوع والانتشار . والأمر الذى لاشك فيه هو أن رجال الاعمال الذهنية هم الذين يسيرون رجال الاشغال العضلية فى الوجهة التى يريدونها الا أنه قلما اعترف الأخيرون للأولين بهذا التأثير والنفوذ

فمنذ ذلك الحين ولدت فى ذهنى فكرة أحب الرئيس أن يشترك معى فيها . ولكن وفاته حالت دون تحقيقها ؛ وإذا كنت أتكلم عنها فى هذا الفصل فما ذلك إلا لأنى أؤمل أن يقع عليها نظر مواطن من مواطنى ذلك الرئيس ممن بلغوا من اتساع النفوذ حداً يمكن فان يكون سبباً لتحققها

***

يعرف الجميع بواسطة ما نشر منذ أمد بعيد من الكتابات التي لا يحصيها عد مبلغ ما وصلت اليه طرائق التربية المدرسية عندنا من التدني المبكي والانحطاط المحزن

أما الجهود التي بذلت في سبيل تعديل تلك الطرائق وتقويم اعوجاجها فقد أخفقت جميعها اخفاقاً تاماً ، ذلك أن طريقة التدريس هذه لا تزال على ما كانت عليه فيما سبق أي هي مقتصرة على الكتب والمجلدات كما أنها لا تؤثر الا على الذاكرة والذهن فقط . فنتج عن ذلك أن المعلومات التي يتلقنها التلامذة على هذه الصورة غدت تنتسى كما قال (تين) مرة بعد مضي ستة أشهر على انقضاء زمن الفحص

ولقد كان يمكن أن تفي طريقتنا القديمة بالمطلوب في الازمنة التي كانت تتطلب تخريج متشرعين وخطباء قبل كل شيء . ولكن نهضة العلوم الحديثة وتكاملها الراهن قد جعلا تلك الطريقة مشؤومة ليس من ورائها الا النحس . بل يكاد لا يوجد في الاصل بين شعوب الارض جميعاً من لا يزال محافظاً على تلك الطريقة سوى الشعب الفرنسي والاسباني والروسي

أما أن نقوم لاستبدال الطرائق التى نسير عليها من أنفسنا فيبدو مستحيلا ما دامت جميع الجهود التى بذلت في سبيل التقويم والاصلاح قد انتهت بالعقم والاخفاق .

والسبب فى ذلك انه ما من أحد من دعاة الاصلاح قد فطن الى أن ما يجب ان تتناوله يد الاصلاح والتغيير والتبديل هو طرائق التدريس ذاتها لا البرامج المتبعة . فلقد ضلوا جميعاً عن هذه النقطة. أما البرامج فانها جميعاً جيدة لا غبار عليها لكن الطريقة المتبعة فى تطبيقها هى التى تجعل قيمتها محدودة

و يستطيع المرء أن يقف تمام الوقوف على الاسباب التى جعلت أساتذة الجامعات عندنا لا يفقهون من كنه الامر شيئا اذا ماوعيت البيانات والتصريحات التى تفوهون بها . فان هذه البيانات تشير بالاجماع الى تدني لدراسة عندنا وانحطاطها لكن ايضاحات هؤلاء الجهابذة الأعلام لبياناتهم وتفاسيرهم لها تبرهن على انهم لم يقفوا على الاسباب الحقيقية

واذا تطلعنا ببصرنا نحو رجال الجامعة من اكبرهم الى أصغرهم أبدا ترى انهم سوء فى عدم التفطن لحقيقة الامر .

لا ان هؤلاء الاساتذة مجمعون على أمر واحد وهو التسليم

بفساد التدريس عندنا . ولقد سبق لي ان كرست جزءاً من كتابي المسمى (بسيكولوجيا — روح — التربية) الذى أعيد طبعه حتى الآن (٢٧) مرة والذى ترجمه الى الروسية رئيس أكاديمية العلوم في امبراطورية روسيا لكى يستعمل كدليل للسياسة فيها — لتعداد الانتقادات التى صرح بها رجال الجامعة الذين دعوا للكلام امام مجلس تفتيش كبير ففى هذا المجلس لم يجد التهذيب المدرسى عندنا أى مدافع او محام بين جميع رجال الجامعة تقريبا .

وهناك دليل جديد على عدم استعداد لتبديل طرائقنا أنفسنا وقع بيدى فى ظرف تكلمت عنه فى الكتاب الذى نوهت بذكره الآن . على انى أرى الكلام عليه هنا أيضا لا يخلو من فائدة .

وذلك انه عقيب نشرى الكتاب موضوع البحث زارني عالم مشهور وهو المسيو (بون لابه) فرسنتر بالمعهد حتى بادرنى بالحديث الآتي . قال :

— لما كنت عضواً فى كل من مجلس المبعوثين واكاديمية العلوم واكاديمية الطب وسندا فى المعهد العلمى فانى مدة وجودى هذه مدة مقعد استطيع بواسطته ان اسمع صوتي . بحثت طرائق التثقيف

عندنا واصلاحها يبدولى ضروريا لازماً بدرجة قصوى . فهل تحب ان تهيء لي بعض حواش وملاحظات لكي اوردها فى محاضرة سألقيها اولا فى مجلس الشيوخ

فجمعت الملاحظات المطلوبة فى الحال وتردد على العلامة القدير بعد ذلك عدة مرات ولكن بالنظر لانه استشار فى الوقت ذاته اساتذة اظهروا له عدم امكان الاصلاح بوجه من الوجوه فقد اعترف لى فى احدى زياراته الأخيرة لى والحزن آخذ منه مأخذ بأنه يجب تبديل نفس الاساتذة اولا ثم تغيير نفوس الأبوين ثم تبديل نفوس التلامذة بعدئذ لكي نتوصل الى تعديل نسق التثقيف عندنا . وان « هرقل » ذاته لو طلب منه القيام بمثل هذا المسعى لعاد القهقري

***

أن الحرب العسكرية قد انتهت تقريباً ، الا انه ستتبعها بحكم الضرورة حرب اقتصادية ايضاً

ان النجاح الذي حصلت عليه الأمم التى تقدمتنا بأشواط بعيدة فى الأزمنة التي تقدمت نشوب الحرب العظمى يعود الفضل به بوجه خاص لنسق فى التثقيف يختلف اختلافاً تاماً عن طريقتنا .

فهذا التباين يتحلى بجلاء تاما أمام طرائق الولايات المتحدة الأمريكية بوجه خاص .

فزدراء الأمريكيين التنقل فى الشؤون الادارية وسرعة جزمهم فى الامور وانجازهم لها بالسرعة التامة وسعيهم الدائم فى سبيل استنباط المشروعات الجديدة وكيفية قيامهم بالأعمال وبكلمة واحدة جميع الصفات والخصائص التى أبرزوها فى الاعمال التى قاموا بها فى فرنسة أيام الحرب والتى يستطيع المحقق أن يتحققها بسهولة كافية مهما كان قليل الخبرة — يرجع الفضل بها جميعاً للطريقة التى يسيرون عليها فى التثقيف والتربية.

ان التربية الامريكية توجه عنايتها بوجه خاص نحو ايجاد التطبع والاعتياد العقلي . ولا أهمية كثيراً فى نظرها لأن يتعلم التلميذ اذا كانت قد اكتشفت أو نمت عنده غريزة التبصر وروح الملاحظة وملكة الارادة الثابتة

وبينما طرائق التدريس عندنا تحصر جهودها بدون أن تحصل مع ذلك على النجاح فى عملها فى سبيل التعليم ليس الا نرى الطرائق الامريكية تعنى بوجه خاص بالتربية : تربية الروح ، تربية الخلق أي الطبع

وبينما ترى استظهار مضمون الكتب المدرسية هو الركن الاساسى الذى تستند عليه الدراسة عندنا ترى رجال الجامعات الاميريكيين قد أدركوا منذ زمن بعيد بان (التحصيل) المكتسب بواسطة الذاكرة فقط لايستقر فيها استقراراً صحيحاً اللهم إلا أثناء المدة التى يتطلبها اجتياز الفحص فقط

من أجل هذا فان الكتب قد الغيت على الكامل تقريباً من قاعات الدراسة الاميريكية واستعيض عنها بدرس الحوادث درساً يقوم على أساس التجربة والاختبار .

ويجد المرء بياناً مطولا عن هذه المناهج فى كتاب هام جداً للاستاذ (بويز) ألفه عقب ذهابه الى الديار الاميريكية قبل الحرب موفداً من قبل الحكومة البلجيكية .

ويقول أحد مشاهير العلماء الفرنسيين فى هذا الصدد (بأن الشعوب التى تكون التربية عندها قائمة على أمثال هذه المناهج سيعهد اليها أن تشكل عالما بشريا أعظم وأفضل من عالمنا) بل هاك خلاصة موجزة من كتاب « بويز »

« كل شىء هو تجريبى في التربية الاميريكية ، فان أعقد فروع مدرسية وأكبرها تجرداً وبعداً عن عالم المحسوسات تمثل فى اميركا

باسكال مادية ملموسة يستفاد لأجل تمثلها من مهارة الأيدى ولباقتها بقدر ما يستفاد من نشاط التفكير وتوقد الذهن .

وبمقابل أساليبنا السلبية التي تستند على تمركز الكلمات في الذاكرة ترى الأميركيين يعارضونها بأساليبهم الايجابية والتهذيبية التي تحرك ما كمن من الجهد والإرادة والمهارة

ومدارس الأوربية في نظرهم ترمز الى الفصل شأن الغريزة الصبيانية والبترية في أبشع الصور .» اهـ

هذا كان قد ثبت جيداً بعد حوادث تكررت أكثر من مرة بأنه لا يرجى التحصيل الحقيقي على يد أساتذة تحجرت أدمغتهم في قالب جامد لجهلهم بما هو جديد فقد وجب التفتيش على طرائق أخرى للحصول على التحسين الأصلح وقد أصبح العبور على هذه الطرائق أمراً لا بد منه لكي يحصل ... في الحرب الاقتصادية التي غمرت ... وتنبه ... .

وقد أصبحت الفكرة كبيرة في الأمر ... هذه المعاني أن لا مكان وحيد معين لكل طرائق التدريس ... فوق شبيه جامعة أميركية في فرنسا لا يدرس فيها سوى أساتذة أمريكيون فقط .

فالنتائج التى يحصل عليها من وراء هذه الجامعة من شأنها أن تظهر بسرعة تامة قيمة مناهج الاميريكيين كما أن ذيوع هذا المثال من شأنه أيضاً أن يجبر جامعتنا شيئاً فشيئاً على التبدل والتحول .

هذه هى الفكرة التي كنت أؤمل تحقيقها بفضل مناصرة المستر روزفلت مبيناً له أنه من المحتمل أن يظل فى فرنسة بعد الحرب عدد من شباب الاميريكيين يكفى للقيام بأود جامعة اميريكية إلى أن يعقد الطلاب الفرنسيون أواصر العزم على التردد اليها وارتشاف كؤوس العلم من مناهلها .

ولقد كان من أمر هذا الرجل المشهور أن وافق على طلبى وطلب اليّ أن أبين له الخطة التي يمكن السير بموجبها على وجه الصحة والضبط الا أن وفاته قد حالت مع الأسف دون تحقيق هذه الفكرة واخراجها لحيز العمل

لقد كانت جرائدنا قد افتتحت اكتتاباً لاعانة المخابر (لا بوارتوار) التى كان أحسنها من حيث توفر العدد اللازمة فيه يظل في أكثر الاحايين خاويا خالياً . فلو افتتحوا اكتتاباً لايجاد مدرسة على النسق الاميركى فى فرنسة لكان هذا المسعى أكبر نفعاً مما لا يقاس

الفصل الثاني

طرائق اصلاح نسق التعليم في فرنسة

والجامعات الجرمانية

تمت في المدارس الفرنسية قبل عشرين عاماً لجنة لاجل فحص قيمة الدراسة العالية في فرنسة . ولما انتهت من مهمتها عقد رئيسها القدير المسيو ريبو [illegible] الآتي كما [illegible] التصحيح [illegible] في نتيجة التحقيق [illegible]

[illegible] مدهش في [illegible] بعض [illegible] مجموع [illegible] الفرنسي من مستوى [illegible] .

وعلى الرغم من هذا التصريح [illegible] يتمدد من [illegible] جامعات [illegible] بكاملها . [illegible] فقد اصبحت الكتب المدرسية التي يعرض على الطلاب منذ [illegible] فحص [illegible] .

حتى أيام فحص « التوظف » أن يستظهروها — تزداد فى كل يوم صعوبة وثقلا ، كما أن المخابر العظيمة التى تنفق عليها الحكومة أصبحت أيضاً تزداد خلواً من الايدى العاملة يوما بعد يوم ، كذلك غدا عدد العلماء المستقلين الذين هم قلائل جداً يتناقص تناقصاً مستمراً .

أما الاساتذة الرسميون فقد أصبحوا يتربعون لوحدهم على منصة الرئاسة وهم لا يتمكنون حتى ولا من الشعور بمبلغ ما سيكون لاعمالهم من الاثر السيء على مستقبل بلادهم .

لقد كان من الامور المنتظرة بطبيعة الحال أن يرى الناس الجامعة عندنا تعدد الفضائل التى أظهرها الجيش أثناء الحرب وأن تدعي بان الفخر فى ذلك يعود لتدريساتها . وهكذا فقد نسيت الجامعة بان أعظم أغلبية من الرجال الذين أبرزوا هذه الفضائل سواء كانوا ضباطا أو جنوداً قد نشأت وتخرجت بمعزل عن أى تأثير للجامعة

***

إن وزراء المعارف العامة الذين يحاولون منذ نصف قرن بلا جدوي أن يصلحوا الدراسة العالية عندنا قد اضطروا فى كثير من الأحايين لأن يفكروا فى قصة (سيزيف) الذي حكمت عليه الآلهة بأن يدأب الى الأبد فى حمل صخرة

(كانت تقع منه دوماً الى الحضيض) ويصعد به إلى قمة إحدى الجبال .

ولقد سلم وزير تربية حديثاً في دست وزارة المعارف العامة بضعف الدراسة عندنا ذلك الضعف المحزن كما سلم بذلك أسلافه ولم يسعه بدوره إلا أن يقترح في المدة الأخيرة إدخال التعديل عليها مرة أخرى أيضاً .

أما المثال الأعلى الذي كان يتبعه هذا الوزير فهو أن تقوى دراسة اليونانية واللاتينية ، إذ أنه كان يعزو إليها وهي مشفوعة بتلقين رسوخ العقائد الدينية توزيع على عدد كبير من الأناسي ذوي العزم والحزم — مزية صوفية .

إن صاحب مشروع هذه الإصلاحات الحديثة على حق عند ما يكرر القول كما فعل جميع أسلافه بأن المدرسة يجب أن ترمى إلى (التكوين) للذهن والعقل ليس إلا . على أنه إذا حصل على [illegible] التكوين [illegible] أن يكون من الأمور التي تستحق الاهتمام الكبير أن ندرس [illegible] من [illegible] الكلاسيكية فقط .

. .

إن المكانة التي تشغلها [illegible] في [illegible] تختلف حسب

الدرجة التى بلغ اليها خيارها ونخبتها . وقيمة هذه الفئة الممتازة تقاس بوجه خاص تبعاً لصفة العلماء المستقلين الذين خرجتهم الدراسة .

إن الدور الذي يلعبه هؤلاء العلماء صريح وواضح جداً . ذلك لانه إذا كانت مهمة الاساتذة مقتصرة على تدريس العلم الذى ظهر لحيز الوجود فان الاتقان والاكمال إنما يتعلق بالعلماء المستقلين ليس إلا .

ان النفوذ الواسع الذى حبته الطبيعة لهذه الفئة (أى فئة العلماء المستقلين) لا يمكن انكاره . فان جميع القوانين الكبرى الأساسية فى علم الطبيعة (فيزيك) كقانون (اوم) وقاعدة كورمو وعدم فناء القوة وما إلى ذلك يرجع الفضل فى الوقوف عليها جميعاً إلى فئة العلماء المستقلين . كما انه اليهم يرجع الفضل أيضاً فى حل المخترعات التى كان من شأنها أن جددت وجه المدنية وأظهرتها فى شكل جديد نظير المكنات البخارية وقطارات السكك الحديدية والفوتوغرافيا والتلغراف الكهربائى والتلفون والانتفاع من البرودة أى الحرارة المنخفضة فى الصناعة وما إلى ذلك .

ان القوة العظمى للتربية أى الثقافة فى المانيا والولايات المتحدة الاميريكية هى فى تمكنها من ايجاد جيش عرمرم من هؤلاء العلماء

المستقلين . فالنهضة الصناعية والاقتصادية في هذين البلادين هي من نتائج عمل اولئك العلماء وثمرة اتعابهم .

ان تفوق الجمعات الالمانية الذي يفهمه القوم في فرنسة بشكل قبيح جداً لا ينتج عما بين برامج البلادين من الاختلاف . فان البرامج واحدة في كل مكان . بل هو يستند الى أسباب طبيعتها نفسية ويرتكز بوجه خاص على كيفية تخريج الاساتذة

ففي فرنسة لا يغدو المرء استاذاً إلا بعد جهة (مسابقات) تتطلب حافظة قوية جداً ولكنها لا تستدعي وجود أي أثر خاص للبحث والتنقيب الشخصي.

كما أن السنين الطويلة التي يقضيها مرشح لوظيفة الاستاذية في حشو دماغه بما تتضمنه الكتب المدرسية وفي الالمام بمعادلات عوضاً عن المطالعات الخصوصية يكرسها المرشح في مدة التقيد بالنسبة الى [illegible] في حيز من [illegible] التي تفتح ابوابها الى [illegible] مع جميع المتبارين والممتحنين . ثم بعد ذلك [illegible] كانت [illegible] حرة فان الاستاذ [illegible] يعطي دروساً فيها [illegible] [illegible] كما هو الامر في جميع دروس [illegible] . فاذا حصل [illegible] على [illegible] تعلم [illegible] في [illegible] الامر [illegible] في كرسي من كراسي التدريس [illegible] من

الـ (٢٥) جامعة فى المانيا . و يتناول إذ ذاك راتباً معيناً إلا أن الشطر الاكبر من النقود التي يقبضها يدفعه التلامذة دوماً . والأمر على هذا النمط فى بلجيكا أيضاً . ولقد بلغني من المسيو (دوهن) استاذ علم الطبيعة في جامعة (ليج) قديما أن الدروس التي كان يعطيها كانت تأتيه بما يزيد عن الـ (٦٠) الفاً من الفرنكات فى العام

فيتضح من هذا أن التلميذ فى المانيا هو الذي ينتخب الاستاذ الذي يريده بطريقة غير مباشرة

ان (البريفات دوس) أى الاستاذ الذى يشغل احدى كراسى التدريس الرسمية له منفعة كلية فى الاشتغال مع تلامذته والاهتمام بتعليمهم ما دام الشطر الاكبر من راتبه هو عبارة عن الاجور التى يدفعونها وعند ما تصبح التدريسات بدرجة غير كافية فان التلامذة يتوارون حالا عن الابصار و يتفرقون هنا وهناك

ان من النتائج النهائية لطرق التدريس فى الجامعات الالمانية الافراط فى تلقين التلامذة ما من شأنه أن يجعلهم يستشعروا لذة الدرس والبحث أو التنقيب. أما طرائقنا فان غاية ما ينتج عنها أنها تبعث فى النفس المقت والنفور من ذلك المعلم القائم على صفحات الكتب الذى لا يحصل عليه إلا بشق النفس و بذل غاية الجهود. واذا طلعت ببصرك نحو الاساتذة فانك تجد الواحد منهم لا يكاد يحصل على

الشهادة التي يتطلبها الحصول على وظيفة التدريس حتى ينقطع عن كل بحث أو تأليف أو ما الى ذلك : كما أن المخابر الكبيرة عندنا تبقى في كثير من الاحيان خالية من الايدي العاملة وعلى ذلك فمن العبث أن يطلب البعض تأسيس مخابر جديدة لا فائدة من وراء ذلك بتاتاً

***

بينما نرى العلماء المشتغلين يبالغ في تشجيعهم في انكلترة وأميركا وألمانيا تراهم لا يلاقون أي عطف في فرنسة مما جعل عددهم فيها يتناقص كل يوم تدريجياً كأنه سوف لا تمضي برهة وجيزة حتى ترى [illegible] قد أتت على [illegible] منهم [illegible]

[illegible] مستعمراتهم [illegible] على [illegible]

[illegible] كثيرة [illegible]

[illegible] وسمعت كثيراً من دروس

[illegible] ذات خطر عظيم [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] لا [illegible]

بعض أساتذة الجامعات عندنا لا يدخل فى الامكان ، فان غاية ما يكن أن يؤمل هو حمل العقول التى لم تتحجر بعد فى قالب جامعاتنا الثقيل — على التفكير والتأمل ان مستقبلنا يتعلق بتربية الأجيال التى هي فى طريق النمو وهو مرتبط بتربية الطبع والغرائز فيها بقدر ارتباطه بذكائها أيضاً . وهذا من الأمور التى يجب تكرارها دوماً بلا انقطاع ولا فتور .

***

ان المناهج التى تسير عليها الجامعات عندنا ليست عاجزة عن اظهار أى كشف ما كمن من الذكاء فحسب بل انها أكثر عجزاً أيضاً عن خلق السجية فى الشخص . فى حين أن دليل المرء فى هذه الحياة هو الخلق أكثر مما هو الذكاء

واذا كانت الجامعات عندنا لا تعنى بتكوين السجية فى الشخص فذلك لأن هذا التكون لم يكن ليطلب ظهوره فى الفحوص التى هى الهدف الاساسى لتدريساتها : وعلى ذلك فلا أهمية فى نظرها لأن يكون عدد من تلامذتها محكوماً بالنظر لعدم حصوله على خاصة من خصائص الطبع والسجية بالعبور الى هذه الدنيا والخروج منها بدون أن يقف على كنه شيء من الاشياء بل بالتالى بدون أن يمثل فيها أى دور من الادوار النافعة

لما كانت استعدادات الشعوب النفسية التي هي بمثابة مميزات خاصة عبارة عن ميراث الاسلاف فمن الجلي أنه لا يرجى تيسير عمل اليد فيها عملا يتناول عمقها . ومع ذلك فتوجد عندئذ بعض طرائق باستطاعتها أن تؤثر في هذه العناصر التي هي عناصر أساسية في الشخصية أو على الأقل أن تهيء لها وجهة معينة تسير فيها

ان كون مثل هذه التعديلات من الامور الممكنة الميسورة يثبت ثبوتاً تاما عندما نشاهد التحولات التي حدثت أثناء (٥٠) سنة في كل من المانيا واليابان . ومن أكبر القول عند بيانه اذ كانت المانيا برغم تنوع الاجناس التي تؤلفها قد أصبحت أرض حكومات الصناعة في العالم [illegible] اذ كانت اليابان [illegible] جزيرة صغيرة [illegible] في الأيام السالفة على شيء من القوة والنفوذ قد غدت [illegible] في [illegible] التحولات والتبدلات التي تمت في [illegible]

[illegible]

[illegible] يتحقق [illegible] الشعب [illegible]

[illegible] ذلك [illegible] يتوددن [illegible]

في حين أن [illegible] أثناء حرب [illegible]

فأفسحت المجال للمزاحمين من الاجانب لأن يتخطوها ويتفوقوا عليها وتركت نفسها دونهم بمراحل

هذا وان أسباب تقصير فئة الخاصة في الشؤون التي امتزنا بالنشاط فيها كانت واحدة في أكثر فروع ذلك النشاط تنوعاً واختلافاً

ويستطيع المرء أن يتحقق ذلك بسهولة عندما يتصفح الـ (٦٠) مجلداً التي نشرتها (جمعية التقدم الاقتصادي) أثناء الحرب وتكلمت فيها عن صناعاتها الرئيسية . ولقد أتيت على خلاصة ما جاء في تلك المجلدات في كتاب ألفته قبل هذا [1] ان جميع المؤلفين الذين بحثوا في شؤون صناعاتنا قد عللوا السبب في انحطاط مشاريعنا العميق الذي تبين لهم من مطالعة التقاويم (ستاتستيك) بعوامل نفسية واحدة اتفقت عليها كلمتهم جميعاً . فانه ما من موضع في الكتب التي ألفوها قد تكلم عن ضعف رؤساء الأعمال من حيث العقل والذكاء . بل هناك في كل صفحة من تلك الكتب كلام عن ضعف الخصائص النفسية الناتج عن نقائص في السجية شوهدت عند جميع أرباب المهن على السواء

فالى ازالة هذه النقائص والعيوب يجب أن يسعى نظام الجامعات عندنا . اذ ليس له في الحقيقة أي مسعى في هذا السبيل

(١) نفسيات الامم في عصورها الجديدة

ان الجامعة عندنا (تصنع) فى الزمن الراهن عدداً لا يدخل تحت حصر من حملى الشهادات بطريقة حشو أدمغة التلامذة بما تتضمنه الكتب المدرسية ولكنها باقية على عجزها من حيث صنع رجال من الفئة الممتازة . ولما كان أفراد الفئة القابضة على زمام الأمور قد بلغوا المناصب التى يشغلونها عن طريق (المسابقات) لا عن طريق آخر تقريباً فانهم يؤلفون غالباً فئة ممتازة ضعيفة جداً

هذا وسأعود بعد قليل الى البحث عن تربية الغريزة واظهار كيف أن الوازع والنظام والتدرج القويم التى قامت على دعائمها قوة المانيا قد رسخت في الأذهان لألمانيين بواسطة النظام العسكرى

أما في انكلترة وفي اميركا حيث لا يسود النظام العسكرى فقد حلت مكان هذا النظام أنواع الألعاب الرياضية التى توصف بحق بوصف الطرائق المهذبة لانها تأتي بمزايا ذاتها التى تنتج عن النظام العسكرى .

ان الاخذ في هذا الصدد لا يجدي نفعاً فان المدرسة العقلية عندنا قد بلغت تلك الصفحة من صفحات الانحلال أو هذه التى لا ينفع فيها علاج أو دواء حيث الفن لا يصح التى لا يعرف في التطور والتكامل سبيلا

الفصل الثالث

تعليم الاخلاق فى المدرسة

لعل روابط المعرفة غير قوية كثيراً بين قراء هذا الكتاب وبين تاريخ الامبراطور (اكبر) ومع ذلك فقد كان هذا الامبراطور أشد الحكام فى عصره بأساً وأوسعهم سطوة ونفوذاً . فلقد أوجد فى الهند خلال مدة سلطانه التى دامت مايقرب من الخمسين عاماً — عدداً من المدن العظيمة التى تدهش العقول وتخلب الابصار . كما أنه شيد فيها (الهند) جملة قصور يخال المرء نفسه فى حلم عندمرآها ووقوع ناظريه عليها .

لم يكن (اكبر) حاكما اشتهر بوفرة مابنى وشيد فحسب بل كان أيضاً فيلسوفاً بصيراً ذا نظر سديد . ولقد كان يرى الديانات كأنها رموز مختلفة تمثل الأسرار التى تحيط بنا ، ولهذا فقد قصد أن يديبها جميعاً ويصبها في قالب واحد فجمع حوله لهذا الغرض عدداً من اللاهوتيين المشهورين

الا أن مسعاه لم يتكلل بالنجاح فان أعضاء مجلس العلماء الأعلام الذين جمعهم لم يتبادلوا فيما بينهم سوى ألفاظ الشتائم وتهم الكفر والمخازي .

وعلى ذلك فقد شعر (أكبر) قبل أن يأتي فلاسفة الأيام الأخيرة لعالم الوجود ويقرروا الحقائق التي وقفوا عليها بزمن طويل — بأن المعتقدات مستقلة تمام الاستقلال عن العقل . وعدل عن غرضه واقتصر على أن يعمل في امبراطوريته العظيمة بما تقتضيه المسامحة مطلقة ، وهكذا فقد أصبح أفراد رعيته أحرارا في عبادة الآلهة التي يختارونها أو من عدم العبادة مطلقاً . وكانت الاموال والأملاك الدينية قد احترمت ولم تمس بسوء ما . وكانت للآباء حق في أن يهدوا أولادهم عقائد الموحدين أو البرهمة أو المسلمين أو المسيحيين .

وقد صدقت شعوب أوربة تعمل منذ طويل على انشاء آثار لامبراطور عظيم في حضارته التي سار عليها . فلعل عهده لا يخلصه عند من مدونات ومعارك الهمية التي أريقت فيها الدماء وحدثت تمامها أنواع مضطربة ومضطهدات — عمت تلك الشعوب

أخيرا هي نفسها أيضاً بان القوة ليس فى استطاعتها أن تأتي بأى شىء ضد الايمان ، وهكذا فان جميع الأمم المتمدنة غدت اليوم تستعمل المسامحة الكاية فيما يتعلق بالأديان . الا أن فرنسة وتركيا قد شذتا عن ذلك مدة طويلة

فلقد كانت مناهضة الاكايريكية أثناء عدة سنوات هي القاعدة التى ترتكز عليها السياسة الراديكالية والغاية الاساسية التى كانت تسعى وراءها هي استبدال المدارس الحرة التى تكاف نفقات ضئيلة للغاية بمدارس تتولاها الحكومة (اميرية) تتطلب انفاق عدة مئات من الملايين .

ومع انه مامن أمة من الأمم المتمدنة فى العالم قد احتذت حذو فرنسة فى هذا الاستبدال فان رجال حكومتنا قد فاخروا بعملهم مفاخرة كبرى . اذ هل يستطيع المرء فى الحقيقة أن يتصور عملا أمجد من صيانة نفوس التلامذة أن تتطرق اليها خرافات عصور البربرية ؟ وهلا يتفرع مثل هذا المشروع عن مبادئ عملية صحيحة جدا ؟

ولقد ساد هذا الاعتقاد زمناً طويلا ، وهذا هو السبب فى أن عدداً كبيراً من العقليات المتقلبة كانت تحبذ أعمال الاضطهاد والجور المعتبرة من الأمور الضرورية . أما الساسة فقد لبثوا بدون

فوذ ولكن بما أنهم كانوا يتكلمون باسم العلم فقد كان الناس يحتملون عسفهم وجورهم

وبينما الامر على ما ذكرنا اذا بالفلسفة وعلم النفس وغيرهما من العلوم أيضاً تزيح الستار في المدة الاخيرة بعد جملة أبحاث واستعصاءات عميقة عن الاخطار التي نتجت عن ركوب متن الشطط في التفكير فأدت الى اضرار زعزعت أركان فرانسة مدة ثلاثين عاماً

***

ان التطور الذي لحق بالافكار الجديدة في شأن المعتقدات لا يمكن تلخيصه ببضعة أسطر، ومع ذلك يمكننا أن نشير هنا الى النقاط الاساسية فيه.

فقبل كل شيء نقول ان علم النفس قد أظهر بأن المعتقدات ليست وليدة الخوف بل هي مرادفة حاجات في النفس لا يمكن قمعها والتغلب عليها

وسواء كانت معتقدات دينية أو سياسية أو جنسية فانها جميعاً تابعة لحكم منطق واحد وهو منطق الاعتقادي والسري أو هو منطق مستقل تمام الاستقلال عن منطق ركني أو الاساسي

ان كثيراً من ذوي العقول ذات النزعة الثورية ليسوا في حقيقة سوى (مؤمنين) قد بدلوا أسماء آلهتهم فالاشتراكيون والماسون

والشيوعيون وعبدة الاصنام أو الدساتير التى ترمى الى تجديد الجنس البشرى و إعادة أحيائه — لا يرجع السبب فى شدة تعصبهم جميعا لسوى (إنكشاف) يفوق الحد فى ذلك العقل المشبع بالنزعة الاعتقادية الذي من شأنه أن يبعث الحياة والقوة والنشاط في حواريي كل دين من الاديان عند ما يظهر لعالم الوجود

إن هذه الملاحظات تؤلف الجانب النظرى من القضية ، أما الوجهة العلمية فقد جاءت بها للعالم فلسفة جديدة تدعى البركميتزم تلاقى اليوم إقبالا عظيما من قبل جامعات أميركا

ان هذه الفلسفة تقول بان فكرة التماس المنفعة والفائدة التى يتيسر الايمان بها دوماً، يجب أن تتقدم على فكرة السعى وراء الحقيقة التى لا يؤمن بها إلا بصعوبة فاذا كانت المعتقدات تزيد فى قوة الشخص وحوله وطوله وتسمو به الى أعلى مما هو — كما يدل ذلك على البحث والملاحظات — فان الاستغناء عن واسطة مؤثرة فعالة مثل هذه في باب التربية لما يضاد العقل والصواب

ان علماء النفس حتى الذين يفكرون فى الشؤون الدينية تفكيراً حراً أيضاً يعترفون جميعاً بالقوة التى يمنحها للشخص رسوخ عقيدة من العقائد في نفسه . واذا كان هناك من يشك بصحة هذا الامر فاني أكتفى

بان أنقل اليه فيما يلي بضعة أسطر مما كتبه ستاذ من سستندة الصور بون هو مثلي تماماً من الاشخاص الذين قل أن يشك أحد بنزاهتهم عن التحيز الى الاكليريكية

يقول الاستاذ

« ان الحياة الدينيــة تكفل تحريات ما كمن في الشخص من القوة التي ترفعه في أعلى مما هو ... ان المؤمن يقوى على الامور أكثر من الجاحد عدم الايمان فهذه الاستطاعة والقوة ليست خيالية أبداً بل هي التي مكنت البشرية من الحياة والعيش » اهـ

***

إن فائدة المدرسة الدينية في المدرس يمكن اثباتها بوجه آخر أيضاً يختلف عما سبق. فقد أثبت الرياضي الشهير هنري بوانكاره في الكتاب المشهور المعنون باسم (العلم والفرضيــة) الذي أخذ مكانه على طلب يضم في مجموعة كتب الفلسفة العلمية التي تركت دارهــا ذلك مما يدل حتى العلوم الرياضية لا يمكن أن يعيش بدون فرضيات . وهكذا يقول على سبيل المثال ان طريقة انتشار الضوء والموجات الكهربائية التي تؤثر في (الخــدة) المعروف « الاسلكي » يغمض ايضاحها غير ممكن اذا لم يفرض وجود (الاثير) فطبيعة هذا الاثير

مجهولة تماماً . ولم يتح للعلماء بعد ، أن يعلموا اذا كانت كثافة عظيمة الى ما لا نهاية أم ضيئلة الى ما لا نهاية . بل ليسوا على يقين حتى من وجوده ومع ذلك فان العلم لا يستطيع الاستغناء عنه . وعند ما يرفض الناس الرضاء بالفرضيات كدليل يقودهم في معارج الحياة ويوصلهم الى كشف غوامضها يجب عليهم أن يوافقوا على اعتبار الاغراض (الصدفة) هى الحكم المطلق الذى يتصرف برعيته كما يشاء .

ان الفرضيات الدينية مشابهة للفرضيات العلمية و بقدر ما فى الزهد بالثانية من الصعوبة توجد الصعوبة ذاتها فى الاستغناء عن الاولى . على الفرضيات العلمية يقوم صرح معلوماتنا ومعارفنا وعلى الفرضيات الدينية شيدت أركان جميع المدنيات

وعلى ذلك فلا يوجد اليوم أى مبرر علمى أو فلسفى أو عملى يساعد على استصواب اعمال الاضطهاد والعسف التى تناولت الدراسة الدينية فى فرنسة وأوشكت أن تتناولها فى الالزاس عند ما عادت هذه الى التظلل بالراية الفرنسية

ان هذه الدراسة ليست بعيدة عن أن تكون خطراً من الاخطار فحسب بل هى على العكس من ذلك ذات نفع كبير . اذ بفضلها

تتكون في الولد بسهولة بعض عادات غير محسوسة تبقى حية فيه عندما يفقد معتقداته في يوم من الايام

***

اذا قررنا هذا هل يؤخذ من كلامنا انه يجب اجبار اساتذة المدارس على تدريس بعض الفرضيات التي لا يؤمنون هم بصحتها بشكل حقائق ؟ كلا ثم كلا

ان المفكر الحر مهما كان (شكوكياً) لا يخالف وجدانه ولا يخون عقيدة من عقائده اذا قال لتلاميذه بانه كان لجميع الامم اديان متناسبة مع مشاعرها وحاجياتها وان على هذه الاديان تأسست القوانين والعادات والحضارات . بل ويستطيع أن يعلمهم بان جميع العقائد تقضي ببعض قواعد اخلاقية هي من الضروريات لحياة الجمعيات البشرية. وفي النهاية يمكنه أن يشرح للتلامذة دين بلادهم على وجه الاجمال لا فتاً انظارهم الى أن قيمة ذلك الدين ليست من الامور التي تجري مناقشتها في سن الصغر .

وانا نعتقد بان ما من عالم من علماء هذا العصر يماري في قيمة مزاعم سابقة دون قيمتها لا يمكن ان تكون عرضة للشك والريب الا من قبل المتشرعين الذين فقدتهم تعصبهم الاعتقادي وخوفهم من الرأي العام كل حرية في المحاكمة والتفكير

على انه لا يمكن مع ذلك تجريد هؤلاء الحروريين عن كل فلسفة

بل ان فلسفتهم الابتدائية هى نفس الفلسفة التى جعلها تشتهر فى شخص المسيو (هومه) أحد الروائيين القديرين . ان العقل الذى كانت تمثله هذه الروح البسيطة قد بسط سلطانه على البرلمان مدة طويلة . ولقد قضى بطرد الراهبات من المستشفيات بعد أن كن يبدين فيها نحو المرضى من العناية ما يفوق حد الوصف و يبعثن الأمل في نفوسهم فى الساعات الأخيرة من حياتهم . كما أنه أقصيت عن فرنسة بسببه ألوف من الأساتذة الذين كانوا يعلمون فى معاهد (الفرير) بلا مقابل مئات الألوف من التلامذة ، وأوجدوا (دروساً) زراعية وصناعية لم تلق مزاحماً ولا منافساً ، وانقرضت بانقراضهم

عند مايصبح الناس اكثر الماماً ومعرفة بالشؤون المتعلقة بعلم النفس التى مر الكلام عليها في هذا الفصل على وجه الاختصار سينظرون عندئذ الى عدم المسامحة نظرهم الى بلية ذات ضرر بقدر ما هي ذات خطر . وسيهب الرأى العام بشدة فى وجه حوارييها المفسدين أهل الأذى والضرر . ولما كان مؤرخو المستقبل سيتغلبون على التعصب السائد فى الساعة الراهنة فانهم لن يعانوا مشقة فى بيان مبلغ ماتكبده العالم ثمناً لعدم التسامح فى الشؤون الدينية كما انهم لن يجدوا صعوبة لكى يبينوا من أى عناصر التربية الثمينة حرمنا عدم التسامح

الفصل الرابع

تكوين العادات الأخلاقية

بواسطة الجيش

ان جميع رؤساء الحكومات يتكلمون في الخطب التي يلقونها عن نزع السلاح . إلا انهم في الوقت ذاته يزيدون في ميزانيات الشؤون الحربية لأنهم يعلمون حق العلم بأن الضمانات الوحيدة لتقرير السلام كائنة في قوة الجيوش . فكل نمو حياة لشعب من الشعوب غدا من المستوجب عليه ليبقوه الكرامة في الأيدي الخوالي أن يظل قويا .

على أن المسيحية منعت الحرب من وجهة دينية ما دامت تقضي على الشعوب التي هي أضعف منها أن تصبح مستعمرة . بل إن ذا قيمة صحيحة بالنسبة للكمال . فإن هذه المبادئ تكون بيان ثمن العمل في الحرب في أيامنا الحاضرة

ان المرء ليتحقق عندما ينظر الى ان الجيش ليس الا عبارة عن آلة نادراً ما تستخدم وتستعمل، ان وجوب الاحتفاظ بقطعات الجيش التي هي باهظة النفقات مهيأة دوماً لحمل السلاح ، من الاعباء الثقيلة جداً .

فعندما يتحقق المرء ذلك يجد نفسه مسوقاً الى طرح السؤال الآتي : ألا يمكن أن تغدو هذه (الآلة) التي هي باهظة الثمن ذات نفع في غير سبيل الحرب ؟ فمن السهل عند ذلك أن نبرهن على أن التربية العسكرية يمكن أن تعود على الشعب فيما خلا غايته الحربية ـ بأجل الخدمات وأنفعها .

ولايزال الجميع يذكرون بيانات الكيمياوي الشهير « اوستفالد » التي أكد بها بان تقدم الجرمانيين الصناعي لم يكن الا لأنهم وقفو على سر الانظمة

فهذا التفوق الذي لم يقف « اوستفالد » ذاته على أصله وكنهه وقوفا تاماً ليس ناتجاً عن بعض الخصائص العقلية التي يحصل عليها بواسطة الجامعات بقدر ما هو ناتج عن الخصائص الخلقية . كالنظام والوازع النفسي ومرية الاتقان والاحكام والتعاضد والشعور بالواجب وما الى ذلك من الخصائص التي لا تدرس في الجامعات .

واقد كان رأى الوزير (هلفريح) فيما يتعلق باسباب تفوق موظفيه اكثر سداداً عندما صرح بان ذلك التفوق متولد عن مرور جميع الشباب الالمانيين بالثكنات العسكرية لانهم كانوا مجبرين على ذلك وبمرورهم بتلك الثكنات كانوا يكتسبون المزايا الخلقية التي لا بد منها امام النهضة العلمية والصناعية التي حدثت في العهد في الآونة الأخيرة .

من العبث أن يعترض معترض على ما سبق استناداً على ما بلغت اليه اميركا من التقدم والسعة في الشؤون الصناعية بالرغم من انها لم تكن فيما سبق ذات جيش . ذلك لان الاميركيين كالانجليز مميزون بالمزايا الخلقية التي يحرزون بها كالنظام والتعود وغير ذلك الاتقان والولوع [illegible] الى [illegible] الرياضة البدنية التي تقضي بالتقيد بالنظام [illegible] تقضي [illegible] الاعمال التي تجري في الثكنة العسكرية

.

كما يكتسب [illegible] النظام العسكري [illegible]
الصناعات [illegible] التصنيع [illegible]
لا [illegible] لا يمكن أن [illegible] رقمت [illegible] عشرة في [illegible]

جميع الفلاسفة [١]

ان هذه القضية هى فى الحقيقة من البساطة بمكان على الرغم من أن بعض الاشخاص نظير « كانت » قد جهلوا العناصر التي تتألف منها جهلا تاماً .

فلقد كان ذلك الفيلسوف الشهير يعتقد انه لا يمكن أن توجد هناك أخلاق اذا لم يدعمها جزاء وبعبارة أخرى اذا كانت بدون مكافأة أو عقاب . ولقد نظر « كانت » الى انه كثيراً ما تبقى الجناية بدون عقوبة فى هـذه الدنيا كما أن الفضيلة فيها لا تكافأ ، فتقررت لديه ضرورة وجود حيـاة أخرى فى المستقبل وآله عادل يثيب ويعاقب .

فاخلاق لا يدعمها جزاء هي اذن بحسب رأي (كانت) من رابع المستحيلات .

(١) يستطيع المرء أن يرى من خلال الاسطر التالية التي كتبها الفيلسوف القدير (بوترو) الى أي حد بلغ الاختلاط في أفكار أشهر رجال الجامعات عندنا في صدد الاخلاق . قال الفيلسوف المومأ اليه : « على الرغم مما بين قواعد الاخلاق عندنا من الاختلاف العظيم تراها تعتمد جميعاً على الاخذ ببعض المعلومات الموضوعة في صدد قيادة عمل الانسان الى مواطن الخير ، وهي تعتبرها غرضاً معيناً يطاب من نشاطنا الاخذ به ثم التفتيش بعدئذ في وسط يتوفر فيه اتفاق قوة اللب وقوة الارادة اتفاقا حواً على نشاط العمل الموجه نحو هـذه العاقبة . »

وقد بقيت هذه المزاعم معولاً عليها في تدريسنا وذكرى الفيلسوف القدير (برغسون) أنه سعى مدة مديدة من الزمن في سبيل دحض هذه المزاعم دحضاً تاماً وكان في سعيه وحيداً تقريباً يكاد لايشاركه سوى مؤلف هذا الكتاب

وإذا كان (برغسون) يدحض تلك المزاعم فذلك استناداً على أسباب تختلف بعض الاختلاف عن الأسباب التي سبق لي أن عرضتها في غير هذا الكتاب والتي أوردت للقارىء فيما يلي المادة الأساسية فيها

إن (كانت) يعتقد كجميع الفلاسفة العقليين أو الركنيين بأن دين الشخص في هذه الحياة هو ذكاؤه . بينما هو في الحقيقة مسوق بوجه خاص من قبل عواطفه ومشاعره التي تتفرع عنها سجيته .

والواقع هو أن مبنى المرء على احترام الواجب الأدبي ليس هو الخوف من العقاب أو نشوء ملكة قد صار إذن فكرة هذا الاحترام لا تتكون إلا بعد أن تصبح عادة من عادات المرء وذلك بأن تتحمس بخضوعه لقواعد وقوانين تجعل سلوكه يتقمصها بسهولة فتنشأ لا جرم في هذه الحالة تكون أخلاقه قد تكونت نهائياً

ان الأدب العقلي المحض الذي يتمسك بأهدابه الاساتذة والذى لايصح فيه أى عمل من الاعمال مالم يستند على التأمل وأعمال الفكر لهو أدب فقير مفقر . ذلك لانه لما كان الشخص لا يستطيع أن يجعل سلوكه وخدمته فى الحياة بموجب قاعدة أخرى فان أفكاره لن تلاقي ثقة عظمى .

فوقوع (كانت) فى الخطأ منبعث عن انه كان يجهل بأن الشعور المهذب على وجه مرضى مناسب هو من القوة بحيث يمكن الاستعاضة به عن الاغراء أو الارهاب بواسطة المكافآت او العقوبات التى ينالها المرء او تحل به إما فى هذه الدنيا أو فى الدار الاخرى . وعلى ذلك فقد كان الجزاء فى نظره من الامور الضرورية التى لا بد منها

***

كيف يمكن تكوين هذه الاخلاق التى هي الدليل الوحيد الذي يستطيع المرء أن يثق به كل الثقة في هذه الحياة ؟ و بتعبير آخر كيف يمكن تحويل الملاحظات التى جاءت بها قوانين الاخلاق والتى سرعان ما يقع المجتمع بدونها فى برائن الفوضى — الى شكل عادات راسخة في النفوس ؟

ليس هناك سوى طريقة واحدة من شأنها أن تساعد على الفوز

بهذه النتيجة والحصول عليها وهي تكرار العمل الذي يجب أن يصبح عادة من العادات مدة مديدة

ان هذا العمل يكون بادىء ذي بدء من الامور الثقيلة الشديدة الوطأة على النفس ولذلك لا يتمكن التلميذ من ممارسته إلا بواسطة الضغط أي تحت تأثير نظام صارم

ولما كان يتعذر العمل بمثل هذا النظام الصارم في العائلة أو في المدرسة فان كثيراً من الاشخاص ليس لهم من الاخلاق سوى أخلاق العائلة الاجتماعية التي ينتمون اليها اذا استثنينا رجال الدرك الذين عند خوفهم اليوم من النقص بمكان

ان هذا النظام الذي هو صارم ولكنه ضروري لأجل ايجاد ناحية أخلاقية غير محسوسة عند الشخص يمكن الحصول عليه بسهولة بواسطة الجيش لأن في الجيش ضروباً من وسائط الضغط لا تمكن مقاومتها بتاتاً . وهي متشابهة وسائط لا تكون شاقة على النفس الا في البدء . ذلك لأن النظام الخارجي الذي وضع يحل مكانه بعد برهة وجيزة الوازع الباطني الذي يكون طوعاً وعلى هذه الصورة يصبح عادة في النفس .

ان الشخص الذي يتكون على هذه الصورة يشاهد أحد هواة

امتطاء الدراجات(بسكليت) اذ تراه يسير بدون أى جهد فى أوعر الطرق بينما كان ذلك لا يستطيع فى أول أمره الا بصعوبة كلية

فالشعوب التى حصلت على وازع باطنى كون فيها أخلاقا ثابتة راسخة هي لهذا الأمر فقط فى منزلة دونها منزلة كل شعب خلت نفوس أفراده من الوازع الباطنى

***

ان تكوين العادات الأخلاقية بواسطة نظام عسكرى ، يستند على أحد المبادىء الثابتة جداً في علم النفس وهذا المبدأ هو مايعرف بـ (الاشتراك بواسطة الارتباط) ونستطيع أن نشرحه للقارىء على الوجه الآتي :

عند ماتحصل فى الذهن جملة انفعالات فى آن واحد أو بصورة آنية التتابع فانه يكفي فيما بعد أن تخطر احداها على البال لكي تحضر الانطباعات الأخرى حالا أمام الذهن

ان (الاشتراك بواسطة الارتباط) ضرورى جداً لأجل تكوين العادة فى النفس . بل اذا استقرت هذه العادة فى النفس ورسخت كما ينبغي لا يبقى لزوم لتخطر الذهن لذلك الاشتراك .

ولكى أجعل القارىء أكثر فهماً لقوة التربية غير المحسوسة

ولأجل أن أظهر له كيف ان هذه القوة تستطيع أن تقوم عاديات الدهر فلا تفنى ولو اختل الشعور بسبب من الأسباب — سأذكر هنا حادثة واضحة جداً وقعت مرة للجنرال المشهور (دوموديوي) الذي لايدع فرصة تمر دون أن يردد على مسامعي بأنه يعتبر نفسه تلميذاً لى .

كان الجنرال وقتئذ برتبة قائد (كومندان) فدخل فى مكتبه يوماً (« عريف » مناوب) فأخبره وهو يضطرب قلقاً بأن جندياً فى حالة السكر الشديد يتورفى حتى القاعات ويعربد ويهجم هنا وهناك وهو يحطم كل ما تصل اليه يده ويهدد بحربته كل من يحاول الاقتراب منه . فما الذى يجب عمله ؟

أما من الوجهة النظرية فيبدو من السهل جداً أن يؤمر بعض أفراد من الجند بالاقتصاص من ذلك المخمور ، لكي يمسكوه ويشدوا وثاقه . إلا أن هذا يجعلهم عرضة لأن يقتلوا أو أن يجرحوا فليت شعرى هلا يتمكن علم النفس من الارشاد الى واسطة أخرى أقرب للصواب ؟

ولقد تمكن جنرال لعدد من العثور على هذه الواسطة بسرعة . فهو خطر بباله أن التربية غير الشعورية لا تفنى بفناء الذاتية الخفية

ولذلك فقد تقدم نحو القاعة التى كان الجندى الثمل يثور فيها ويهتاج ثم فتح الباب وهتف بلهجة الآمر بصوت كالرعد القاصف :

— تهيأ ! سلاح تنكب ! سلاح جنبك ! استرح !

ولقد نفذت تلك الأوامر فوراً وأمكن عندئذ تجريد الجندي من سلاحه بسهولة كلية . فلقد سطت الخمرة على شعور الجندى الا أن العادة الخفية غير المحسوسة لم تكن قد وقعت بعد في قبضة يد الخمرة .

***

ولكى أتمم ما أوردته بشأن الاشتراك بواسطة الارتباط الذى هو من المباديء الخصبة التى تتسع لكثير من الكلام ، سأبين للقاريء بأن هذا المبدأ هو كقاعدة ترتكز عليها جميع اشكال التربية الممكنة سواء عند الانسان أو عند العجماوات أيضاً . فان أعظم القائمين على تربية الحيوانات من حيث التدقيق لا يعملون بغير هذا المبدأ أبداً . بل ان هذا المبدأ يأتينا بحل القضايا التى يبدو حلها مستحيلا . فهو يأتينا بواسطة تساعدنا مثلا على منع احدى الاسماك اذا كانت فى حالة جوع شديد من افتراس الاسماك الأخرى المسجونة معها فى احدى الأواني . أما هذه التجربة فهى معروفة بدرجة

لا فائدة معها من ذكرها علي وجه التفصيل بل نقتصر على الالماع اليها فقط

ان خلق العادات الاخلاقية عن طريق الاشتراك يصبح سهلا بفضل تطبيق قانون آخر من قوانين علم النفس . وهو هذا : أن الانطباعات الضعيفة مهما تكررت لا يمكن أبداً أن يكون لها عمل أو قوة الانطباعات التى وان تكن قليلة التكرر لكنها قوية جداً

وبمقتضى هذا المبدأ الذى كثيراً ماسنحت لى فى مضى فرصة تطبيقه فى تقويم الخيول الصعبة القيد — كان من الممكن جعل عقوبة مخالفة النظام وتجاوزه نادرة فيما إذ كانت هذه العقوبة صارمة . ولهذا السبب قال الرئيس في المدرسة المعروفة باسم جامعة (اتون) الكبرى حيث يكثر وجود ابناء الطبقة الارستقراطية العليا من الانكليز — تقول ان الرئيس في هذه الجامعة يعاقب بنفسه كل تلميذ يجرؤ على ارتكاب جريمة الكذب بأن يجلده بالسوط علناً على مشهد من الجميع . ونتيجة هذا العقاب نحصل هي أنه يتجلى فى أذهان الاحداث فكرة استفظاع نحو الكذب شديدة لدرجة لاتبقى معها حاجة لتطبيق العقوبة الا نادراً .

***

وا كرر القول هنـ أيضا بـّن السبب فيما للنظام العسكرى من التفوق العظيم على النظام المدرسى أو العائلى خصوصا يعود الى ان مقاومة الاول غير ممكنة . بينما النظام المدرسى او العائلي خصوصاً لا يتألف الا من بعض نصائح وتنبيهات لاقوة لها و بعض خطب ومحاضرات فقدة لكل تأثير

ن خلق العادات العسكرية والاخلاقية يتطلب زمنا معينا . وفي الأصل قد كانت مدة هذا الزمن موضع مناقشة وجدال عظيمين بين القائلين بانقاص مدة الخدمة العسكرية الى بضعة اشهر .

وقد وضعت القضية على بساط البحث في بلاد مختلفة سيما في البلجيك . و أثبت الملك (البر) في هذا الشأن ماله من المعارف الواسعة في علم النفس تلك المعارف التي سبق أن دهشت لها عند ماتحادثت معه في أحد الأيام

وقد أراد الملك (البر) أن تمدد الخدمة العسكرية من عشرة أشهر الى أربعة عشر شهراً ولكي يحصل على مبتغاه قال : « ان انقاص مدة الخدمة العسكرية من دون حد معين معناه الالتجاء الى طريقة الملس » في حين ان التجربة تثبت بأن المليس لم يقدر لهم أبداً أن يثبتوا أمام قوة منظمة ومدربة تدريبا صحيحا . يعتقد بعض الناس

بأن معدات الحرب اذا كانت مستكملة للشروط التي تجعلها قوية فن ما يدعو للزهد بالملابس يغدو عديم الشأن ، إلا انه غب عن ذهنهم بأن الجيش الذي لا نظام له ولم ينشأ افراده على روح واحدة لا يستطيع الدفاع عن هذه المعدات . »

***

يخيل لي ان القارىء قد استشف الآن من خلال الأسطر السابقة فائدة النظام العسكري في تكوين سجية افراد الشعب وأخلاقهم ان الضابط يستطيع بل يجب أن يصبح المربي والمقوم الحقيقي للناشئة التي غدت اليوم مجبرة على المرور من الثكنة العسكرية . ونقول هنا يظهر ان الناشئة تخطىء كثير عندما تخاف احيانا من ضيعة الوقت في الثكنة

ان تعليم الجندي كيفية القيام بالمناورة لا يجب ان يتكون منه سوى جزء من الجهد الذي يجب على الزعماء ان يقوموا به . وقد سبق فقيدنا الاستاذ ... الحاجة ... من الضباط خصائيين في علم النفس .

ان البعض من الضباط وعددهم لا يزال قليلا جدا قد ادركوا هذه الجوانب من عمل المترتب عليهم منذ زمن بعيد . وهكذا فان جنرال (غوشه) قد صنف قبل بضعة اعوام وكان بعد برتبة قائد في

صنف (أركان الحرب) كتابا ضمنه جملة محاضرات تكلم فيها عن (بسيكولوجيا – روح – الجيش والقيادة) واقتبس فيه جملة فصول عن بعض الكتب التي ألفتها .

أما فيما يتعلق بتربية الأخلاق خاصة فلقد أبان المؤلف المذكور ما بين طرائق تكوين الاخلاق الفردية والاخلاق الجماعية (كوليكتيف) من الاختلافات والفوارق تبيينا غاية في الجلاء والجودة. مما لا شك فيه ان الزعيم (شيف) يستطيع أن يوجد في نفوس الجند مدة موقتة بعض المزايا العالية جداً كالكفر بالمشيئة الذاتية و بذل الذات في سبيل الآخرين والصبر أو التنزه عن الأغراض ، والتضحية بالحياة وما اليها . الا أن هذه الاخلاق الموقته لا تبقى موجودة بعد زوال عود أو تأثير الزعيم الذى أوجدها بينما الاخلاق الذاتية المتحولة الى شكل عادة تبعاً للمبادىء التى أتيت على عرضها قبل قليل تمتد وتستمر ولا يصر عليها الزوال أبداً

عند ما تكون النفسية قد هذبت كما هذب الذكاء يكون شخص عندئذ حائزاً على رأس مال عقلي أعظم بكثير من جميع رؤوس الاموال المادية ذلك لأن حوادث الايام وعوارضها يمكن في الحقيقة أن تنتاب رؤوس الأموال المادية فتفنيها الا أنها لا تستطيع أن تمس رأس المال العقلى بسوء ما أبداً

ان جميع الشعوب الحديثة سيما منها الشعوب اللاتينية بحاجة الى تربية أخلاقية تجهزها برأس مال عقلي وثيق لا يلحقه عدم أو فناء . وانني لأكرر القول هنا أيضا بأن الجيش وحده هو الذي يستطيع أن يكسبها اياها

ان مستقبلنا سيكون مرتبطا اذن بالتربية الاخلاقية التي سيتلقها الجيل الحديث

أما الذكاء فان كل فرد في فرانسة ضارب بسهم منه . وهذا هو السبب في أن الشبان عندنا ينجحون في الحصول على الشهادات العديدة بتلك السهولة . لا أن خصائص النفسية وصفاتها ينتابها سوء حظ تنميه دوماً بالدرجة ذاتها

أما الخورة فهي تلك خصائص ومزايا وهي التي تسعى مستقبل الأمم في نور تكامل ونهضة التي نحن عند القوم بالمحوج اليه



الكتاب السابع

المحالفات والحروب

الفصل الأول

قيمة المحالفات

بين أسماء رجال الحكومات الذين مثلوا دوراً على مسرح الحوادث في هذا العصر ، سيذكر التاريخ ولاشك إسم المسيو (إزفولسكي) سفير روسيا في باريس أيام الحرب

كان المسيو (إزفولسكي) قبل أن يشغل منصب السفارة في فرنسا وزير الأمور الخارجية ، وقد شغل أيضاً عدة مناصب سياسية هامة في مختلف العواصم الأوربية

إن هذا الموظف الفاضل كان ذا فكر دقيق للغاية وقريحة تتقد ذكاء ، بلغ من الثقافة حداً قصياً ، كما انه كان واقفاً تمام الوقوف على ذلك الفن الصعب الذي يتاح للعارف به أن يفهم الناس ، وأن يعلم

كيف يكون قيادهم . على أنه لا شك بأن الأمور كانت تخدعه في بعض الأحيان فتزل به قدمه ويضل سواء السبيل ولكن التاريخ لا يذكر لنا أبداً أسماء سياسيين لم يخطئوا مرة في حياتهم

ولقد كنت حصلت على شرف دخوله في عداد قرائي المواظبين على قراءة ما يخطه قلمي . بل لقد أقدم حضرته أثناء مقامه في باريس على ترجمة مؤلفي الصغير الذي سميته كلمات موجزة عن الزمن الحالي الى الروسية .

ولقد سنحت لي الفرصة يوماً فعرضت عليه أن يزيد على الكتاب هذه القاعدة الثابتة وهي أن كل محالفة بين الشعوب تتلاشى وتضمحل حال تغدو مصالحها متباينة

فقال لي السفير وهو يبتسم ابتسامة مشوبة بالهزء والسخرية :

— لا تكتب هذه الجملة . فهي من الحقائق التي أيدها التاريخ بدرجة تجعلها لا تحتاج لاثبات من جديد ولا يأتي تكرارها في الحقيقة بأدنى فائدة

(٥)

قد أظهرت الحرب بل قد أظهر السلام أيضاً صواب فكرة ذلك السياسي الشهير التي كانت صادرة عن عقل ناضج وبصيرة نافذة لحقائق الأمور وجوهرها

فلقد تجلت تلك الحقيقة بوجه خاص عنــد ماقلبت كل من إيطاليا ورومانيا ظهر المجن لالمانيا بعد أن كانتا لها حليفتين في اليوم نفسه الذى غدت فيه مصالحهما مغايرة للمصالح الجرمانية

ويمكن أيضاً تحقيق ما للمحالفات من القيمة البخسة الضئيلة عندما تركتنا روسيا ثم عندما جربت النمسا أن تنفصل عن المانيا في أواخر سنى الحرب.

إن عمل الصدف الذى ينتج عنه نقض المحالفات يتجلى بطبيعة الأمر عند عقدها أيضاً ، ولقــد قدمت الولايات المتحدة على هذا مثلاً جديراً بالاعتبار إذ انهــا عندما أحست بتعاظم وعيد المانيا وتهديدها وإبراقها وارعادها خرجت عن حيادها لكى تساعدنا على إتمام الحرب خصوصاً وانها كانت غير مرتبطة بأية معاهدة مع أحد

وقد أظهرت الجرائد الفرنسية سذاجة تجاوزت الحد بعض التجاوز عندما كانت تعيد بصورة متوالية على مسامع الناس طول مدة الحرب ان انكلترة وأميركا قد انضمتا إلى جانب فرنسة فى سبيل الدفاع عن قضية الحق والعــدالة . فى حين ان الدولتين المذكورتين كانتا تدافعان عن مصالحهما المهددة لا أكثر ولا أقل وقد كتبت التيمس مرة مقالا فى هــذا الصدد قالت فيه : « لقد

شهرنا حسام الحرب في سبيل منفعتنا الخاصة ليس إلا ، وما ذلك إلا لكي نظل حكام البحر والمسيطرين على تجارة العالم بأجمعه . » اهـ

وعند ما انكسرت ألمانيا أصبح من المتحتم منع فرنسة من القبض على صولجان التفوق ولهذا السبب كان الذين بيدهم مقاليد الأمور في بريطانيا العظمى يعارضون ويمانعون في إرجاع حدود الرين القديمة إلينا ممانعة عظيمة كادت تتعدى الممانعة إلى الغصب والقسر كما إنهم أظهروا الممانعة نفسها في صدد إبرام المشروع الذي كان يرمي إلى تشكيل حكومة الرين التي من شأنها أن تجعل ألمانيا أقل خطراً على جيرانها .

والذي يقال في غاية إنكلترة من الانضمام إلينا يقال في غاية أميركا التي دخلت الحرب في زعم رجال الحكومة والصحف عندنا ذلك الزعم المشفوع بالتأكيد لأجل الدفاع عن الحق والحرية .

فقد صرح سفير الولايات المتحدة في لندرة هذه السنة وأفصح عن الحقيقة الناصعة عند مقابلة ريبغ (١١) آذار ١٩٢١ :

« كثيرون هم الذين ما زالوا يعتقدون بأننا أرسلنا جنودنا الذين هم في ريعان الشباب إلى ما وراء المحيط لأجل إنقاذ بريطانيا العظمى وفرنسة وإيطاليا . في حين أن هذا الاعتقاد باطل لا ينطبق على

الحقيقة . فنحن لم نرسلنا أولئك الجنود لكي ينقذوا الولايات المتحدة الأميركية ليس إلا . » ه

إن هذه التأكيدات المختلفة تفضي إلى إظهار الجلاء والوضوح اللذين ينطوي تحتهما المبدأ القائل بأن كل محالفة هي عبارة عن شركة وقتية بين المصالح المتماثلة لا حياة لها عند ما تغدو تلك المصالح متعاكسة .

***

عند ما تكون الأطماع والمصالح من القوة بدرجة قصوى فان بامكانها أن توجد المحالفات بين شعوب لم يسبق لها أن ارتبطت مع بعضها برابطة ما من روابط الود . فلقد فكر الامبراطور غليوم الثاني مدة طويلة بالتحالف مع فرنسة التي كان يحبها قليلا ضد انكلترة التي كان حبه لها دون حبه لفرنسة . وقد علم ذلك خصوصاً من حديث جرى له مع الملك (ليوبلد) عاهل بلجيكا أفشاه البارون (فن درانست) السكرتير العام لوزارة الأمور الخارجية البلجيكية سابقاً في جملة ما أفشى من الأحاديث وغيرها .

قال الامبراطور غليوم للملك (ليوبلد) :

« منذ سنين طويلة وأنا أجرب شتى الوسائط في سبيل التقرب

من فرنسة . وفي كل مرة كنت أمد لها يد المصافحة بحب وصداقة كانت تدفع ما أتقدم به اليها باحتقار وازدراء . فكانت جميع نواياي ومقاصدي تتصادم مع معارضة الحكومة التي كانت مصممة على عدم التحول عن معارضتها أبدا . أما المطبوعات الفرنسية فقد كانت تندد بها تنديدا شديدا وتكتب المقالات الطوال ضدها . كما انها كانت تتخذها وسيلة لسبي وشتمي والقذف في شأني . لقد فكرت في المسالمة والمصافحة مع فرنسة وكنت أريد برسم النفع العام أن أشكل بالاتحاد معها كتلة تحالف بري قوي لدرجة تؤهلها لأن تقوم كحاجز منيع في وجه اطماع انكلترة التي تسعي لاحتكار التجارة لنفسها بشكل خاص . لكني رأيت فرنسة على العكس من ذلك تثير كثيرا من الضغينة والانتقام وتستعد للحرب بغية ابادتنا وإزالتنا من عالم الوجود . اهـ

على ان انكلترة لم تقف بعد دبيب الخوف العظيم يسري في جسمها عندما رأت ان منافسة المانيا لها غدت في تعاظم مستمر لم تكن اذ ذاك لتتأخر عن عقد محالفة مع المانيا بل كانت مستعدة لأن تقدم على ذلك طوعاً . لكن المساعي التي بذلتها في هذا السبيل لم تلق نجاحا كبيرا ، إذ أن المانيا كانت في الأصل على

يقين تام منذ بدء الحرب بأن بريطانيا ستلتزم جانب الحياد.
كثيراً ما أكد العارفون بأنه كان من المحتمل أن لا تثير ألمانيا الحرب لو صرحت انكلترة عام (١٩١٤) بنياتها وأعلنت عنها فوراً لكن هذا الابطاء كان من النتائج التي تحتمها السياسة التقليدية الانكليزية أما نفع الاتحاد مع فرنسة فلم يتحقق لها (أي لانكلترة) اللهم إلا عندما خرقت ألمانيا حياد بلجيكا وهددت (انفرس) خلاف ما كان يؤمله رجال الحكومة الانكليزية

إن جميع هذه الأمثلة التي ترينا بأجلى وضوح الأركان النفسية التي تقوم عليها المحالفة تساعدنا على الاستدلال على معنى هذه الكلمة الحقيقي.

إن المحالفات بين الشعوب أصبحت أمام نهضة العالم الحالية وعدم ثبات المصالح الاقتصادية لا تعد شيئاً آخر سوى (شركات وقتية بين المصالح المتماثلة) وهذه الشركات لا تبقى حية عندما يزول هذا التوفق بين المصالح بل تزول وتضمحل.

***

ومما يجب أن لا يذهب عن البال أيضا عندما يكون مدار البحث الكلام عن المحالفات أنه فيما عدا العلاقات التجارية التي تحتم

مراعاة الصدق والشرف [لأن العمل بخلاف ذلك يخشى معه انقطاع تلك العلاقات وعدم امكان ادامتها] نقول فيما عدا العلاقات التجارية لاوجود لأثر من آثار الاخلاق السياسية الدولية . أن عبارات الحق والعدالة هي إذن من التعابير المجردة تماماً عن النفوذ والقوة والتي لم تؤثر يوماً على سلوك الحكومات أو على الطرائق التي اختطتها لنفسها

يتألف التاريخ بوجه خاص من سير الحروب والمعارك التي شنتها الشعوب القوية على الشعوب الضعيفة بدون أن يكون لحق وأمثاله أي شأن في هذا الصدد . بل أن المشتغلين باستقراء حوادث التاريخ يقصرون عجبهم وانتقادهم على الغزاة الذين كانوا يكترثون بعض الاكتراث لفكرة الحق والعدالة . ولقد عقب (فردريك الثاني) ملك « بروسيا » (باسكبير) لا سبب آخر تقريباً سوى انه كان يسلب جيرانه بعض الولايات التي لم يكن له أي حق عليها

وقد جرى هذا الخلق نفسه في جميع البلاد . وفي خطاب ألقاه مسيو (بوانكاره) في (دنكرك) ذكر السامعين بأن تلك المدينة عندما ظهر أنها غدت منافسة ذات خطر على التجارة الانكليزية فان الحكومة البريطانية هاجمتها فجأة وحاولت أن تحرقها وذلك أنها

لكي تتمكن من تجربة هذه العملية فاجأت المدينة بهجومين أحدهما عام (١٦٩٤) والآخر عام (١٦٩٥) وكانت في كل مرة تبعث بعمارة بحرية مؤلفة من بوارج و (حراقات) كثيرة العدد. على أن (جن بار) وان نجح في منع وصول الأذى لتلك المدينة لكن الانكليز توصلوا بعد قليل في تدمير استحكاماتها وهدم حصونها وتخريب مرفأها.

وعندئذ كان القول الفصل للقانون الأدبي المسيطر على العلاقات الكائنة بين الشعوب في الوقت الحاضر والذي سيبقى المسيطر على تلك العلاقات في الغد وفيما بعد الغد أيضاً وهو. الحق للقوة

***

إن معاهدات التحالف التي هي عديمة الجدوى غالباً قد تكون فضلا عن ذلك ذات خطر في بعض الاحيان. لقد كان أمر المنازعات والخصومات التي دارت بين النمسا وسربيا سواء عندنا ولم يكن ليعنينا بوجه من الوجوه. أما حلف الفرنسي الروسي فقد كلفنا مليوناً وخمسمئة ألف نفس ودمار كثير من أيالاتنا وعدداً جسيما من المليارات.

لا حاجة لأية معاهدة من معاهدات التحالف لكي تجعل أحد

الشعوب يتمكن من أخذ نصيبه من العراك إذ ما قتضت ذلك مصالحه ومنافعه فان الحكومات التي فقت غيرها مساعدة في أثناء الحرب (أي انكلترة وأميركا) هي الحكومات التي لم يكن يربطها بها حقيقة أي عهد أو عقد أو ميثاق .

***

لا نريد أن نستخلص مما سبق أن المحالفات هي دوما عديمة النفع إذ أن بامكانها أن تكون ذات تأثير معنوي ثمين في سبيل ملافاة غارة الشعب القوي ضد الشعب الضعيف . فلو كان يخطر في بال ألمانيا — كما المعنا إلى ذلك فيما سبق — أن انكلترة ستتحد مع فرنسة لما كانت المانيا — بدون شك — تسبب نشوب الحرب وعليه فقد كان يحتمل أن تتمكن معاهدة تحالف حقيقية واضحة بينها وبين انكلترة عوضاً عن بعض وعود غامضة عن منع اشتعال نار ذلك الحريق الهائل .

والذي قيل فيما سبق يقال أيضاً في المعاهدة التي كان في النية عقدها أثناء انعقاد مؤتمر الصلح بين فرنسا وانكلترة وأميركا . إذ لو تم عقد تلك المعاهدة لأتى ذلك بالنفع الجزيل من حيث القضاء على نيات المانيا التي كانت منعقدة على الانتقام والأخذ بالثأر وتحقيق الشاكل بها .

إن أى شعب ليس اليوم من القوة بحيث يستطيع أن يعيش بدون المحالفات المعنوية تلك المحالفات التى هي وحدها فى متناول الأيدى في الوقت الحاضر . لأن المحالفات الأخرى عديمة الفاعلية كما أثبت ذلك فيما سبق . فمع من يجب على فرنسة أن تتحد ؟

إن هذه المشكلة تماثل المسائل التى طرحت من قبل (الاهرام) على بساط البحث كما جاء فى الأساطير القديمة ومن المشاكل التى يتحتم البت فيها تفادياً من خطر الهلاك والفناء . إذ عليها يتوقف مستقبلنا .

أما التحالف مع الولايات المتحدة فربما كانت الرغبة فيه قد تفوق الرغبة فى غيره . ولكنه رفض من قبل مجلس الشيوخ الأميركى وذلك لأنه لما كانت مصالح أميركا قد تبدلت منذ انتهاء الحرب فقد تغيرت أفكارها أيضاً بطبيعة الحال .

وقد جاهر رئيس (هردينغ) بما يكنه ضد أوربا فأبلغه ذلك إلى تولى زمام الحكم كما أن بث الدعاية في سبيل المانيا جعل الولايات المتحدة تلح في المطالبة بالمبالغ التي أقرضتها للحلفاء أثناء الحرب العظمى بعد أن كانت حتى ذلك الحين لم تفكر قط بهذا الأمر .

أما الجرائد الأميركية فهي توعز الآن إلى الحكومة إنه إذا كانت الولايات المتحدة تتحمل أعباء الضرائب الثقيلة فما ذلك إلا لأن مدينيها المتحالفين لا يريدون تسديد ما عليهم من الديون في حين إن باستطاعتهم القيام بذلك بسهولة إذا كفوا عن تكريس جميع دراهمهم في سبيل التسليحات .

فالشعب الأميركي يزداد اعتقاداً يوما بعد يوم بأن استمرار فرنسة على التسلح هو الذي يحول دون نجاح مشروع نزع السلاح العام . ويرى العارفون ان ضغطا سياسياً باستطاعة حكومة وشنطن أن تقوم به نحو حكومات أوربة يمكن أن يفي بالغرض المطلوب

إنه لمن الممكن أن تطالب حكومة الولايات المتحدة بإلزام بعض الشعوب الأوربية على إنقاص التسليحات . وحكومة الألمانية تثق كثيرا بهذا الأمر .

إن هذه الخطة الجديدة التي تختطها أميركا لنفسها تريد — مرة أخرى — عظم النقص الذي غدا يعتري معاهدات في الزمن الأخير . ويريد بوجه خاص أنه يجب ألا يعقد الأمر على محالفة تعقد مع أميركا .

* * *

إن عقد المحالفات مع حكومات فى الدرجة الثانيــة أو الثالثة من حيث القوة نضير تشكوسلوفكيا و بولونيا وأضرابهما جدير بشيء من الرغبة . إذ يصبح علينا عند عقد مثل هذه المحالفات أن نبذل كثيراً وأن نتناول قليلا . ولقد سبق لنا أن رأينا إلى أي حرب مع روسيا السوفيتية كادت تودي بنا المحالفة البولونية (النصفية)

أما المحالفة مع إيطاليا فهي من المحالفات التى لا يرجى لها الدوام والثبات كثيرا . فنعددا كبيراً من مختلف الصحف الايطالية لا تتردد في الالحاح بالمطالبة بكورسيكا ونيس وتونس ، ولم تحجم عن الاعلان — كما فعلت الجيورناله ديطاليا — بأن فى استطاعة ايطاليا تماما أن تنضم الى صفوف المانيا كما كانت قبل الحرب .

إن الاعتداد بحرية جمعية الامم الوهمية او بالمبدأ الاشتراكي القائل بجمع أمم الأرض عائلة واحـدة أو بالخطب والمحاضرات السخيفة التي يلقيها القائلون بالصلح الابدى ، إن الاعتداد بمثل هذه الأمور يعد غباوة متناهية وغفلة لاغفلة بعدها . إن الاعتداد بالاوهام السخيفة أصبح اليوم غير جائز . فقد أودت بنا تلك الأوهام في تحف حرب هدام وكدنا نسقط في الهاوية الفاغرة فاها لابتلاعنا عندما لا نستطيع أن نأمل المعونة من أميركا التي هي بعيدة

عنا جداً والتي هي غير مهتمة كثيراً لتحديد مشروعها العظيم (أي المشروع الذي قمت به أثناء الحرب) فإننا نغدو إذ ذاك منفردين في أوربة . وفي هذا ما يجعلنا من الضعف والوهن بدرجة عظمى

إن انكلترة اليوم لا تزال الشعب الوحيد الذي لفرنسة نفع أكيد من وراء عقد محالفة بينها وبينه بسبب ما له من التأثير المعنوي .

***

إذا أريد تحري القواعد الممكن عقد مثل هذه المحالفات عليها يجب علينا أولاً أن نحسب حساباً للمبادىء السياسية التقليدية التي تمشي عليها انكلترة . ثم يتعين علينا النظر في حالة الرهبة

إن رجال الحكومة الذين يديرون أمور الشعوب التي حصل لها الماضي الطويل في حياة أوربة ، يجدون أنفسهم بالذات تابعين لحكم عدد قليل من المبادىء وراثية في وسط التحولات والتبدلات التي تحيط بهم . بل إن بعض هذه المبادىء هي في الأصل ثابتة بدرجة تجعل الحكام المنتخبين من الأحزاب السياسية المعارضة لا يكادون يتولون زمام الأمور حتى تراهم يطبقونها ويسيرون بموجبها بعد أن كانوا بالأمس يعارضونها ويقاومونها

إن انكلترة هي الشعب الذي يفوق جميع الشعوب الحالية الأخرى من حيث بقائه ثابتاً علي ماكان عليه ، ولهذا السبب بقيت سياستها غير متقلبة ولا متبدلة على مضى الأزمان. ولقد كان دأب الأمبراطورية البريطانية منذ عهد («إرمادا» الذى لايغلب) حتي زمن (نبوليون) القيام فى وجه كل سلطة أوربية يمدوعليها أنها أخذت تكبر و تتعاظم ولهذا فعندما بدا على فرنسة عام (١٨٧٠) أنها أصبحت قوية جداً رأينا انكلترة تهتف للإنتصار الذي أحرزته المانيا على فرنسة . ولما عدت القوة فتزمت جنب المانيا عام (١٩١٤) شاهدنا بريطانيا العظمى هذه المرة تنضم الى جهتنا وتلتزم جانبنا .

***

ولقد تملك من حكامنا الوهم فجعلهم القلق على فقد محالفة يعتبرونها من اللزوميات التى لا بد منها يتنازلون لانكلترة منذ أوائل أيام الصلح عن جميع المطاليب التى جعلت انكلترة ديدنها المطالبة بها ، وهكذا سهلوا لها القبض علي صولجان (التفوق الدولى) في أوربة .

إذا كانت بريطانيا العظمى غير محتاجة لفرنسة فان مطالبتها بأى شىء من الأمور التى لا تجدى نفعاً بالكلية . ان عقلية رجال حكومتها لاتسمح لهم باعطاء أى شىء إلا تحت تضييق الضرورة المطلقة التى لامناص من النزول عند مقتضياتها

ان انكلترة تأخذ اليوم من جميع الجهات وتعرقل أعمال حلفائها القدماء ويبدو لنا انها لاتميل كثيرا الى الزام نفسها بعقد محالفة جديدة والدخول في مثل هذه الورطة

فاذا استمرت انكلترة على السير بموجب هذه الخطة فما عسى ان تكون النتائج التي تتأتى عن ذلك ؟

نفرض ان المانيا العتيدة استطاعت في زمن معروف من قبل القدر ولكن لامناص من حصوله — ان تخرج من الهوة السحيقة التي القتها فيها الحرب وظنت بانها غدت من القوة بحيث تستطيع الاخذ بثأرها ومهاجمة فرنسة المنفردة التي تعزل عنها جميع صحبها فماذا تصبح حال انكلترة اذا خرجت من المعركة مغلوبين ؟

ان مقدرات انكلترة لاتعدو اذ ذاك متبسه على حصول لا يبقى مجال للارتياب بما ستؤول اليه حالة . فما هي الا برهة وجيزة حتى تقع (انفرس) (وكاله) في أيدى الالمانيين ومن ذاك تمتد انكلترة على الفور كامل سيطرتها على البحر . ولا يعاني الالمانيون حينئذ مشقة في الاستيلاء عليها وتسقط في أيديهم بسهولة وتصبح انكلترة حالا مستعمرة بسيطة من المستعمرات الجرمانية

إن المحالفة مع المانيا التى هددنا بها المستر لويد جورج أكثر

من مرة لا تنقذ انكلترة من مثل هـذا المقدر . ذلك لأن المانيا تنكص على عقبيها بسرعة ضد حليفتها حالما تصبح فرنسة مغلوبة ولو لم تكن تبغي من وراء ذلك سوى استعادة مستعمراتها .

وعليه فان الأمبراطورية البريطانية يجب أن تخضع لحكم القضاء الذي يحتم عليها أن تعقد مع فرنسة محالفة صريحة خالصة من الغموض والابهام ، وبدون أن تجعل لغرض من الأغراض عدا مصلحتها دخلا في هذه المحالفة ، وذلك لكي يمكن نزع فكرة إعادة الحرب الراسخة فى ذهن المانيا .

***

إن المحالفة مع انكلترة ليست أبداً قضية حماية تلتمس بل هو موضوع للدرس يجب البحث في شأنه . إن ساستنا يربحون من عقد مثل هـذه المحالفة إذا دخلوا اليها بصفة تجار يعرضون مبادلة بضاعتهم مقابل أثمان تعادلها . إن الحزم المتحلى بالأدب واللطف يجب أن يقوم مقام التفريط بالحقوق الممزوج بالخوف والفزع ، الذي أبداه ويبديه ساستنا أثناء المفاوضات التى دارت فى مؤتمر الصلح ومنذ ذلك الحين حتى اليوم . ولقـد جاءت ضد مصلحتنا تلك الأفكار العقيمة التى كانت متمكنة من دماغ الرئيس ولسن المطلق

السلطة عند ما كان يسعى وراء تحقيق المثل الأعلى الذي هو وهم من الأوهام المستحيلة ، كما جاءت مخالفة لمنفعتنا تلك الأفكار المضمة التي كانت راسخة في ذهن رئيس الوزراء الانجليز سابقاً الذي كان لا هم له إلا أن يزيد في نمو الأمبراطورية البريطانية ولا يريد إلا أن يترك فرنسة في حالة من الضعف تجعلها تشعر من نفسها دوماً بأنها تابعة لانكلترة خاضعة لمشيئتها .

إنه لمن الجلي الواضح إن المحالفة مع انكلترة يجب أن لا تكون بشكل يجعل المستقبل رهين الظروف بصورة شديدة الوطأة ، كما أنها يجب أن تكون بشكل لا يوقعنا في حروب بعيدة . وإذ اقتضى ذلك أن نعقد محالفة مع اليابان وصادف أن دخلت هذه الأخيرة في حرب مع الولايات المتحدة فلا شيء يقيننا إذ ذاك من خوض غمار معركة جديدة تفوق المعركة التي خرجنا منها شؤماً ونحساً . ويجب أن لا ننسى كم كلفتنا الأخطار في ذلك حين سبق أن تحالفنا مع الروسيا قد جرتنا إلى المعركة الهائلة التي قوضت دعائم العدو وهدمت أركانه . كما إنه يجب أن لا يذهب عن البال أيضاً أن (التحالف المنصفي) مع انكلترة في الوقت الحاضر يكاد يدخلنا في حرب مع تركيا .

وعلى ذلك فان معاهدة تحالف بين فرنسة وانكلترة يجب أن تعين بوضوح الأغراض والحدود المتبادلة فى العهود المقطوعة بين الأمتين . ويجب أن يكون هدف تلك المعاهدة منع هبوب عاصفة تشعل الندر فى جميع أنحاء أوربة وتحدث حريقاً لا شك بأنه إذا حدث سيكون إشارة تصرم أجل حياة مدنياتنا .

إن هذه الحقائق التى هى حقائق الساعة الراهنة متسلطة على المكائد السياسية العقيمة وعلى ثرثرة القائلين بمبدأ الصلح الأبدى. إن الحكم قد أصبح اليوم أكثر من أى وقت آخر يتوقف على إدراك عواقب الأمور قبل وقوعها . فان عدم التبصر بالأمور قد كلفنا حرب أربع سنوات ودمار بعض مقاطعاتنا الغنية . كما أن تكرر الوقوع في مثل هذا الحادث لا يمكن أن ينقضى بدون عقاب أو قصاص ؟

الفصل الثانى

المطاعنات فى سبيل التفوق الدولى والاحتفاظ بالكيان

١) ــ نضال انكلترة في سبيل التفوق الدولي

إن جميع الشعوب العظيمة فى التاريخ كانت تطمح ببصرها دوماً نحو التفوق الدولى .

على أن هــذه الحاجة التى تختلج فى النفوس هي اليوم شديدة شدتها زمن (قيصر) و (شرلكن) والفرق هو أن الدول فى الزمن الحاضر غدت تكتمه ولا تعترف به . إذ أن رجال الحكومات الذين يسيطرون على مقدرات الشعوب يدعون إن أفكارهم متحررة من هذه الفكرة .

ولقد صرح وزير من أكثر وزراء بريطانيا العظمى ميلاً إلى الملكية فى إحدى خطاباته بتوقه إلى إيجاد تعاهد بين الشعوب من

شأنه أن يمنع حب الرفعة والطمع من أن يحملا العالم على خوض غمر هذا الاختلاط بين الحابل والنابل أو هـذا التقلقل والتبلبل الذى يسمى بالحرب . »

على إن رجال السياسة وان كان معنى الكلمات عندهم مرن يتبدل بسهولة حسب مايشاؤون ، لكنه من الصعب جداً على هذا الوزير أن يعزو ماتقوم به انكلترة بلا انقطاع منذ بدء الصلح من توسيع نطاق الأراضى التى تملكها لدواع و بواعث أخرى غير الأسباب التى انتقدها أى « حب الرفعة والطمع » .

والداعي لهـذا التناقض الكامل بين الخطط التى يسير عليها رجال الحكومات و بين الخطابات التى يفوهون بها يرجع الى أسباب نفسية عميقة ، ذلك لأن الخطابات تتعلق بالمثل الأعلى الشخصى . فهذا المثل الأعلى فضلا عن انه (نظرى) فهو بعيد عن عالم الحقيقة ولو قع أن قليلا أو كثيرا . كما إنه لم يمكن تنفيذ مراميه بعـد ، في حين أن السلوك أى المنهاج الذى يسير عليـه رجال الحكومات ينعكس عن الآمال والمرامى الو راثية للشعب الذى يدير أموره أولئك الحكام ليس إلا . ولهذا فان كل رجل من رجال الحكومة لا يكون ذا نفوذ إلا عندما تبقى الخطة التى يسير عليها عبارة عن مرآة تنعكس

عنها آمال وتعاضد العنصر الذى يمت اليه ذلك الرجل . كما ان بامكانه أن يخطب فى الناس محبباً اليهم مبدءً لآخر محبذاً فكرة التعاضد ولكنه يدير دفة سياسته بموجب مبادىء مختلفة تمام الاختلاف عن المبادىء التى ينادى بها ويحبذها .

اذا كانت انكلترة عبارة عن شعب يطمح ببصره دوماً الى التوسع وزيادة بسط النفوذ فى ما من شيء يسمح لنا بأن نفرض أن عقليتها التقليدية خاضعة (كوانكتيف) قد لحق بها تغيير أو تبديل .

إن الفرق الذى جعله كدستور والكائن بين الخطابات المنبعثة عن الروح الشخصية المنطوية على الذمة والضمير وبين السلوك الذى تمليه روح الشعب التى لاتنطوى على شيء من ذلك هذا الفرق هو الذى يسيطر على حياة الشعوب السياسية وهو مسيطر عليها بوجه خاص منذ ظهور الأسباب التى دعت لنشوب الحرب الأخيرة .

وعليه يجب أن لا يعترينا العجب كثيراً عندما نرى رجال الحكومة الانكليزية الذين صرحوا فى خطاباتهم التى ألقوها طول مدة الحرب أكثر من مئة مرة بأنهم يحاربون ضد (الميليتاريزم)

وهوى التفوق الدولى يسيرون منذ اليوم الذي تلى انعقاد الصلح بموجب خطة تخالف المبادىء التى سبقت لهم المناداة بها بكل أبهة وتبجح على رؤوس الاشهاد محاولين القضاء علي السيادة الدوليـة لالمانيا واقامة دعائم التفوق الدولى الانـكليزي مكانها .

***

إنه مامن شعب أظهر ما أظهرته انـكلترة من الميل الشديد لتدويخ البلاد والقيام بالفتوحات . إذ أنها بعد أن اختصت نفسها بالاسطول الالماني واستولت على المستعمرات الالمانية أعلنت حمايتها على مصر وعلي بلاد مابين النهرين وعلى بلاد العجم ، ثم جربت أن تستولى على الاستانة وعلى قسم من تركيا عن طريق توسيط اليونانيين .

وإنك لترى تلك الأمبراطورية العالميـة البريطانية مع ما استولت عليـه من البلاد وألحقته بهـا نظير بلاد ما بين النهرين وفلسطين ومصر و « افريقية الالمانيـة » والـكمرون والتوغو وجزر « الصند » وغيرها ، تراها تتبسط في النفوذ في بقاع تمتد من مصر الى الكاب والى الهند تتضمن شطرا كبيرا من أفريقيا وآسيا وتنشر لواء حمايتها على أكثر من ربع الارض .

ان حالة انكلترة الراهنة يمكن أن تتلخص في هذه الجملة التى فه بها اللورد كرزن في مجلس العموم وهى (ان انكلترة قد ربحت كل شيء في هـذه الحرب بل لقد حصلت على أكثر ممـا كانت تؤمل) .

وفي الوقع ما تكن انكلترة يوماً تحلم بمثل هذه السلطة العجيبة فان بضعة أسابيع قد كفتها لتستغل جميع الارباح والمنافع التي جاءت بها الحرب العالمية .

قال العلامة المؤرخ (فريرو) :

قد استولى على انكلترة نوع من الهذيان جعلها تتوق الى بسط سيادتها على العالم بأجمعه فهذه الرغبة لا يهدد العالم بأجمعه نحو هوة سحيقة من الخراب والفناء بعد الاضطراب الالمانية الاهـ . . . . وقد وقعت انكلترة في الخطأ نفسه الذي كان سبباً في سقوط نابليون أولا ثم في سقوط المانيا بعدئذ . اذ خيل اليها أن مصلحة الشعب الواحد يمكن أن يقتصر عليها العالم فيجعلها دستوره الذي يسير بموجبه . ولهذا فهي تجرب أن تقيم على أطلال نصف آسيا مستعمرة كصورة عن الامبراطورية النابليونية أو الامبراطورية التى حاول الالمانيون أن يؤسسوها بعد أن اعدوا لذلك وسائل أعظم من وسائل انكلترة بما لا يقاس . » اهـ

ان انكلترة لاتسعى لتنفيذ ارادتها التي ترمى الى القبض على صولجان السيادة الدولية فى العالم عن طريق الفتوحات والاستيلاء على الاراضى فحسب بل وعن طريق تصرفاتها بازاء حلفائها ، تلك التصرفات التي تماثل تصرفات الملوك والسلاطين المستبدين بازاء رعاياهم

عند ماكان البلاشفة على ابواب (فرسوفيا) لم تحجم انكلترة عن ايصاد ابواب (دانتزينغ) التي هى الطريق الوحيد الذى يساعد فرنسة على ارسال المؤمن والذخائر والاعتاد بسهولة الى البولونيين المكلفين بايقاف تلك الغارة . كما أنها اضطرتنا امام الاعمال العدائية التي يقوم بها نفر ممن دخلوافى الحماية الانكليزية ممن يقيمون على حدودنا السورية ـ لأن نضحي فى سورية بعدد غير قليل من الرجال وأن ننفق عدداً لايستهان به من الملايين . وعداكل ذلك فهى لم تنفك مدة اربع سنوات عن معاكسة مطاليبنا المتعلقة بالتعويضات .

* * *

ينتج مما تقدم أن تشييد اركان السيادة الدولية الانكليزية هو من النتائج الرئيسية للحرب العالمية وأن يكن من الأمور التي لم يتوقعها الناس كثيراً .

على أن هذا التفوق الدولى لم يكلف انكلترة نفقات طائلة ، فقد

بقيت حالتها المالية من الجودة بحيث أن ميزانية واردات صحت اليوم تفوق ميزانية الصادرات .

وعليه فإن أوربة ، تقاتل أربع سنوات ضد السيادة الالمانية الا لكي تقع تحت نير السيادة الانكليزية . هذا وليس هناك أي من يسمح لنا ان نعتقد بأن السيادة الأخيرة ستكون أخف وطأة من الاولى .

ولقد كان الناس فيما مضى يعيبون على المانيا سعيها في سبيل تصويب رغباتها التي كانت ترمي الى القبض على صولجان التفوق الدولي وذلك عندما تتوكد بأنها كلفت من قبل (السماء) بمهمة تمدين العالم ثم رأينا المستر لويد جورج يؤكد في خطاب ألقاه في (شفليد) . « ان العناية الربانية قد كلفت العنصر الانكليزي بمهمة تمدين شطر من العالم . »

وانه من المؤسف أن يضن الوزير المشهور على العالم بإيضاح الطرق السرية التي أفهمته بأن المولى عزوجل قد أناط بانكلترة القيام بهذه المهمة التي سبق أن أناط القيام بها لالمانيا .

ان الشعوب تتبع في سيرها طريقة مخالفة كل المخالفة للأفكار والمبادىء التي تودى بها أثناء المفاوضات التي دارت في مؤتمر الصلح

فقد رأينا في الحقيقة أنه قد خرج لحيز الوجود فى بقاع مختلفة من الأرض مركزان أو ثلاثة مراكز للسيادة الدولية ، ويظهر أن مراكز السيادة الدولية هـذه قد عمل فى تكونها وتكاملها القانون النفسى الآتى :

كل شعب عندما يعظم يميل الى السير في الطريق الموصلة للسيادة الدولية ، ثم يميل الى القضاء على الحكومات المنافسة له حالما يغدو أقواها .

وفي الحقيقة ان السبب الرئيسى لنشوب الحرب الأخيرة هو عبارة عما كان بين المانيا وانكلترة من المنافسة التى كانت تدعوهما لتنازع السيادة الدولية فى أوربة . ولما فكر أمبراطور المانيا باعلان الحرب فكر في اعلانه ضد انكلترة لا ضد فرنسة .

ان الشعب الذى يطمح ببصره الى السيادة على العالم لا يلبث حتى يرى ان الشعوب الاخرى التى هى ذاتها أيضاً تتوق الى القبض على صولجان السيادة الدولية — قد قامت ضده وهبت لمعاكسته ولقد غدا الناس اليوم يرون هـذه الحقيقة ويتبينونها شيئاً فشيئاً فبمقابل (الامبرياليزم) الانكليزية تنمو بسرعة كلية (امبرياليزم) الولايات المتحدة التى تحلم منذ أمد بالقبض على صولجان التفوق الدولى في آسيا بالرغم من معارضة انكلترة واليابان الاكيدة .

وكذلك فإن الولايات المتحدة تسرع الآن في إعداد أسطول بحري يمكنه أن يقاوم اليابان و يتغلب عليها . لأن اليابان يهمها بعد أن تسلخ « شانتونغ » بما فيها من السكان الذين يبلغ عددهم (٣٠) مليوناً وتستولي عليها — أن تبسط نفوذها على سيبريا الشرقية وعلى بلاد المغول وعلى شمال اليابان وعلى جزر الفيليبين .

٢ — النضال في سبيل الاحتفاظ بالكيان في الشرق الاقصى

إن المطاحنات في سبيل التفوق الدولي في أوربة نشأت بوجه خاص عن الأطماع . وغاية ما هنالك أن هذه الأسباب قد يأتي عليها يوم تزول فيه من عالم الوجود برمتها و ينجو الناس منها . في حين أن النضال الذي أخذ يحدث في الشرق الأقصى هو بالنظر لليابان نضال ضروري عن الحياة وكفاح واجب في سبيل الاحتفاظ بالكيان بسبب تكاثر عدد النفوس فيها وازدياده ازدياداً مفرطاً يوماً بعد يوم . وهو نضال لاتقوى جميع الخطب الرنانة التي تلقى في المؤتمرات على الوقوف في سبيله وصد تياره .

فهذه الحالة المرتبطة بالمستقبل هي من العناصر الأساسية في القضية المعروفة بقضية المحيط الهادئ (الباسفيك) والتي يضطرب لها بال الولايات المتحدة كثيرا لأن مستقبلها يتعلق بها .

ولما كان الاميريكيون كبقية امم الأرض جمعاء ذوى عقيدة تصوفية أوسرية بخصوص المؤتمرات فقدعقدوا مؤتمرا فى (وشنطن) لحل تلك القضية . فكان اول ماوضع على بساط البحث هو مسألة التسليحات . ولكن الحقيقة هى أن الأمر الذي كان يشغل عقول القوم اذ ذاك لم يكن عبارة عن هذه المسألة التالية قط .

ان قضية الباسيفيك بالرغم من جميع الكنايات والاستعارات التي يحيطها بها الخطباء لطمس الحقيقة تنحصر فى ايجاد وسائل من شأنها أن تعيق اليابانيين عن امتلاك آسيا ونشر لواء سيادتهم في ربوعها وتمنعهم بوجه خاص عن ارسال مهاجريهم الى الولايات المتحدة . ولما كان اليابانيون لا يختلطون بالعناصر الأخرى ، ويتكاثرون بسرعة كلية ، ويشتغلون فضلا عن ذلك مقابل أجور دون الأجور التي يتقاضاها ذوو البشرة البيضاء فسينافسون هؤلاء الأخيرين منافسة تأتى بالضرر البالغ على « البيض » وتقضى عليهم .

فالمهاجرة بالنسبة لليابانيين غدت ضرورة متحتمة لابد منها وأن تكن ومصالح الأميريكيين على طرفي نقيض . إذ لما كان عدد النفوس فى اليابان يزداد في كل سنة ازدياداً هائلا لم يعد بامكانهم والحالة هذه أن يجدوا فى البلاد اليابانية أمكنة يأوون اليها ولو كانت

عبارة عن أرض مجردة لابناء فيها ولا عمر. كما انهم لا يستطيعون النزوح إلى بلاد الصين بالنظر لكثافة النفوس في هذه البلاد التي غدت تضيق بهم فضلاً عن الاغراب. فهم تراهم يريدون النزوح إلى الولايات المتحدة ومستعمرات الانكليزية.

وقد استطاعت بعض قوانين من قبيل القوانين (الدراكونية)(١) أن تجعل هذه المهاجرة من الصعوبة بمكان حتى اليوم. وقد احتمل اليابانيون أحكام هـذه القوانين لـ يكونوا الشعب الأقوى.

أما الآن؟

أما بريطانيا التي هي مرتبطة مع اليابان بمعاهدة تحالف والتي يجعلها بعد المسافة وانكماشها في بقعة نائيـة بعيدة في مأمن من خطر الغارات، فهي لا ترى في انتشار العنصر الأصفر وتكاثر عدده أي خطر أو ضرر. ولكن الأمر على خلاف ذلك تماماً مع المستعمرات الانكليزية نظير (كندا) و (اوستراليا) و (زيلندة الجديدة) و (افريقية الجنوبية) وغيرها من المستعمرات التي تشاطر الولايات المتحدة ميولها في هذا الصدد، ولا تريد بوجه من الوجوه أن تدع الخطر الأصفر يكتسح البلاد.

---

(١) نسبة الي « دراكون » . وهي قوانين كانت تفرض عقوبة الاعدام على أقل هفوة وأدنى خطيئة . حتي قيل كأنها خطت بالدم . وهـذه يضرب بها المثل اليوم في معرض الصرامة والشدة — المترجم

ولقد صرح مندوبو هذه المستعمرات بآرائهم في هذا الصدد بصورة باتة صريحة ، وفاه رئيس الوزارة الاسترالية بتصريحات قال فيها : « تتمتع البلاد التى تمثلها بحقوق يصرح لها أحدها بأن تكون حرة فى اختيار مواطنيها واصطفائهم ، وبالتالى أن تطرد الغرباء الذين لا يلتئمون مع أغراضها ومصالحها . »

فهل ستصبر اليابان الحالية زمناً طويلا على هذا الحرمان المهين رغما عن انها تتحمله حتى الآن وهي تمانع أشد الممانعة ؟ أن القوة وحدها تستطيع أن تكرهها على ذلك .

وقصارى القول أن يابان الأمس الضعيفة قد أصبحت اليوم حكومة ذات قوة عظيمة تعامل أعظم الحكومات بأساً معاملة الند للند . فهي تملك أسطولا يضاهي أسطول انكلترة ، ولقد قام هذا الأسطول أثناء الحرب بمهمة (الضابطة) في المحيط الهادىء ، وأدى للحلفاء خدمات جلى . كما أن ممثل لليابان في باريز قد كان من أعضاء (اللجنة العليا) التى وضعت شروط الصلح العام .

فيابان الأمس الصغيرة هى اليوم عظيمة جداً من الوجهة السياسية . فاذا ضربنا صفحاً ولم نتكلم عن استيلائها على الصين اقتصادياً نرى أنها قد ألحقت بها بلاد (شانتونغ) التى هى من

اتساع مساحة تعدل مساحة فرنسا . ثم أخذت (منشوريا) كما أنها ستلحق ببلادها عما قريب ولا شك كلا من (سيبريا) وجهات بحيرة (بئيكل) و (فلاديفستك) وكل هذه البلاد من المناطق الغنية بالفحم وزيت البترول . فنبوات اليومسيدة تسير حقيقية .

***

وقد كنت تنبأت منذ مدة بعيدة في مؤلف كبير كرسته للكلام عن الشرق بأنه لا بد من حدوث حرب طاحنة بين العنصر الأبيض والعنصر الأصفر .

ويظهر أن هذه الساعة قد قربت الآن . وإذا كانت الولايات المتحدة هي القادرة في الوقت الحاضر على الدفاع عن نفسها أمام المغيرة اليابانية فما ذلك إلا الآن . فخطرت لكن الساعة خفية وقتئذ أن تشكل جيشاً وتنشئ عمارة بحرية .

فبعض هذه الاستعدادات سيحدث وبعضها قد حدث معروفة في الوقت الحاضر والمستعمرات الانكليزية كلها ترى أميركا اليوم تقوم ضد الطمع الياباني . ولكن هذه ضعيفة في إيجاد المنصر . وهي لا تريد أن تحارب وإنما تضمن لها الجانب الذي تخوض في معركة من الواضح أنها ستكون هائلة ودموية أكثر من الحروبات .

السابقة بما لا يقاس . إذ ستكون هذه الحرب هي الحرب العظمى المنتظر حدوثها بين العناصر . وستقضي الضرورة على الهند ومصر والصين بخوض غمرها الى جانب اليابان وذلك لكى لا يطأطئوا رؤوسهم ويحنوا أعناقهم بعد الآن للتفوق الذي يدعيه العنصر الأبيض عليهم .

ويمكننا أن نعتبر من الحقائق الناصعة تلك الفكرة الحديثة التي صرح بها رئيس الوزراء الاستراليين إذ قال : « إن الدور الذي تلعبه الحوادث العالمية العظمى أصبح على وشك الانتقال من مسطح اليابسة الأوربية الى مياه المحيط الهادىء . »

قد نجح مؤتمر (وشنطن) فى أن يؤجل بعض التأجيل موعد نشوب الحرب العظمى بين أميركا وآسيا

على أنه لما كانت دلائل الأحوال تدل على أن تلك الساعة لا بد من حلولها فإن حكام الولايات المتحدة سيجبرون على سلوك أحد هذين الطريقين :

أما الرضاء بغارة اليابانيين والقبول بها واليابانيون إذا ما أغاروا على الولايات المتحدة يحولونها فى نهاية الأمر إلى مستعمرة من مستعمرات اليابانيه بسبب تكاثرهم العظيم الذي لا يمكن أضعافه أو إبطاؤه . وأما صد تلك الغارة عن طريق امتشاق حسام الحرب

فهذه الحرب الهائلة التي غدا خطرها يتعاظم في كل يوم لن تكون الا طبع والمنافسة بين ملوك والسلاطين والصناع من مسببتها فهي ستكون مشابهة لتلك المعارك الهائلة التي كانت تنشب في سبيل حياة والتي كانت تنتهي في الأدوار الأولى التي مرت على الأرض إما بفناء الأجناس وإما باستحالتها من شكل إلى آخر.

إذا كان مؤتمر وشنطن قد أتى بنتائج سياسية ضعيفة ومتوسطة فإنه لم يخل من فائدة من حيث إظهاره مرة أخرى أن حياة الشعوب بالرغم من أحلام القائلين بإصلاح الأممي مستمرة على خضوع لحكم بعض القوانين الطبيعية التي لا يقوى التقدم الذي تأتي به الحضارات على طمس معالمها وإزالتها من عالم الوجود ما

الفصل الثالث

قضية الضمانة

انه من الجلي بأن قضية التأمين هي أهم القضايا الحالية وأعظمها شأنا . ولما كان الحلفاء غدوا يتركون فرنسة وينسحبون من جانبها شيئاً فشيئاً فقد بقيت لوحدها أمام عدو أقلقت راحته فكرة الانتقام فغدا لا يهدأ له روع ولا يطمئن له خاطر فكيف يتاح لفرنسة أن تضمن السلامة وتوطد أركانها

ان الوسائط التى يصح الركون اليها لتحقيق هذه الأمنية قليلة العدد جداً . بل لا يوجد بينها فى الحقيقة سوى واسطة واحدة مستجمعة للشروط التى تؤهلها لتحقيق المطلوب وهي اشغال المدن التي تمتد على ضفاف الرين . وتغدو الساعة التى سيحاول العدو أن ينتقم فيها قريبة حلما يبدأ خلاء هذه المدن . ان كبار الرؤساء العسكريين عندنا متفقون جميعا على صحة هذا الأمر

ان الأسطر التى خطتها الايام للمستقبل في سجل الحوادث

مدونة فى الزمن الراهن . ولهذا السبب يجب أن لايذهل عن بالنا أبداً ماينتظرنا اذا استولى الالمانيون من جديد على الارض الفرنسية

ولقد ألمعت جريدة نيويورك تريبون في عددها الصادر بتاريخ ١٤ شباط سنة ١٩٢٣ الى الاعمال التى قام بها الالمانيون في فرنسة وفي بلجيكا وذلك كما يلي ، قالت :

« لقد بدأوا بسلب السكان ثم أجبروهم على العمل ونفوهم كالارقاء الى المانيا وقد سرقوا الممكنات والأمتعة والصور (تابعو) وأحرقوا المنازل والمكتبات والكنائس وخربوا الأراضي ، وساقوا الناس بالألوف الى السجون ومنصات الاعدام

« يجب أن يبقى عدد كبير من شهود حادثة نهب « لوفن » و « مالن » ومن جماعة الاختصاصيين فى تحت السرقة ومن رجال « سيلنغ » في بلجيكا ومن أولئك المهندسين والفنيين الذين لم يكن للرحمة والشفقة من أثر في قلوبهم والذين عرفوا جيداً أن يجعلوا من شمالي فرنسة صحراء قاحلة أثناء انسحابهم نحو خط « هندنبورغ » .

٢٢٠ »

لاشك بأن هذه الاعمال ذاتها ستعاد عند مايتمكن الالمانيون من الأخذ بالثأر . كما انه لامجال لأي وهم أو ظن في هذا الصدد .

اذا حدثت ألمـانيا نفسها بالقيام بتعد جديد فان هـذا التعدي سيكون سبباً لخراب فرنسة وفنائها على الـكامل

ان أغراض ألمانيا ونياتها هي دوماً نفس الاغراض التى ضمنها وزير الحربية البروسـية الجنرال « شلندرف » الـكلمات الآتية وجعلها تجرى مجرى الدساتير . قال :

« لا يمكن أن يقع بين فرنسة وألمانيا شيء سـوى قتال يفضى الى الموت

«ان القضية لايتم البت فيها الا بفناء أحد هذين الخصمين وانا سنلحق ببلادنا كلا من الدانيمرك وهولندة وسويسرة وليفونيا و (تريستا) و (البندقية) ، كما اننا سنضم اليها القسم الشمالى من فرنسة من الصوم حتى اللوار . » اه

لاشك بأن هذه الاطماع التي يدافع عنها المؤرخون والاساتذة الجرمانيون منذ أمد بعيد ستولد ثانية فى اليوم نفسه الذي تتخلى فيه فرنسة عن الضمانات الحقيقية الوحيدة التى تملـكها في الوقت الحاضر لتثبيت دعائم الصلح ونعنى بها أشغال ضواحي الرين . أما الاستسلام للأوهام في هذا الصدد فلا فائدة من ورائه ولا منفعة

ولقد ذكرنا الاستاذ (بلوندل) فيما يتعلق بهذا الأمر بما كتبه

(دوار ماير) وهو من أشهر الاساتذة في جامعة برلين ، فقد كتب هذا الاستاذ المشهور : « يجب أن نعي في أذهان الناشئة ان الحرب التي لم توصلنا الى ما كنا نؤمله ستتبعها بحكم الضرورة ، سواء في هذا اليوم ، أو في يوم آخر جملة حروب وذلك الى أن يصل الشعب الألماني ، هذا الشعب الذي اصطفاه الله منذ الازل الى المكانة التي له الحق فيها بين شعوب هذا العالم . »

وقد أخذ السواد الأعظم من أساتذة الجامعة بتلقين هذه الفكرة . وتحدث رئيس معهد الحقوق في برلين الى الاستاذ (بونلس) منذ بضعة أشهر فقال له : « لا بد مناص من حرب جديدة .... اذ أننا سنجد أنفسنا في الغد أمام حالة نفسية التي كنا عليها بالأمس . »

(*)

ان هذه المسائل المعلومة يجب أن لا تغيب عن الذهن لحظة ، لأنها مرتبطة بالمستقبل قدر ما هي مرتبطة بالماضي . ومع ذلك فان الناس ينسونها بصورة تدعو للعجب والحيرة . وتسود اليوم في بعض الدوائر الوزارية فكرة الصلح الأبدي التي ينادي بها أناس من ذوي العقول المحدودة ، فهؤلاء القوم يودون أن يخلقوا في نفوس الالمانيين فكرة تناسي الماضي ولا شك بأنهم يؤملون من وراء ذلك تهدئة

الخواطر الجرمانية الثائرة وذر الرماد على النار التي تتأجج في صدور الألمانيين .

يمكننا أن نذكر هنا كمثال عن هذا الزيغ الذي لا يمكن ادراكه والضلال الذي يستحيل تصور مثله الحادثة الفريدة التي حدثت لمؤلف الكتاب المعنون هكذا (لو ربح الالمانيون الحرب) فقد أوضح الكاتب في مؤلفه نوايا الالمانيين وأغراضهم ومقاصدهم واعتمد فى كلامه على أشهر المطبوعات الجرمانية ، وقد نال هذا المؤلف استحسان الكثيرين من الرجال البعيدين فى الشهرة سيما منهم المرشال ليوتي

ولما كان المؤلف غير عارف بالعقلية التى أشرت اليها قبل قليل فقد أرسل ثلاثمئة نسخة من كتابه مجاناً الى المكتب ذى الاختصاص في وزارة المعارف العامة لكى توزع هذه النسخ على مكتبات البلديات .

على انه خلافاً لكل احتمال قد رفض ذلك المؤلف (بفتح اللام) الذى كان واضح الفائدة جلى النفع : رفضاً باتاً . والسبب فى ذلك على ما جاء فى كتاب الرفض هكذا : « مهما كانت البيانات التى وردت في الكتاب صحيحة فهى لهجة الكتاب الشديدة التي استدعت الرفض »

هاك الحد الذي وصلت اليه مساعي (البروبغندة الدفعية) عندنا ! فهي تتصادم مع المعارضة الثقيلة · معارضة كتاب (الاقلام) الخاملي الذكر الذين تجاوز العمى في أبصارهم و بصائرهم في الحقيقة الحدود المعقولة تجاوزاً مفرطاً

***

بينما كان الكلام يجري في لرور في صدد المقدرات التي خدها المستقبل لفرنسة بل ولأوربة أيضاً ، كان نفر من المتشرعين ذوي القلوب الطيبة في جمعية الأمم يلقون محاضرات المشبعة بالمبادىء الانسانية ولكنها محاضرت لم يكن يؤمن بها احد فيها لا الخطباء الذين كانوا يتفوهون بها ولا المستمعون الذين كانوا يصغون اليها

بل ان هذه المحاضرات كانت محاطة بسحابة كثيفة من السآمة والضجر . ولهذا السبب ولا شك عتراني النعاس ذات ليلة بينما كنت أقرأ تلك المحاضرات ثم تغلب على سلطان الكرى فغشيتني غفوة تناوبتني فيها أحلام كثيرة

ولقد حملتني الاعراض (العسف) الى (الشنزليزه) وهي الجنة التي خصت بها أظلال مشاهير الرجال بحسب شريعة الوثنيين .

كان اول من صادفته هناك مؤسس الوحدة الالمانية البرنس « بسمرك » فلم تقع عينه علي حتى وضع يده على ظل حسامه وقال لي بشدة معنفاً :

« لاتباهي بظفرك (أي بالظفر الذي نالته أمتك) أيها الابن اللعين سليل ذلك العنصر الممقوت (أي العنصر الفرنسى) . فان في بلادك ، لحسن حظنا ، عدد من الاشتراكيين والشيوعيين و بلهاء « الانسانيين » يكفي لأن يضمن لنا النجاح عند ماتهب للانتقام والأخذ بالثار . فى ذلك اليوم لن يرتكب خلفائي وأعقابى مرة ثانية الغلطة التى ارتكبت عام (١٨٧٥) اذ أننى عند ما رأيت في تلك السنة أن فرنسة قد ولدت من جديد وددت أن أسحقها سحقاً باتاً وذلك بأن استولى على اغنى أيالاتها وأن أجبرها على قبول شروط من شأنها أن تجعلها فى حالة خراب تام وافلاس عظيم مدة قرن كامل لكننى ارتكبت خطأً جسيماً باصغائي لنصائح الحكام عندما حذرونى من تنفيذ الخطة التى رسمتها ، في حين أن أولئك الحكام لم يكن عليهم فى الأصل أن يتقلدوا السلاح لأجل الدفاع عن فرنسة . فكيف ارتكبت مثل هذه الغلطة ؟ إننى والله لأعجب من نفسى ! » ه

فتكدرت إذ ذاك كثيراً من هذه الحكايات المفقلة وهنا فقد ابتعدت عن المكان وسرت نحو أحد الجموع حيث خيل لي أنني أرى ظل الشاعر الطيب (لافونتين)

أما ذلك الظل فقد كان ظل الشاعر المذكور حقيقة . وقد كان يلقي على مسامع الذين كانوا ملتفين حوله وهم على أتم ما يكون من الجذل والانشراح قصة من قصصه تمكنت من ضبطها وهي هذه :

النمر والصيد

التقى يوماً أحد النمور وكان مستتراً بغمر أحد الصيادين في زاوية من زوايا أحد الغابات . وكان الصياد مسلحاً ببندقية صلبة متينة . وفيما كان يصوب بندقيته نحو النمر ويهم باطلاق النار عليه هتف هذا الأخير وهو يصيح بصوت مرتجفة من الفزع حتى قلبه قائلا :

— قف أيها الصياد ! ان الانسانيين قد عملوا لجميع المخلوقات ترابطها ببعضها رابطة الأخوة . إن النمر هو في الأصل صديق الانسان منذ زمن بعيد يحمي الزروع من شر سطوة قطعان الغنم الاشرار . أما الانسانيون فهم وحدهم الذين جمعوا الانسان ينظر للنمر بعين العداء . فلنتحد إذن يا أخي اتباعاً لما ينادي به رسل نزع

السلاح وهكذا نحظى بالسعادة الكلية . فالق سلاحك اذن وهاأنا سأقم حالا براثني وأظفاري

فتأثر الصياد لهذه الكلمات ولذلك فقد ارخى سلاحه ولكنه لم يتركه من يده فامام هذا النجاح (النصفي) لم يسع النمر الا أن يجرى في حديث الاستعطاف والاسترحام ، ويتمادى في اقناع الصياد لدرجة تجعل هذا يترك سلاحه اخيراً ويلقيه من يده بعيدا عنه فلا يكون من النمر الا ان يقطع احاديثه الانسانية فجأة وينقض على الصياد فيفترسه . ولما انتهى من افتراسه نظر الى بقايا ضحيته نظرة ملؤها الاحتقار والازدراء ، ثم تمتم قائلا :

أيها لابله

فكانت هذه الكلمة المرثاة الوحيدة لذلك الصياد الرقيق القلب في مأتمه . فليت شعرى هل يستحق ذلك الصياد مرثاة غير هذه المرثاة ؟

وإذ ذاك صحوت من هجوعي ، ولما عدت إلى عالم الأرض باشرت بمطالعة بعض الصحف الانكليزية فرأيتها تنصح لفرنسة بعبارات كلها تودد وتحبب أن تترك الرور وأن تتنازل عن مطاليبها في شأن التعميرات التى تعوق سبيل التجارة الانكليزية . وقدكانت

هذه النصيحة هي التي مافتأ المستر لويد جورج يلقيها منذ أمد بعيد في اسماع الحلفاء الذين هم كثيرو الاطاعة لما يمليه عليهم من الوساوس متصلفاً متعجرفاً .

من الجلي إن إشغال قطعة من أرض العدو عمية كثيرة الثمن باهظة النفقات وغير مستحسنة في الوقت ذاته . لكنه يكفي المرء أن يقرأ المقالات التي يكرسها الألمانيون للكلام عن فكرة الانتقام والأخذ بالثأر التي امتلكت عقولهم لكي يدرك مبلغ الضرورة التي تقضي باتباع تلك الطريقة .

فلقد مر على فرانسة وبلجيكا زمن طويل لم يكن في وسعهم وقتئذ لكي تتمكنا من اتقاء الغارات الجديدة أن تتبعا غير هذه الطريقة . كما إنه لن يمكن إيجاد غير هذه الخطة قبل أن يأتي يوم تتحول فيه الأفكار البربرية التي لا تزال مسيطرة على الشعوب تحكم فيها كما تشاء .

الفصل الرابع

أشكال الحروب في المستقبل والأوهام المتعلقة بقضية نزع السلاح

إن القضية المزعجة ، قضية نزع السلاح من المانيا ومن مختلف البلاد الأخرى من القضايا التى ما فتأت تشغل بال القابضين على زمام الأمور في جميع حكومات العالم .

لقد أصبحت المانيا خطراً على العالم بدرجة جعلت جميع الشعوب لا يجسر أحدها على إنقاص عدد أفراد جيشه برغم رزوحها جميعاً تحت عبء ميزانيات باهظة النفقات لدرجة ستؤدى بتلك الشعوب الى هاوية سحيقة من الخراب والافلاس .

و بينما جميع الشعوب تتوق الى السلام فان ضرورات قاطعة لا بد منها تحتم عليها تزييد عدد جيوشها وتسليحاتها .

وإذا كانت جميع الشعوب تستطيع أن تفكر بنزع السلاح بعض التفكير فان فرنسة أقلها استطاعة على ذلك . فهي لا تستطيع

أن تفكر بنزع السلاح لأنه لا إذا كانت كل من حكومتي إنكلترة وأميركا تقومان بما عبثاً يطلبه منهم رجل حكومتهم ونعني به أن تتعهد كل منهما بالدفاع عن فرنسا في إذا حدثت [illegible] بغارة جديدة إذ إن المفعول المعنوي البسيط الذي تولده هذه الاتفاقية والمحالفة يفي بالغرض المطلوب.

وإذا كانت هذه الفكرة قد أخفقت في فرنسا فسمحت بمعاهدة تقريباً أمام عدو قديم العهد بعداوتها لا يخفى ما يتأجج في صدره من نار الشوق إلى الأخذ بالثأر.

على أن أوروبا في الأصل لم تكن يوماً مهددة بنشوب حروب بين دولة وأخرى قدر ما هي مهددة اليوم. وفي أكبر الظن أن السياسة العقيمة التي قضت بتقسيم النمسا وتركيا إلى دويلات بينها منافسة وروح العداء قد جعلت هذه الممالك من أوضاع السياسة التي هو مسبب حالة [illegible] بين هذه الدويلات وتهدد السلام بين شعوب أوروبا.

فالتشكوسلوفاكيون والسكان [illegible] واليوغوسلافيون و[illegible] والمجريون والألمان واليونانيون ... الخ قد [illegible] فيما بينهم وكلهم يرمون إلى الانقضاض على خصمهم.

هل سيكون الديمقراطيون الذين هم ورثة السلطة العسكرية الالمانية أقل شغفاً بالحرب من أسلافهم أركان هذه السلطة ؟ ان علم النفس والتاريخ لايدعان مجالا للأمل بامكان صحة هذا الأمر .
ولقد لاحظ الدكتور « بوتلر » الذى هو من أشهر مستشارى رئيس الجمهورية الجديد في الولايات المتحدة وبحق لاحظ أن اليونانيين القدماء عندما كانو يدعون لابداء رأيهم في تفضيل أحد الامرين السلم أو الحرب — على بعضهم كانوا يؤثرون الحرب ويرجحونها على السلم . والدكتور « بوتلر » يعتقد بان هـذه النتيجة هي احدى النتائج التي تأتى بها القوانين المسيطرة على نفوس الجماعات . وقد أضاف على ذلك مايلي ، قال :

« ان القول المأثور الذى ينص على (ان الحكومات هى التى تجبر الشعوب بالرغم عنها على امتشاق الحسام) لايستطيع الثبات دقيقة واحدة أمام الحقائق التي يؤيدها الواقع فنستطيع اذن أن نتأكد بأن لو نستطلع رأى الشعوب الالمانية والنمساوية بشأن الحرب والسلم في مجتمع عام في الاسبوع الاخير من تموز عام (١٩١٤) لجاءت أغلبية الاصوات الساحقة في جانب طلب الحرب . » اهـ

***

ان الحاح الحلفاء في طلب نزع السلاح من المانيا ى القضاء على المدافع الرشاشة والمدافع العادية التي لاتزال باقية عندها نتيجة ولاشك عن اعتقاد رسخ فى أذهانهم من ان المانيا اذا ماجردت من أدوات الحرب وعدده ولوازمه فانها تصبح مأمونة الجانب ويغدو عجزها عن شن الغارات مضموناً

ان هذا الاعتقاد باطل

فان جميع العسكريين يرون ان المانيا هي اليوم سواء كان لديها مدافع أو لم يكن في حالة تعجزها عن معاودة امتشاق حسام الحرب في الوقت الحاضر

في حين انه بعد بضع سنوات سيكون تأثير هذه الالة تماما وقد يصبح حينئذ مدفع واحد .

* * *

ان هذه النتيجة هي خلاصة مباحث من يرقب بدقة تطور الحرب وتأثيراتها . ان هذه الرقى و التقدم يجعلنا امام حقيقة اساسية وهي ان غزو الشعوب في المستقبل سيكون بوجه خاص عن طريق الجو وان الامور التي ستهمنا اليوم والجيوش والمدافع في هذه المطاحنات سيكون قليل الخطورة ضئيل الاهمية .

لقد بلغت النتائج التي وصل اليها صنع المواد المنفجرة حداً أصبحت معه القوة المفرقعة لهذه المواد مدهشة للغاية فستكفى الطيارات التجارية إذن لايصال الألغام المحشوة بهذه المواد الملتهبة المفرقعة الى سماء إحدى البلاد والقائها عليها من عل الى أن تبيد عن آخرها ولما كان لغم واحد فيه من القوة منذ الآن مايستطيع معها على إبادة جميع مايدخل ضمن نطاق ساحة تمسح مئة متراً فسيكفى لغم واحد إذن لتدمير شارع برمته وابادة جميع من فيه من السكان

لاشك في أن هدف الحروب الجديدة فى المستقبل لن يكون أبداً منحصراً فى الاغارة على الجيوش بل سيكون هدفها إبادة المدن العظيمة بسكانها . وهكذا فان هذه الحروب الجديدة بالرغم من أن أمدها سيكون أقصر جداً من أمد الحروب القديمة فستكون دموية أكثر من هذه الأخيرة بما لا يقاس .

إن العدد العسكرية في المستقبل ستكون من دواعي تفوقها ، أنها ثنائية النفقات لأن غاية ما هنالك إن هذه العدد ستتألف من طيارات تجارية محملة بالمواد المنفجرة والقنابل المولدة للحريق عوضاً عن أن تحمل البضائع والسلع .

* * *

لكي أظهر للقارىء بأن النظريات السابقة ليست عبارة عن مجرد فكرة أرى مضطراً لأن أفسح المجال لجملة معترضة أو بعبارة أخرى لأن أتكلم بضع كلمات (على الهامش) كما يقولون، فأقول :

لقد كنت فيما سبق ذكرت القارىء بأنني تفقت قبل ما يربو عن العشرة أعوام مع صديقي « داستر » وهو من أساتذة معهد الصوربون على أن نخصص في كل أسبوع يوماً ندعو فيه على طعام الغذاء كل من ذاع صيته وبعدت شهرته من الأشخاص على اختلاف الأعمال أو الحرف أو المناصب التي يمارسونها ويزاولونها . فكان هؤلاء يبدون نظرياتهم ونحن على الطعام في حديث يومياً من الحوادث العظمى .

ولقد كان يوجد بين مدعوينا عدة كثير من مشاهير القواد ورجالات الحكومة الممتازين بمقدرتهم . وقد قضينا ساعات لذيذة جداً ونحن نصغي إلى الجنرال (مانجن) والجنرال (دومودوي) اللذين كانا يشرحان للحاضرين كيفية تقلب الأمور والأحوال أثناء الحرب — وإلى الأميرال (فورنييه) الذي كان يبحث عن تقدم الشؤون البحرية في مضمار الرقي والتكامل — وإلى أمثال (بريان) و (بارتو) من رجالات السياسة الذين كانوا يخوضون عباب البحث

فى القضايا الاجتماعية الكبرى . ثم إن كثيرين من ذوى الشخصيات البارزة من مختلف البلاد أمثال (فنزيلوس) و « تا كه يونسكو » و (بينيس) و (براتيانو) وغيرهم الذي جلبهم مؤتمر الصلح الى باريز كانوا بطبيعة الحال يحضرون لمقر اجتماعنا فيعرضون على الحاضرين آرائهم ونظرياتهم .

ولما كنت أنا الذى أترأس المائدة فقد كنت أنا الذى أترأس المواضيع التى تعرض على بساط البحث أيضاً .

ففي اليوم الذى سئل فيه مدعوونا الأفاضل عن رأيهم في مسألة نزع السلاح من المانيا وعن الحروب القادمة شرفني بزيارته أحد كبار القواد الذين كانوا يديرون أمور القوى الجوية العسكرية عندنا ، وقد تكلم لى حضرته عن الدور الهام الذى سيلعبه الطيران في الحروب القادمة فكان يعتقد أن الجحافل العظمى التي هي باهظة النفقات قد أصبحت عديمة النفع ولهذا سيصبح من الممكن الاستعاضة عنها باسطول جوى صغير يديره عشرة آلاف من رجال الاختصاص وهذا الاسطول الصغير يقوم مقام تلك الجحافل أحسن قيام بل يفوقها نفعاً .

ولقد اغتنمت فرصة وجود ثلاثة قواد على مائدة الطعام التى

كنا ملتفين حولها يومئذ فرجوت منهم أن يدلوا بآرائهم في هذا الصدد .

أما خطورة الطيران العظمى فقد اعترفوا بها جميعاً ولكن الدور الذي سيلعبه الطيران كان موضع شيء من الأخذ والرد . فتكلم الجنرال (غاسقوين) قائد المدفعية في الفيلق الأول قائلا إنه مذ كانت العواصم الخالية واسعة الأرجاء مترامية الأطراف وبالنظر لأنه يستحيل على الطيارين أن يعينوا المكان الذي سيسقط فيه المرمى — بالضبط — فإن التدمير الذي تحدثه قنابلهم سوف لا يتناول إلا بقعة معينة من البلدة المهاجمة . وقال الجنرال (مانجين) [وكان في قوله معبراً عن رأي الجنرال (دومودوي) أيضاً] إنه مذ كانت الطيارات ضئيلة الخطر على الجيوش بوجه خاص بسبب حركة قطعات هذه الجيوش وعدم ثباتها في مكان واحد فسيكون في الامكان دوماً . . . الجيش نحو البلاد المعادية بمهاجمتها وبأيسر . . . أن يخشى الطيارات . وزاد « دانيال برتو » على مقاله بأن التدمير والتخريب البالغين هذا المبلغ سيكونان سبباً في انعكاسات معنوية لا يمكن التنبؤ عن النتائج التي تنجم عنها . وانه يبدو له بل هو على مثل اليقين أن شأن الهجوم في الحروب

القادمة سيفوق ولا شك شأن الدفاع فواقاً عظيما في بدء الحرب ولو بقي دونه في جميع أدوار الحرب الأخرى

***

ان المرء يتوصل بسهولة لتكوين فكرة صحيحة لا تشوبها شائبة تقريباً عن كيفية فهم الالمانيين لحرب المستقبل اذا لاحظ ماتتضمنه المطبوعات الجرمانية . فان نياتهم ومقاصدهم يمكن أن تلخص على الكيفية الآتية :

حوالى عام (١٩٠٠٠٠) [وما يلي رقم (١٩) هنا هو عبارة عن نقاط اشارة الى المجهول وليست أصفاراً] جلس قاريء في مقهى من مقاهي (فرنكفور) وهو يفكر فيما خبأه الدهر لألمانيا ، واذا بالباب يفتح فجأة ويدخل أحد باعة الجرائد وهو ينادى (اقرأوا جريدة فرنكفور!) ففي تلك الجريدة يقرأ المرء ما يأتي :

« ان ساعة الأخذ بالثأر المنتظرة منذ أمد بعيد قد دق جرسها أخيراً معلنة حلول تلك الساعة . فلم يعد هناك لوندرة وباريز على وجه الارض بل انمحتا تماماً من عالم الوجود وأصبحتا أثراً بعد عين . اذ قد دمرت الأبنية والمساكن وخربت ، وسحقت أنقاضها السكان أو أحرقتهم وهم أحياء . أما العدد القليل منهم الذى نجا من الموت فقد

هاموا على وجوههم فى البرارى والقفار وتأهوا و نوهم تقذف صرخ مخيفا مصدره اليأس لذى استحوذ على قلوبهم و حسرة التي تمتلكت افئدتهم . وهذه الأنباء ستهتز لها جميع القلوب الانسانية سرورا وحبورا

« واننا نورد فيما يلى بعض التفصيلات عن كيفية تهيئة الاسباب لهذه العملية :

« قد زود عدد من الطيارات ببعض الآلات بمواد متفجرة ملتهبة وبالقنابل التى تحدث الحريق وقذفت على مدينتى لونسرة وبريز . أما هذه الطيارات فقد صنعت فى بلاد مختلفة وخصوصا فى الروسيا تحت ستار انها طيارات تجارية . كما أن كثيرين سبق أن اكتشفوا طريقة حفظ العناصر الملتهبة التى هى شديدة الخطر عندما تكون مفترقة عن بعضها وبالتالى فهى لا تفقد النظر وهى على هذا الحال .

ربما أن امر تدمير لونسرة وبريز قد هيئت أسبابه فى طى خفاء والكتمان التمهيدين فقد وجب الأمر ستنبط وسائط تشل يد العدو وتحول بينه وبين أخذ حيطته لنفسه . وهذا فبفضل مصلحة الجاسوسية علمت مراكز طيران العدو معروفة لدينا ،

وهكذا بينما كنا ندمر العاصمتين الكبيرتين تمكنا فى الوقت ذاته من اشعال النار فى المستودعات التى تحض قوى العدو الجوية فأحرقناها برمتها

« هذا ولكى نضمن بلادنا من غائلة احتلال عسكرى فقد أوفدنا الجيوش الألمانية الى جهات التخوم كما أننا أرسلنا الى تلك الجهات أيضا طيارات مزودة بالمواد المخربة . »

وأضافت (الغازات دوفرنكفور) التى صدرت فى الساعة الرابعة على ماسبق الكلمات الآتية :

ان طياراتنا التي عادت نحو مستودعاتها لتتزود من جديد بالمدمرات والمواد المنفجرة المحرقة ، عادت وقد أتمت ما عهد اليها من أمر تدمير لوندرة وباريز فدمرتهما على الكامل . وقد طيرت برقية بواسطة التلغراف اللاسلكى الى جميع محطات التلغراف الفرنسية والانكليزية تعلمهم بأننا سندمر فى كل يوم بلدة من البلاد العظمى اذ رفضوا الاذعان لشروط الصلح التي عرضناها عليهم ولم يقبلوا بها بالنظر لوطأتها الشديدة . فاذا رضيت الحكومتان الانكليزية والفرنسية بهذه الشروط — وكيف تستطيعان التملص من الاذعان اليها وتجتنب القبول بها — يمكن آنئذ القول بأن أعظم الحروب

التي عرفها التاريخ وهوط، من حيث التدمير وسفك الدماء لن تمتد اكثر من أربعة وعشرين ساعة . » اهـ

***

انه لمن المستحيل أن يتكهن امرء منذ اليوم عن أي سلاح جديد سيأتي به العلم في الغد . أما كون الحروب ستصبح في كل يوم أشد هولا مما كانت عليـــه في ذلك اليوم فهو من الحقائق المقررة التي أصبحت لاتحتاج لأى مناقشة أو برهان . وأما كون المانيا تتوق الى الأخذ بالثأر فقد أصبح أيضا واضحا وضوح الشمس في رابعة النهار . ولئن كانت ألمانيا قد فقدت رأسمالها المادي فلم تفقد رأسمالها المعنوي وبمعنى أوضح لم تفقد الـكفاءات الفنية التي هي أساس قوتها الاقتصادية

ان ألمـانيا في غرب ونصف دائمين مع الذين يجاورونها منذ بدء التاريخ المعروف عنها . فليت شـعري هل يدخل في حيز الامكان أن تدفع بلاد بعد ستين مليون نسمة ضريبة سنوية لمدة أربعين سنة للذين انتصروا عليها ؟

لقد صرح القائد المشهور مرشـال فوش في حديث جرى له مؤخراً مع أحد الصحافيين ان صنع المدافع والطيارات هو دوما من الأمور الميسورة . وزاد على ذلك بقوله :

« ان موقعة (المارن) هي (لباقة بطل) لا يرجى تكورها مرة ثانية . ان نهر (الموز) غير ممكن الدفاع عنه ؛ فلو لم نكن مستقرين حول ضفاف الرين لما استطعت أن أنام نوماً هادئاً ليلة واحدة منذ انعقاد الهدنة . » اه

لو نجحت الحكومة الانكليزية في الحيلولة دون بقائنا مستقرين على ضفاف الرين وحققت رغبتها هذه التي أفصحت عنها أثناء المفاوضات التي دارت فى مؤتمر الصلح افصاحاً شديدا مشفوعا بالتحمس لنظريتها ، نقول لو نجحت اذ ذاك فيما كانت تسعى وراءه لأصبحنا في حالة يرثى لها بعد قليل فضلا عن أن حالتنا على ما هي عليه اليوم من الخطورة بدرجة كافية

***

لقد كثر الجدل حول الفوارق الموجودة بين عقلية الفرنسيين قبل قرن و بين عقليتهم فى الوقت الحاضر . على أن هناك فرق أساسيا يميز الفريقين عن بعضهما تمام التمييز . فلقد خرجنا قبل مئة عام مغلوبين من موقعة تعد من أعظم الوقائع في التاريخ . ولكن مستقبلنا لم يكن مهدداً بالخطر . فى حين أن فرنسة تخرج اليوم ظافرة من معركة جديدة ولكن مستقبلها مشحون باخطار عظيمة لدرجة

أفقدتهم راحة البال واطمئنان النفس . فهذه الحالة العقلية تؤثر بدوره على مقدراتها تأثيرا شديد الوطأة جدا

مهما كررنا القول وقلنا أن على رجال الحكومة مدة مت قضية التعميرات قد استنفدت جهودهم على ما يظهر ان يجعلوا شغلهم الشاغل الفصل في قضية ضمانة السلامة على الأقل فإننا لا نفي بما تستأهله هذه القضية من التكرار والاعادة . اذ أنه لأجل النجح في هذا الأمر فإن العمل أشد مفعولا من الخطب والمحاضرات

عند ما منح العلم الحديث الانسان قوة تفوق بعضها في بعض الأحيان القوة التي كان يعزوها الوثنيون قديما الى آلهتهم ومنحه معها الحكمة ورجاحة العقل المتين أصبحت السلطات الخبيثة بدونهما من عوامل الابادة والتخريب ولهذا السبب فإن حياة المدنيات التي أتى بها العلم مهددة بخطر الاضمحلال والزوال تحت تأثير ذات القوى التي وضعت تلك الحضارات

على أننا لا نعلم اذا كانت حضاراتنا تستطيع النجاة ولا فلات من خطر الاضمحلال الذي تهددها به حرب لا أخذ بالثأر من الخارج والانحطاط الاجتماعية من الداخل .

ولئن استطاعت تلك المدنيات التملص من الخراب والدمار

الذي يؤكد الكثيرون من رجال الحكومات انه أصبح منها قاب قوسين أو أدنى فلا تكون استطاعت ذلك الا بفضل بعض مبادىء مر ذكرها اكثر من مرة فى هذا الكتاب وانتهى الأمر بالشعوب وبالقابضين على زمام أمورها على اعتبارها عناصر جديرة بالاتباع وهذه المباديء تتلخص فيما يلي :

١ ـ إن نهضة العالم الحاليــة قد أتت بروابط جعلت الأمم مرتبطة ببعضها لدرجة أصبح لايمكن معها أن يصيب إحداها ضرر أو أذى بدون أن يلحق الأمم الأخرى منه نصيب .

٢ ـ لما كان للضرورات الاقتصادية والنفسية التى تسيطر على حياة الشعوب وتديرها وراء المظاهر التى يختلط فيها الحابل بالنابل ثبوت وصحة القوانين الحكمية (فيزيك) التى لا تتزعزع أركانها ولا يطرأ عليها الخلل ، فان جميع تجارب الخياليين الذين يحاولون إدخال التبديل والتحوير على أركان إحدى الجمعيات البشرية لا يمكنها إلا أن تقوض دعائم تلك الجمعية وتبيدها .

في اليوم الذي تنزل فيه هذه الحقائق التى هى مبنية على العقل المحض الى حظيرة العواطف والمشاعر حيث تنضج مواد الأعمال ، يستطيع السلام المكين الدائم أن يسود العالم . واذ ذاك فقط ، لا يعود

العالم عبارة عن جحيم تتلاشى فيه ذرى الدمار والكآبة والغم .

***

إن البحث في شأن المستقبل المظلم بأكثر تطويلاً من هذا مع ماهو عليه حال العالم الآن من التقلب وعدم استقرار عديم النفع .

إذ أننا لانعلم شيئاً عن الأيام التي سيتمخض بها الغد . على أن القول المشفوع بالتأكيد بأن الأفكار ستلعب أثناء الأزمة والتكامل العالميين المقبلين دورها العظيم لأهميتها الكبيرة النفوذ والتأثير الذي اعتادت أن تلعبه دوماً — لا يعد تطاولاً على مخبئات الدهر . ولو كنا على علم بأفكار الأشخاص الذين سيأتي بهم الغد إذن لتمكنا من التنبؤ عما خبأه الدهر لنا ، ولأدركنا ماستأتينا به الأيام . ولكن الأفكار الجديدة التي ولدتها الحرب لا تزال سائرة في سبيل التشكل والتكون .

إن أبناء العصر الذين سلموا من غوائل الحرب الكونية لم يكتسبوا بعد عقلية يمكن تعيين حدودها كما ينبغي وحصرها ضمن نطاق معين جلي . كما أن هؤلاء المعاصرين المشتغلين بالحقائق بوجه خاص لايدعون بأنهم توصلوا إلى إدراك كنه الحياة الحقيقي ، الذي عبثاً حاول الفلاسفة البحث عنه ، بل هم إنما يسعون للانتفاع من

الساعات القصيرة جداً التي يسمح بها الطالع لجميع الأحياء على السواء .

إن النظريات السياسية والدينية التي أشغلت من أبناء الامس البائد وجيشت منهم الفكر والعقل تبدو كأنها لا تستأهل الالتفات تقريباً في نظر ابناء هذا العصر ، وكأنما أمرها سواء لديهم . ومع ذلك يبدو أيضاً أن الحكم المطلق والجوروالعبودية والاستبداد على اختلاف أنواعها وأشكالها سواء كان مصدرها الآلهة أو الملوك أو الجماعات فان احتمال أحكامها يظهر لهم كأنه فوق طاقتهم .

***

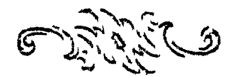
إن مقدرات أبناء الأجيال الحديثة أياً كانت الحقائق التي يتبعونها ستكون مرتبطة — وأعيد القول هنا أيضاً — بالأفكار الرئيسية التي ستترك أثراً في أذهانهم حتى ولو لم تكن شعرت بها .

منذ اليوم الذي انعتق فيه الانسان من نير الحيوانية الأولية أصبحت الأفكار هي الكل في الكل في هذا الوجود وساد الدور لذي تلعبه في جميع أنحاء العالم . وما التاريخ إلا نسيج من نتائج تلك الافكار فهي لحمته وسداه . كما أنها هي التي أوجدت الألوهية التي تعبد تحت اسماء مختلفة ، وانى لم تتجرد الأمم يوماً عن عبادتها ولم تضرب صفحاً عنها في يوم من الأيام قط .

إن الحضارات العظمى بما تحويه من أنظمة ومعتقدات وفنون إنما قام بناؤها على صروح من الأفكار ليس إلا . وهذا فإن الأمة بحسب اختيارها مثل الأعلى الذي يقودها في معترك الحياة فإما أن تتسنم ذرى المجد وإما أن تهبط إلى حضيض الانحطاط والتدني

على أننا لا نعلم شيئاً من أمر الأمثلة العليا التي ستتحكم الشعوب في الغد ، ولهذا فإن مستقبل هذه الشعوب لم يمكن التنبؤ عنه بعد ولا تزال الأسطر التي خطتها يد الأقدار في سجل المستقبل غامضة لا يمكن قراءتها . أن إدخال التبديل والتحوير على أفكار الشعوب وحتى الآلهة ما زال دوماً من الأعمال الهائلة المريعة في عمر الشعوب . ولقد انقرضت روما من عالم الوجود لأنها لم تستطع إيجاد حل هذه القضية العظيمة ما ؟

— تمت —



فهرس الكتاب

صفحة

٤ التوطئة — حالة العالم اليوم

الكتاب الاول

عدم التوازن السياسى

١٠ الفصل الاول — تطور المثل الاعلى وتكامله
١٧ الفصل الثاني — النتائج السياسية للشطط في الشؤون النفسية
٣٣ الفصل الثالث — صلح الاساتذة أو معاهدة الصلح يضعها أساتذة الجامعات
٤٢ الفصل الرابع — تيقظ العالم الاسلامى
٥٢ الفصل الخامس — عدم تفهم أوربة للعقلية الاسلامية
٦٤ الفصل السادس — مسألة الالزاس
٧٥ الفصل السابع — الحالة المالية اليوم . أى الشعوب ستتكبد نفقات الحرب

الكتاب الثاني

عدم التوازن الاجتماعي

صفحة

١٠٣ الفصل الأول — عدم التقيد [illegible]

١١٢ الفصل الثاني — الجوانب الاقتصادية في [illegible]

١٢٣ الفصل الثالث — الاشتراكية في الأعمال [illegible] مشتركة بين الخلق

١٣٦ الفصل الرابع — [illegible]

الكتاب الثالث

عدم توازن [illegible]

١٥٦ الفصل الأول — [illegible]

١٦٧ الفصل الثاني — [illegible]

١٧٩ الفصل الثالث — [illegible]

١٩٣ الفصل الرابع — كيف يمكن [illegible]

٢٠٠ الفصل الخامس — أسباب غلاء المعيشة

الكتاب الرابع

اختلال التوازن الاقتصادى فى العالم

٢١٨ الفصل الأول — القوى الجديدة التي تدير العالم

٢٢٥ الفصل الثاني — الفحم الحجرى وزيت البترول : القوى الجديدة المنبعثة عنهما ومكانتها الاجتماعية

٢٣٧ الفصل الثالث — موقف ألمانيا الاقتصادى

٢٤٩ الفصل الرابع — الأركان النفسية للضرائب الأميرية

٢٥٩ الفصل الخامس — مبادىء علم الاقتصاد الأساسية

الكتاب الخامس

القوى الجماعية الجديدة

٣٦٥ الفصل الأول — الأوهام الاعتقادية فيما يتعلق بقوة الجماعات

٣٧٠ الفصل الثاني — مؤتمر جنوى كمثال عن النتائج التي يمكن أن تحصل عليها جماعة من الجماعات

٣٨٠ الفصل الثالث — الجماعات البرلمانية الكبرى

٢٧٩ الفصل الرابع — تطور الجماعات نحو شكل مختلف من الاستبداد

٣٠٣ الفصل الخامس — جمعية الأمم وأوهام دعاة السلم

٣١٦ الفصل السادس — نفوذ الدول التي يعتمد على مرجع السلم

الكتاب السادس

كيف تتكون عقلية الامة

٣٢٥ الفصل الاول — آراء الامريكيين بشأن التثقيف

٣٣٩ الفصل الثانى — طرائق صلاح نسق التدريس في فرنسا وجامعات الجرمانية

٣٥٠ الفصل الثالث — تعليم الاخلاق في المدرسة

٢٥٩ الفصل الرابع — تكوين العادات الاخلاقية وسط الجيش

الكتاب السابع

المحالفات والحروب

٣٧٤ الفصل الاول — قيمة المحالفات

٣٩٣ الفصل الثانى — المطاحنات فى سبيل التفوق الدولى
والاحتفاظ بالكيان

٤٠١ الفصل الثالث — قضية الضمانه

٤١٨ الفصل الرابع — مشكلة الحروب فى المستقبل والاوهام
المتعلقة بمسألة نزع السلاح

